الباب الخامس

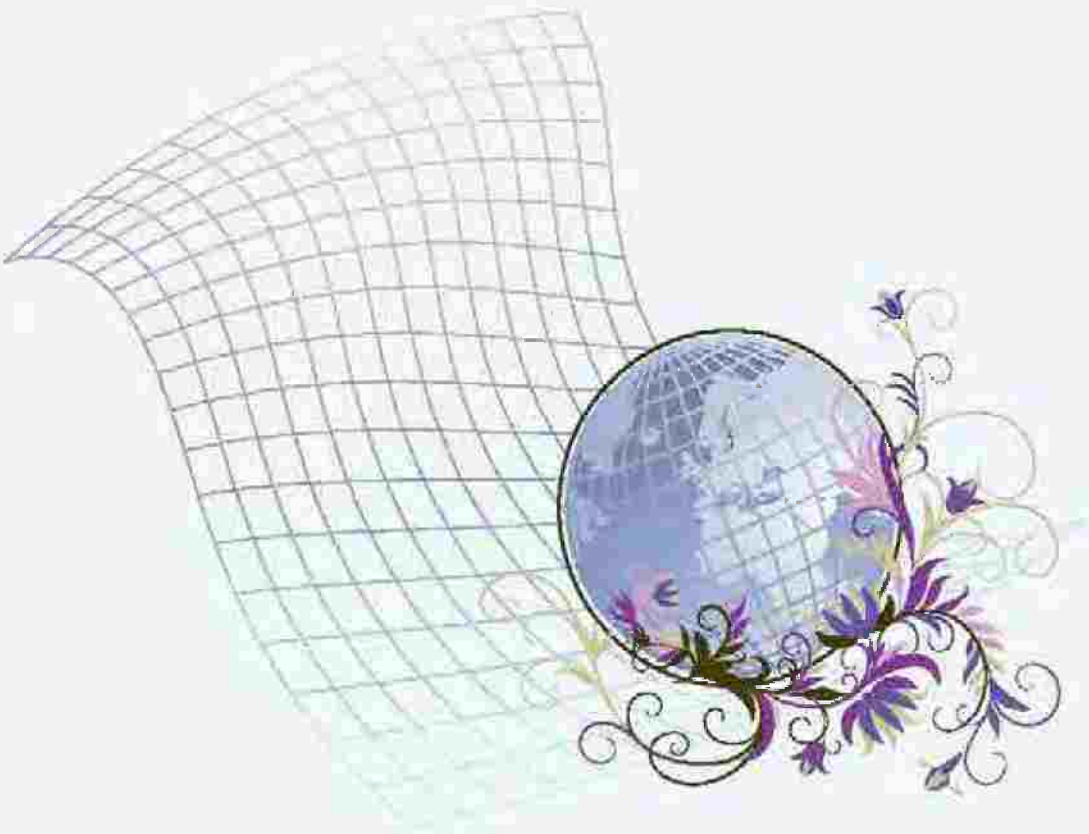

العصر العباسي الثاني

٤٤٧-٦٥٦هـ / ١٠٥٥-١٢٥٨م

ثالثاً: عصر النفوذ السلجوقي التركي

العصر العباسي الثاني:

ثالثاً: عصر النفوذ السلجوقي التركي ٤٤٧-٥٩٦هـ / ١٠٥٥-١٢٥٨م

يطلق **مصطلح السلاجقة** على مؤسسي الدولة السلجوقية، وهي من أهم الدول الإسلامية التي ظهرت على مسرح التاريخ في العصر العباسي الثاني، حيث اشتبكت في قتال مع الغرب النصراني الذي أدى إلى قيام الحروب الصليبية آنذاك.

والسلاجقة: مجموعة من القبائل التركية تنتمي في الأصل إلى طائفة (الأوغوز) استقرت في إقليم ما وراء النهر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين بعد أن أسلمت وحسن إسلامها، ثم انتقلت بعد سنوات قليلة إلى **خراسان** وكونت جيشاً قوياً تمكنت به من دخول مدينة **نيسابور** في عام (٤٢٩ هـ ١٠٢٧م) فأعلن زعيمها **طغرل بك** قيام دولة السلاجقة ونادى بنفسه سلطاناً على هذه الدولة، وكان قيام دولة السلاجقة حدثاً بارزاً في تاريخ إيران والعراق بخاصة، وفي تاريخ العالم الإسلامي بعامة، وكانت موقعة (داندا نقان) (٤٣١ هـ ١٠٢٩م) من المواقع الحاسمة الفاصلة في تاريخ كل من الغزنويين والسلاجقة لأنها كانت موجهة لتاريخ كل من الدولتين، ولقد أدى انتصار السلاجقة إلى ظفرهم بمغانم كثيرة مادية ومعنوية، فأحكموا بعدها سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر، وظفروا باعتراف الخليفة العباسي وقيام دولتهم وأخذوا يستعدون لبسط سلطانهم على إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام[١].

وفي غمرة الصراع بين السلاجقة والغزنويين في خراسان استطاع **طغرل بك** أن يؤسس لنفسه سلطنة في العراق إلى جانب الخليفة العباسي «القائم» (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م). وظلت خراسان تتبع الدولة السلجوقية في العراق، وكان السلاجقة أيضاً يغيرون من خراسان إلى ما وراء النهر لقتال الإيلكخانية حلفائهم القدامى بحجة أن السلاجقة يمثلون الخليفة العباسي، فاحتلوا سمرقند، وأوصلوا سلطتهم إلى شرق ما وراء النهر (٤٨٢هـ/١٠٨٩م). وكان طغرل بك قد قدم بالسلاجقة إلى بغداد عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م لإنقاذ الخليفة من قائد يدعى **«البساسيري»** كان يعمل على الدعوة في بغداد **للخلافة العبيدية** في مصر، واضطره إلى الفرار، وعاد طغرلبك إلى حاضرته الري.

وقدم طغرل بك ثانية بعد عامين إلى بغداد بعد أن استأذن الخليفة بالقدوم، ولما قدمها بموكب فخم استقبله الخليفة ولقبه **«سلطان المشرق والمغرب»**، وكان ذلك إيذاناً بقيام سلطنة السلاجقة في العراق، ودخول الخلافة العباسية في عهد جديد دعي بعصر النفوذ السلجوقي[٢]. كما انتزعوا مكة والمدينة من سلطة العبيديين الشيعة، ونتيجة للأوضاع السيئة التي كانت تسيّر الأوضاع من قبل العبيديين والحركات الباطنية الأخرى إضافة إلى ضعف مركز الخلافة في بغداد أدى إلى مواجهة سلاجقة الروم في بادئ الأمر للخطر الفرنجي في آسيا الصغرى (الحروب الصليبية).

---

١ - أ. د/ عزت الصاوي، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٢ - مظهر شهاب، الموسوعة العربية، مج ١١، ص ٤٠.

الخلافة العباسية في عهد السيطرة السلجوقية التركية

من أبرز حكام السلاجقة الأتراك الذين حكموا إيران والعراق وسورية وأجزاء من آسيا الصغرى في أواخر القرن العاشر الميلادي:

أولاً : السلاجقة الكبار وحكموا في الحقبة من ٤٢٩ -٥٥٢ هـ / ١٠٣٧ – ١١٧٥ م. مؤسسها **طغرل بك**، وجغري بك، حفيدا سلجوق، واشتهر منهم ألب أرسلان وملكشاه وبركياروق.

ثانياً : سلاجقة كرمان، وحكموا من ٤٣٢ - ٥٧٦ هـ/ ١٠٤١ – ١١١٨م. مؤسسها قرة أرسلان.

ثالثاً : سلاجقة الشام، وحكموا من ٤٨٦ – ٥١١ هـ. مؤسسها تتش بن أرسلان.

رابعاً : سلاجقة العراق وكردستان، وحكموا من ٥١١ - ٥٩٠ هـ. مؤسسها مغيث الدين محمود.

خامساً : سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وحكموا من ٥١١ - ٦٩٩ هـ / ١١٧٧ - ١٣٠٠ م.

قام أحفاد سلجوق، **طغرل بك** (٤٢٩-٤٥٥ هـ) وجغري (٤٣٠-٤٥١ هـ) بتقسيم المملكة السلجوقية إلى قسمين. **القسم الغربي** وقاعدته **أصفهان**، **والقسم الشرقي** وقاعدته **مرو**. بعد انتصاره على الغزنويين سنة ٤٣١ هـ بالقرب من دنكان، ثم توسعت مملكة طغرل بك إلى الغرب أكثر حيث ضمت فارس إليها سنة ٤٣٣ هـ، ثم بعض الأجزاء من الأناضول (آسيا الصغرى)، وأخيراً العراق بعد القضاء على دولة البويهيين فيها حيث دخل طغرل بك بغداد في ٢٥ رمضان ٤٤٧هـ/٢٣ ديسمبر ١٠٥٥ م.

يطلق على عهود سلاطين السلاجقة في العراق. السبعة الأوائل. عصر السلاجقة العظام (بين ٤٤٧-٥٥٢هـ/١٠٥٧-١١٥٧م) لأن سلطتهم كانت تمتد من بلاد الشام إلى حدود الصين. أما من جاء بعدهم من السلاطين فقد أشغلتهم الحروب فيما بينهم، وانفصلت عن سلطتهم بعض المناطق. وكان عصر ثالث السلاطين العظام ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٣-١٠٩٢م) **العصر الذهبي** لسلطنة سلاجقة العراق، وقد اهتم السلطان بالإصلاح ونشر العدل والأمن، وشق عدداً من الطرق، كما خفف بعض الضرائب. وبنى وزيره المصلح «**نظام الملك**» عدداً من المدارس في أنحاء مختلفة، وقد دعيت هذه المدارس بالمدارس النظامية نسبة إليه، مما أدى إلى انتشار العلم ولاسيما علمي الفلك والرياضيات[١].

استطاع شقيق ملكشاه تتش دخول دمشق عام (٤٦٨ هـ/١٠٧٥م). وكان قد سبقه إليها قائده آتسز في العام نفسه **وانهى حكم العبيديين فيها**. وحاول تتش أن يتوسع في بلاد الشام فدخل حلب (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ولما حاول أن ينازع ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه (٤٨٧-٤٩٨هـ/١٠٩٤-١١٠٤م) على السلطنة، قُتل في إيران عام ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م قرب الري، وخلف تتش على حكم حلب ابنه رضوان كما حكم ابنه الآخر دقاق دمشق. وخلف دقاق عند وفاته عام ٤٩٧هـ/١١٠٥م قائد جيشه طغتكين وبه يبدأ **حكم الأتابكة** بدمشق. كما انتقل حكم حلب عند وفاة رضوان (٥٠٧هـ/١١١٣م) إلى واحدٍ من أتابكته. وكان سلاجقة الشام قد أسهموا في قتال الفرنجة في الحملة الصليبية الأولى.

أما سلاجقة كرمان في جنوب غربي إيران فيعود تأسيسها إلى أحد أمراء السلاجقة ويدعى قاورت بن داود بن ميكائيل في حاضرته التي تحمل الاسم نفسه (كرمان) من أيام ثاني السلاجقة العظام ألب أرسلان ٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م، وانفصل قاورت عن السلطنة السلجوقية عام ٤٣٣هـ/١٠٤١م، وأسس سلالة حاكمة فيها، وتوالى على الحكم فيها أحد عشر أميراً إلى أن انتقل الحكم إلى أحد أتابكتهم عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م. وقد اهتم سلاجقة كرمان بإعمار المنطقة وبالزراعة، ولاسيما زراعة النخيل وتربية المواشي.

وكان النصر الذي أحرزه **ألب أرسلان** عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م على البيزنطيين وأسره الإمبراطور البيزنطي في معركة ملا ذكرت (ملاذكرد)، بين بحيرة **وان** ومدينة **أرض روم**، سبباً في قيام دولة سلجوقية جديدة في آسيا الصغرى (الأناضول)، كان حاكمها الأول سليمان بن قتلمش ابن عم ألب أرسلان (٤٧٠-٤٧٩هـ/١٠٧٧-١٠٨٦م). وتعززت الدولة الجديدة بما كان يصل إلى الأناضول من قبائل تركية. **وبدأت منذ ذلك الحين آسيا الصغرى تتحول من رومية بيزنطية إلى تركية**[٢].

---

١ - ٢. مظهر شهاب، الموسوعة العربية، مج ١١، ص ٤٠.

زحف محمود الغزنوي بجيوشه نحو خراسان واشتبك مع السلاجقة في معركة حاسمة في مكان يعرف باسم دَنْدانقان. انتهت بهزيمة الغزنويين، وكان ذلك عام ٤٣١هـ. لم يلبث السلطان مسعود أن أتى بحملة مضادة عام ٤٣٢هـ فاحتله إيالة مرو، وقد أصبح السلاجقة بعد معركة دَنْدانقان أكبر قوة في خراسان في حين كان الغزنويون قد ضعفوا بعد أن هُزموا هزائم جيوشهم وخسروا العديد من ممتلكاتهم، واستطاع الغوريون في أفغانستان من الاستيلاء على أملاكهم في الهند سنة ٥٨٢هـ.

دينار سلجوقي ضرب نيسابور ٤٣٣هـ
ركن الدين (طغرل بك).

أقصى مدى لدولة السلاجقة الأتراك في القرن الخامس الهجري

- دولة السلاجقة
- الإمبراطورية البيزنطية
- مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى
- الدولة الغزنوية
- مناطق الاحتلال الصليبي
- الإسماعيليون (الحشاشون) في ألموت
- الدولة العبيدية
- الإمامة الإباضية
- الصليحيون
- اليهود

* موضعة ملاذكرد (ملازكرد) سنة ٤٦٣هـ

* انطلاق حكام سلاجقة الأناضول انتزاع المزيد من الأراضي من البيزنطيين واتخذوا الأنسهم مدينة قونية عاصمة لهم وكانت دولة سلاجقة الأناضول آخر مبرماً من بقية دول السلاجقة.

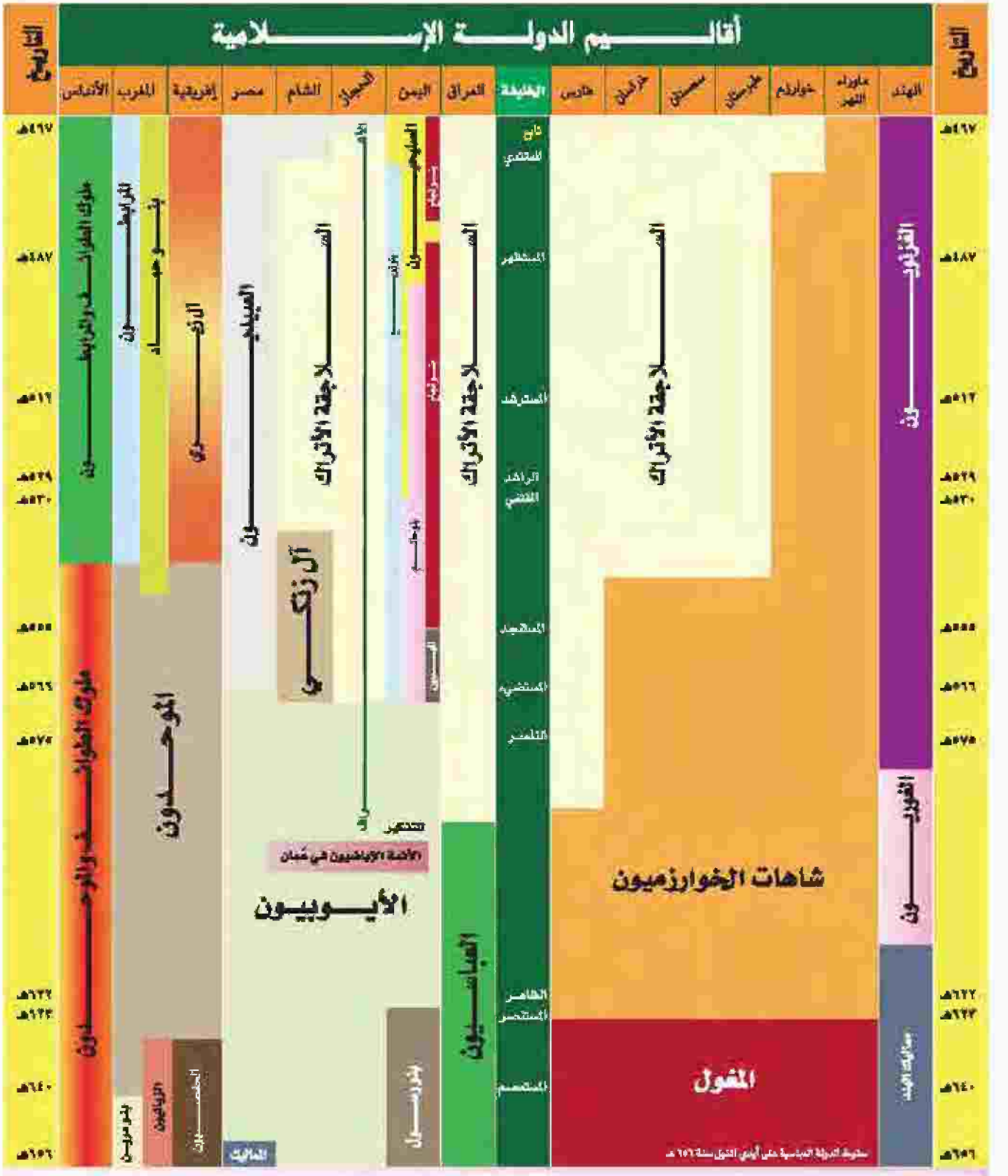

مسفوفة زمنية للإمارات السياسية في العهد السلجوقي التركي خلال العصر العباسي الثاني

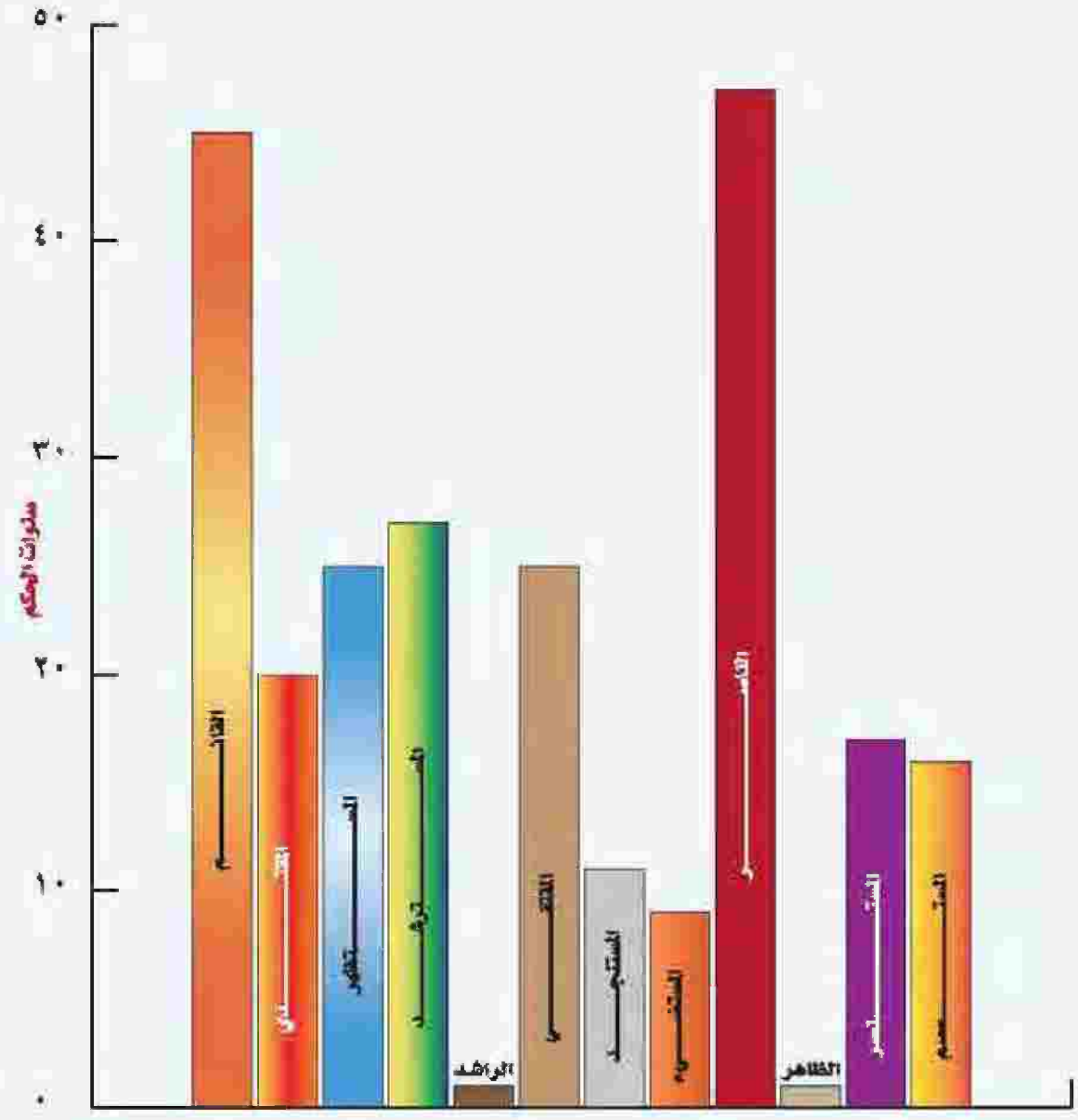

خلفاء العصر العباسي الثاني (العهد السلجوقي من ٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ)

صفحتان من مخطوطة للداعي الدرزي حمزة بن علي مؤسس الطائفة (الديانة) الدرزية ووزير الحاكم العبيدي (الفاطمي) في الرد على النصيرية . وهي معنونة « الرسالة الدامغة للفاسق علي النصيري لعنه المولى في كل كور ودور » .

للأهمية :

انظر ص ١٥٨ من هذا الأطلس

مصدر المخطوطة - مكتبة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

جهاد الدولة في عهد السلاجقة العظام

كان **ألب أرسلان** كعمه طغرل بك – قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة النصرانية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية، لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما أطمأن على استتباب الأمن وتمكّن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد النصرانية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة العبيدية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد **الأرمن وجورجيا** فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق . وأغار ألب أرسلان على شمالي الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، التي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة ٤١٤هـ وأخبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة العبيدي سنة ٤٦٢هـ ، ثم أرسل قائد الترك أتسنسر بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوبي الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس بدلاً من العبيديين، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تُعَدُّ بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

أبو شجاع ألب أرسلان

هو السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع ألب أرسلان، محمد بن السلطان جغر بيك داود ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق بن سلجوق التركماني، الغُزّي، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم، ملك بعد عمه طغرل بك، وكان عادلاً سار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً، شفوقاً على الرعية رفيقاً على الفقراء، بارّاً بأهله وأصحابه ومماليكه، كثير الدعاء بدوام ما أنعم به عليه، كثير الصدقات يتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار، ولا يصرف في زمانه جناية ولا مصادرة، بل يقنع من الرّعايا بالخراج في قسطين، رفقاً بهم. اعتمد ألب أرسلان في الوزارة على نظام الملك، وكان وزير صدق، يكرم العلماء والفقراء، ولما عصى الملك شهاب الدولة قُتْلمش، وخرج عن الطاعة، وطمع في أخذ الملك من ألب أرسلان وكان من بني عم طغرل بك، فجمع وحشد واحتفل له ألب أرسلان فقال له الوزير : أيها الملك، لا تخف؛ فإني قد استخدمت لك جنداً ليلياً يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء والصلحاء، فطابت نفسه بذلك، فحين التقى مع قتلمش لم ينتظره أن كسره، وقتل خلقاً من جنوده، وقُتل قتلمش في المعركة واجتمعت الكلمة على ألب أرسلان ، وعظم أمره، وخطب له على منابر العراق والعجم وخراسان ودانت له الأمم.

م. د. علي بن محمد الصلابي، الرجع نفسه

☆ د. علي بن محمد الصلابي، دولة السلاجقة، وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي.

وفي سنة ٤٦٢هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان، وإسقاط خطبة مصر "للعبيدي"، وترك الأذان بحي على خير العمل، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له : إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار، وكان حريصاً على إقامة العدل في رعاياه وحفظ أموالهم وأعراضهم، بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض التجار، فصلبه فارتدع سائر المماليك به، خوفاً من سطوته، وكتب إليه بعض السُّعاة في نظام الملك، فاستدعاه وقال له: إن كان هذا صحيحاً فهذِّب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن لم يكن صحيحاً فاغفر لهم زلتهم بمُهِمّ يشغلهم عن السعاية بالناس، وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولمّا اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام.

وضع السلطان **ألب أرسلان** نصب عينيه تحقيق هدفي السلاجقة وهما التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية وطرد العبيديين في بلاد الشام والحلول مكانهم، ثم استخلاص مصر منهم، وقد آثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والعبيديين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة العبيديين. والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحية العسكرية والسياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ إن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن قواعده الخلفية، واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح عام ٤٦٠هـ بعد أن حاصرها خمسة أشهر، ونهض الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ليوقف تقدم المغيرين، ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بين عام ٤٦١هـ - ٤٦٢هـ فهاجم منطقة حلب، عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق وأرمينية والأناضول وبلاد الشام، واصطدمت قواته بقوات محمود بن نصر المرداسي وبني كلاب، وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب وانتصر عليهم ، إلا أن الإمبراطور انسحب من المنطقة على عجل دون أن يستثمر انتصاره، بعد ورود أخبار عن توغل قوات تركية بقيادة الأفشين في عمق الأراضي البيزنطية، وفتحها مدينة عمورية، وأنها بصدد التوجه نحو القسطنطينية، كما أن نفاد المؤن كان سبباً آخر دفعه إلى العودة إلى بلاده. وكان السلطان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليحقق حلمه بضم بلاد الشام ومصر إلى الأملاك السلجوقية.

وأتاح له النزاع الذي حصل بين أركان الحكم في مصر من أجل السيطرة والتسلط على المستنصر العبيدي هذه الفرصة، كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني أحد أبرز القادة في القاهرة، وقد انتصر على تحالف ضم الوزير ابن أبي كدية وألدكوز قائد عسكر الأتراك وذلك في عام ٤٦٢هـ، وتمادى في تخطيطه وقرّر القضاء على الدولة العبيدية وإقامة الدعوة العباسية، فأرسل أبا جعفر محمد ابن البخاري قاضي حلب، إلى السلطان السلجوقي يطلب منه أن يرسل جيشاً إلى مصر، يساعده في تحقيق هدفه وفور تسلمه الدعوة، جهز ألب أرسلان جيشاً كبيراً وخرج على رأسه من خراسان متوجهاً إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة، ومن ثمّ متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة العبيدية وضمّ هذا البلد إلى السلطنة السلجوقية، لكن تحركه كان بطيئاً بسبب ما صادفه من عقبات كانت أولاها في الرها الواقعة تحت الحكم البيزنطي، فحاصرها في عام ٤٦٣هـ وقاوم الرهاويون الحصار ببسالة بقيادة باسيل ابن أسار الذي عينه الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس حاكماً على المدينة، وقطع السلاجقة أشجار الحدائق وطمروا الخنادق بجانب الأسوار الشرقية كي يعبروا عليها، وقذفوا المدينة بالمجانيق، وشرع النقابون في حفر فجوات في السور، ولكن دون جدوى، واستعصت المدينة على السلطان ألب أرسلان واضطر إلى التفاهم مع سكانها بعد نيف وثلاثين يوماً من الحصار المتواصل ثم تابع طريقه إلى حلب، لضمها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب، غير أن قسماً من جيشه تقاعس عن المضي معه بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر أن يتابع زحفه بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، فعبر نهر الفرات ٤٦٣هـ ودخل أراضي الإمارة وقدم له جميع أمراء الجزيرة الولاء أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميا فارقين، وابن وثاب أمير حرّان، بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم.

واصل السلاجقة ضمهم لبعض الإمارات، حيث تمكنوا من ضم حلب وإخضاعها للسلطنة السلجوقية صلحاً فوافق السلطان على بقاء محمود أميراً على حلب، على أن يكون تابعاً له ويدعو للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وفعلاً خرج محمود في اليوم التالي من حلب، وتوجّه إلى معسكر السلطان وحمل معه مفاتيح البلد، واصطحب معه والدته، فاستقبلها السلطان، ورحب بهما وأكرمهما وأحسن إليهما، وأعلن بقاء محمود أميراً على حلب، وكتب له توقيعاً بذلك، وقد أضحى بموجبه، تابعاً فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قبله وبتوقيعه، وليس أميراً حاكماً بقوته يستطيع في كل لحظة نقض الولاء.

غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد ذلك، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر للقتال هناك، وترك بعض عسكره وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي وكان معه إخوته، جاولي والمأمون وفزلو وشكلي، وأذن لهم بالاصطدام بالعبيديين وإخراجهم من بلاد الشام، وكان القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن

محمد ابن عمار قد استبدَّ بحكم طرابلس وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي، وضم مدينة جبيل الواقعة على الساحل اللبناني إلى نفوذه، واضعاً بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة، وحتى يدعم موقفه في طرابلس تقرَّب من السلاجقة، فأرسل إليه السلطان ألب أرسلان، قبل أن يغادر المنطقة قوة عسكرية بقيادة أحد كتابه هو جابر بن سقلاب الموصلي، لم يوضِّح المؤرخون ما تقرَّر بين السلطان ألب أرسلان وأمير طرابلس، لكن يغلب على الظن أن معاهدة عدم اعتداء عقدت بين الطرفين يسمح بموجبها لجماعة من الأتراك بالإقامة في أعمال طرابلس، وتنفيذاً لأوامر السلطان قاد محمود ابن نصر وايتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوباً لمهاجمة دمشق وانتزاعها من أيدي العبيديين وذلك في ٤٦٤هـ وتوقفا في بعلبك ليخططا لحملتيهما، وعلم محمود بن نصر وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين في أنطاكية، وأحرق قسماً من معرة مصرين، فاضطر للعودة إلى مقر إمارته للدفاع عنها، واشتبك مع البيزنطيين في عدة معارك، فانهزم أمامهم، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجههم استعان بأتسز وإخوته، وكانوا في الجنوب يحاولون انتزاع فلسطين من أيدي العبيديين، فلبوا دعوته، وقدموا إلى حلب، وتمكَّن محمود بن نصر بفضل مساعدتهم من :

- صدّ البيزنطيين، ووقف أعمالهم ضد أراضيه.
- استعاد الرحبة من مسلم بن قريش في عام ٤٦٥هـ.

وبعد أن قضى منهم ما أراد، وأمن جانب البيزنطيين، طلب منهم أن يغادروا حلب، وأغراهم بالمال والخيل، فغادروا إلى الجنوب، ويبدو أنهم تركوا قسماً منهم في خدمته يبلغ ألف فارس بقيادة أحمد شاه، بدليل أنه عندما أغار البيزنطيون على أراضي حلب عام ٤٦٦هـ، صدّهم محمود بن نصر بمساعدة الأتراك الموجودين في حلب كما فتح قلعة السن الواقعة تحت الحكم البيزنطي وضمّها أملاكه.

توجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمّها، فضربوا عليها حصاراً مركزاً، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك فقد فشلوا في اقتحامها، فغادروها إلى فلسطين، فضموا الرملة، وبيت المقدس، بعد حصار، وطردوا منها الحامية العبيدية وانتزعوا طبرية من أيديهم، وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة العبيدي، وألغى أتسز الدعوة للمستنصر العبيدي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقّقه في بلاد الشام [1].

---

١ - د. علي بن محمد الصلابي، دولة السلاجقة، ودورة مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي.

بلاد المغرب العربي والأندلس في العصر العباسي الثاني (العهد السلجوقي)

كانت **الدولة العبيدية** التي تحكم مصر خلال هذه الفترة قد فقدت سيطرتها على الشمال الإفريقي لعدم رغبة المجتمع المغاربي المسلم لعقائد هذه الدولة الشيعية وتصرفاتها الغريبة، ولم يبق لها إلا السيطرة المحدودة على مصر وبعض المناطق الجنوبية من بلاد الشام، **ولا سيما أن مكة والمدينة أخذت تدعو للخليفة العباسي الشرعي تاركة الدعاء للخليفة العبيدي.**

بيد أن هذه الدولة انقسمت على نفسها في سنة (٤٨٧هـ) ١٠٩٤م، - كما ذكرنا ذلك سابقاً - حينما تُوفي خليفتهم المستنصر، وتكوَّنت فرقتان كبيرتان؛ **الأولى**، هي التي تقطن بمصر وتحكمها، وهي المستعلية (نسبة إلى المستعلي بن المستنصر). أما الفرقة **الثانية**، هي فرقة الإسماعيلية النزارية (انظر خارطة القلاع الإسماعيلية في إيران وبلاد الشام).

وكانت تونس (إفريقية) تحت **حكم آل زيري** وهي سلالة أمازيغية من قبيلة صنهاجة الأمازيغية حكمت في شمال إفريقيا تونس والجزائر ما بين ٣٦٠ - ٥١٨ هـ. واتخذت من الناصرية (بجاية حالياً) مقراً لها منذ عام ٣٦٠ هـ، ثم القيروان منذ عام ٤٣٩ هـ، ثم المهدية منذ عام ٤٦٧ هـ. إلا أن هذه الدولة دخلت في طور من الضعف؛ مما أدى إلى فَقْد ثغر من أعظم الثغور الإسلامية، وهي جزيرة صقلية، حيث استطاع الإيطاليون النورمانيون أن يسيطروا عليها تماماً سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، وزال نفوذ آل زيري عنها، وبالتبعية زال وجود المسلمين من الجزيرة بعد حكم دام مائتين وسبعين سنة متصلة.

أما بقية بلاد المغرب العربي والأندلس: فقد أخذ يشهد ولادة قوة إسلامية في ذلك الزمن، فكان بلاد المغرب العربي وغرب إفريقيا والأندلس؛ حيث كانت هذه المناطق تابعة **لدولة المرابطين** العظيمة تحت قيادة قائدهم الفذّ يوسف بن تاشفين رحمه الله، وهو من أعظم القادة في تاريخ الإسلام، وهو الذي أنزل بالصليبيين القادمين من شمال إسبانيا وفرنسا الهزيمة الساحقة في معركة الزَّلّاقة سنة (٤٧٩هـ) ١٠٨٦م في وسط بلاد الأندلس (سيرد تفصيلها في الصفحات القادمة من هذا الأطلس). وهذه الدولة الكبيرة -على قوتها- لم تكن تستطيع أن تساعد بلاد المشرق في حروبهم ضد الحملات الصليبية، لا لبُعد المسافة فقط ولكن لانشغالهم الشديد في حرب الصليبيين شمال الأندلس، والوثنيين في غربي إفريقيا ووسطها. فهذه كانت نظرة عامة على بلاد العالم الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي).

قام المعز بن باديس الزيري (٤٠٦-٤٥٢ هـ) سنة ٤٣٦ هـ بالتفصل من المذهب الشيعي القائم على الغلو في أهل بيته (الفاطمي)، وسب الشيخين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، والطعن في أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن)، والنيل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين أوصلوا الإسلام إليهم، والتأكيد على رغبة المغاربة بالعودة إلى المذهب المالكي السني والدعوة للخليفة العباسي في بغداد.

وكرد فعل على هذا العمل المعنوي، قام العبيديون الشيعة ومنذ ٤٤٨ هـ بالتخلص من قبائل بني هلال وبني العقل وبني سليم الأعرابية التي هاجرت من غربي الجزيرة إلى مصر، وضايقوا العبيديين في مصر من خلال تشكيكهم بصحيفة النسب الفاطمي، وذلك عن طريق توجيههم إلى غزو إفريقيا لمضايقة المغاربة؛ لكن الله رد كيدهم في نحورهم حيث أصبح هؤلاء من أداة الهوس والاضطراب إلى أداة مساهمة وتعريب. كما هو الحال حينما تم إنشاء الجامع الأزهر لنشر الفكر الشيعي في مصر لكن المصريين رفضوا هذا الفكر وعادوا من خلال منابر الأزهر لينشروا العقيدة الإسلامية البعيدة عن الغلو والمغالاة في رسول الأمة والذي أثنى الله عليهم في كتابه الكريم.

الأندلس في عهد ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٨١ هـ)

لم تكن حال **الأندلس** بأفضل من حال **المغرب** حين وصل يوسف بن تاشفين إلى سدة الحكم، فبعد زوال الخلافة الأموية في الأندلس في صدر المائة الخامسة الهجرية، **استقل الحكام بمدنهم** وتقسمت البلاد إلى دول وإمارات. فكانت هناك إمارة بني جهور في قرطبة، وإمارة بني حمود في الجزيرة الخضراء ومالقة، ودولة بني عباد في إشبيلية، ودولة بني زيري في غرناطة، وهكذا... وهذا ما أطلق عليه اسم عصر ملوك الطوائف الذي ينطبق عليه قول ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر
قام بكل بقعة ملك
وذهب العين جميعاً والأثر
وصاح فوق كل غصن ديك

وكان ملوك الطوائف منغمسين في ترفهم، يسعى بعضهم إلى توسيع أملاكه على حساب بعضهم الآخر، وانشغلوا عن **مجاهدة العدو** بخلافاتهم المستمرة ومحاربة بعضهم بعضاً، بل كان كثير منهم يتحالف مع العدو على إخوانه المسلمين، أو يذعن للعدو فيدفع له الجزية. وهكذا فإن ملوك الطوائف كانوا يحملون الألقاب الرنانة الطنانة دون أن تكون لهم القوة أو السلطة التي قد توحي بها تلك الألقاب. ولهذا قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ونتيجة لهذه الأوضاع المزرية المتدهورة، أقدم ألفونس السادس صاحب قشتالة على شق الأندلس شقاً حتى وصل جزيرة طريف واحتل في طريقه مدينة طليطلة وحاصر مدينة سرقسطة. فكتب المعتمد بن عباد ملك إشبيلية إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد. فأجابه يوسف بن تاشفين بقوله لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وسبتة، ولما تزايد الخطر النصراني ضد مسلمي الأندلس بعد حادثة بربشتر سنة ٤٥٦ هـ وجه أبو حفص عمر بن حسن الهوزني رسالة إلى المعتضد ابن عباد (٤٣٣ - ٤٦٢ هـ) دعاه فيها إلى الجهاد، كما بين فيها شدة معاناة المسلمين، وسبب تزايد الخطر النصراني عليهم، وأنه لا خلاص للمسلمين إلا بالرجوع إلى الله ثم ضم المرابطين لهم، وهذا ما حدث سنة ٤٨١ هـ.

ملوك الطوائف في بلاد الأندلس

ملوك الطوائف: هي فترة تاريخية في الأندلس بدأت بحدود عام ٤٢٢ هـ لما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مما حدا بكل أمير من أمراء الأندلس ببناء دويلة منفصلة. وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه. وتنتهي بضم المرابطين لها سنة ٤٧٩ هـ.

التسلسل الرقمي لانفصال الدولة
مثال
١٣ رندة
اسم المملكة المنفصلة

ملوك الطوائف | مملكة الفرنجة | مملكة ليون
قطلونية | ريبا جوزا | كونتية البرتغال
مملكة أرجون | مملكة قشتالة | نبرة
المرابطون

دولة المرابطين (٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٧م)

نشأت دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري على يد قبائل صنهاجة المغربية التي تتزعمها قبيلة جدالة، ورئيسها يحيى بن إبراهيم بن قرغوت الجدالي الذي ذهب إلى الحج، وهناك قابل أحد الدعاة وطلب منه الذهاب معه لتعليم القبائل الصنهاجية الإسلام، وكان هذا الداعية هو عبد الله بن ياسين الجدولي. وصل عبد الله بن ياسين إلى مناطق قبائل صنهاجة يعلمهم الإسلام، فلقي نجاحاً كبيراً في قبيلة لمتونة، واستطاع تكوين جماعة سميت المرابطين، نظمهم للجهاد في سبيل الله. وبدأ المرابطون من عام ٤٤٧هـ الجهاد في سبيل الله، وفتح بعض بلاد المغرب؛ بقيادة أبي بكر بن عمر وابن عمه يوسف بن تاشفين وهو الذي قاد الحركة المرابطية منذ ذلك الحين، وأسس الدولة الكبرى في المغرب أولاً، ثم اتجه يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد لينقذه، وحقق جيش المرابطين نصر ملوك الطوائف بالزلاقة ودعاهم إلى الوحدة والتآلف لمواجهة النصارى.

بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب، حدثت الصراعات بين أمراء المؤمنين الموجودين في بلاد الأندلس بسبب الغنائم وتقسيم البلاد المحررة. وهنا ضج علماء الأندلس وذهبوا يستنجدون بيوسف بن تاشفين من جديد، لا لتخليصهم هذه المرة من النصارى، وإنما أنقذنا من أمرائنا. يتورع يوسف بن تاشفين عن هذ الأمر، إذ كيف يهجم على بلاد المسلمين وكيف يحاربهم؟! فتأتيه - رحمه الله - الفتاوى من كل بلاد المسلمين تحمّله مسؤولية ما يحدث في بلاد الأندلس إن هو تأخر عنها، وتحذره من ضياعها إلى الأبد، وتطلب منه أن يضمها إلى أملاك المسلمين تحت دولة واحدة وراية واحدة، هي دولة المرابطين. فجاءته الفتوى بذلك من بلاد الشام من أبي حامد الغزالي صاحب "إحياء علوم الدين"، وقد كان معاصراً لهذه الأحداث، وجاءته الفتوى من أبي بكر الطرطوشي العالم المصري الكبير، وجاءته الفتوى من كل علماء المالكية في شمال إفريقيا. فاستجاب لهم في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة من الهجرة فضم الأندلس إلى دولته.

الدعاء للخليفة العباسي

كانت دولة المرابطين من الدول التي عبّر زعماؤها عن اعترافهم بالسيادة الروحية للخليفة العباسي بسك اسمه على النقود والدعاء له على المنابر، وبدأ ذلك منذ أيام أبي بكر بن عمر كما تشهد على ذلك النقود التي سكها، ثم سار يوسف بن تاشفين على سنته وطلب من الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) تقليده حكم المغرب، فجاءه التقليد واعترف الخليفة بلقبه «أمير المسلمين وناصر الدين» في الكتاب الذي وصله على ما يرجح في رجب سنة ٤٩١هـ حزيران/يونيو ١٠٩٨م وقد عدّ الخليفة يوسف في كتابه أيضاً نائب الخليفة والقائم بدعوة أمير المؤمنين وقائد جيوشه في المغرب.

دولة المرابطين في أقصى اتساع لها

العملة التي عرفت في سائر الحوليات الفشتالية باسم المرابطي : نسبة إلى الدولة المرابطية التي حكمت المغرب في القرن السادس الهجري.

ترتيب أمراء المرابطين

١ - يحيى بن إبراهيم الجدالي

٢ - يحيى بن عمر (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م)

٣ - أبو بكر بن عمر (ت ٤٨٠هـ/١٠٨٨م)

٤ - يوسف بن تاشفين (٤٥٣-٥٠٠ هـ/١٠١٦-١١٠٧م)

٥ - علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠-٥٣٧ هـ/١١٠٧-١١٤٣م).

٦ - تاشفين بن علي (٥٣٧ - ٥٤٠هـ/١١٤٣-١١٤٥ م).

٧ - إبراهيم بن تاشفين (٥٤٠ هـ/١١٤٥م).

إسحاق بن علي (٥٤٠ - ٥٤١هـ/١١٤٥-١١٤٦م).

مراكش: هي ثالث أكبر مدينة مغربية تقع في جنوبي وسط المغرب، بناها السلطان المجاهد يوسف بن تاشفين عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م، كمربض محمية لزوجته زينب النفزاوية. يرجع اسم مراكش إلى الكلمة الأمازيغية أمورن باكوش، أي بلاد الله حيث يستعمل الأمازيغ كلمة تامورت أو أمور التي تعني البلاد كثيراً في تسمية البلدان والمدن.

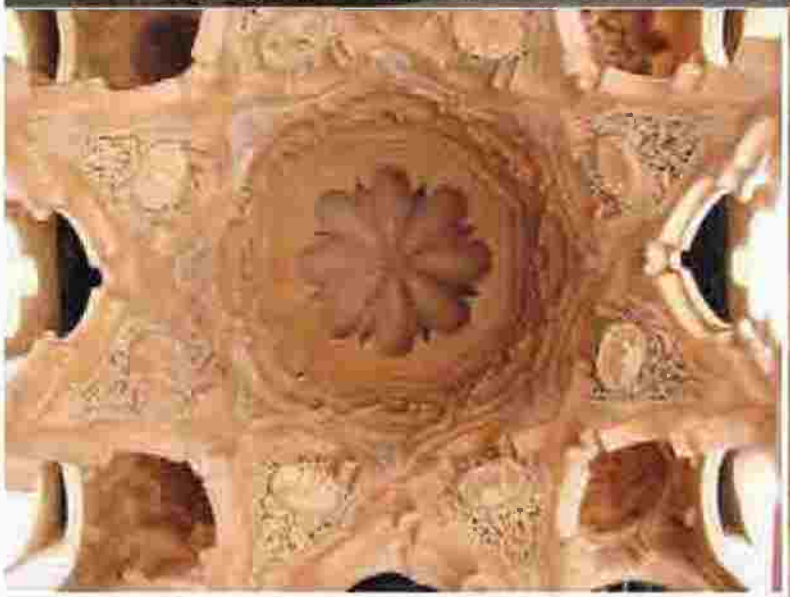

جانب من فن الزخرفة في عهد المرابطين على إحدى القباب في مدينة مراكش

النص التأسيسي لمسجد أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين في تلمسان بالجزائر « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيده الله وأعز نصره وأدام دولته، وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادى الآخر عام ثلاثين وخمسمائة ».

١ - دينار مرابطي - سجلماسه ٤٧١هـ

أبو بكر عمر اللمتوني

الوجه: المركز: لا إله إلا الله/ محمد رسول الله/ الأمير أبو بكر/ بن عمر

الهامش: ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين

الظهر: المركز: الامام/عبد/ الله/ أمير المؤمنين

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بسجلماسه سنة إحدى وسبعين وأربعمائة

القطر: ٢.٤ سم

دينار مرابطي - قرطبة سنة ٤٩٥ هـ

السلطان يوسف بن تاشفين

م. العملات الدينار عبر العصور الإسلامية، ص ١٦٧ - ١٦٨

دولة الأشراف السليمانيين في مكة المكرمة (٤٥٣ - ٤٥٥ هـ/١٠٦١ - ١٠٦٣ م)

قال البلادي [١]: وهم **الطبقة الثانية** من أشراف الحجاز. ينسب **الأشراف السليمانيون** إلى جدهم **سليمان** بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

سكن السليمانيون مكة المكرمة بجوار بني عمهم الموسويين، فلما توفي شكر بن أبي الفتوح الموسوي، سارع السليمانيون إلى الاستيلاء على الحكم، **فكونوا دولة لم تدم طويلاً**، فهاجمهم بنو عمهم الهواشم فانتزعوا ملك مكة منهم، فجلى السليمانيون إلى المخلاف السليماني (منطقة جازان اليوم) فانتشروا هناك ثم صارت لهم دول في ذلك المخلاف، ولهم اليوم فروع منتشرة في منطقة جازان ومحافظة القنفذة التابعة لإمارة مكة المكرمة، من أهمها: آل القطبي، وآل الخواجي، وآل الدروي وغيرهم، وفي محافظة القنفذة:: آل ابن حمزة، الفداحية، آل شبير، وغيرهم.

أبو الطيِّب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي القاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن (المثنى) بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - .هو ابن عم أبي الفتوح الحسني أمير مكة. ذكر بعض المؤرخين أن **الحاكم العبيدي** ولاه الحرمين لما خرج ابن عمه أبو الفتوح عن طاعته.

وفي سنة (٤٥٥هـ) قدم إلى الحج صاحب اليمن **علي بن محمد الصليحي**، فدخل مكة في سادس ذي الحجة وملكها وانتزعها من بني أبي الطيب، واستعمل العدل والإحسان لأهل مكة فرخصت الأسعار واستراح الناس جداً وكثر الدعاء له، واستمر بمكة إلى يوم عاشوراء، وقيل إلى ربيع الأول، فقام الأشراف الحسنيون عليه، وقالوا له: اخرج إلى بلدك واجعل لك بمكة نائباً. فجعل على مكة محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن هاشم.

أما الشيخ أحمد السباعي - رحمه الله - شيخ مؤرخي مكة في هذا العصر ، فذكر **دولة السليمانيين**، فقال: الطبقة الثانية من الأشراف «السليمانيون». ثم يقول: ولم يتمتع السليمانيون طويلاً بهذا الحكم، فقد اقتحم عليهم **الصليحي صاحب اليمن** بعد سنتين من استئثارهم بالحكم، ولم يذكر مؤرخو مكة أسماء من تولى مكة منهم إلاّ اسم محمد بن عبد الرحمن من أحفاد أبي القاتك. أهـ. ما قاله السباعي. وقد ذيل في هامش ص (٢٠١) بقوله: هم أولاد سليمان بن عبد الله بن موسى الجون.. إلخ. **ولم أر من ذكر مدى اتساع دولة السليمانيين**، غير أنه من الواضح أنهم لم يجمعوا بين الحرمين الشريفين [٢].

١، ٢ - عاتق بن غيث البلادي، الإشراف على تاريخ الأشراف، موقع أشراف الحجاز بالمملكة العربية السعودية.

الطبقة الثانية: الأشراف السليمانيون في الحجاز
الطبقة الثانية الأشراف السليمانيون:
وهم بنو سليمان بن عبدالله الرضا بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.
تذكر بعض الروايات أن آل سليمان استقلوا بالإمارة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣ هـ.
الأشراف الهواشم يهاجمون بني عمهم السليمانيين وينتزعون حكم مكة منهم، فجلى السليمانيون إلى المخلاف السليماني (منطقة جازان اليوم) فاستقروا هناك ثم صارت لهم دول في ذلك المخلاف.
في سنة (٤٥٥هـ) قدم إلى الحج صاحب اليمن علي بن محمد الصليحي، فدخل مكة في سادس ذي الحجة وملكها وانتزعها من بني أبي الطيب، واستعمل العدل والإحسان لأهل مكة فرخصت الأسعار واستراح الناس جداً وكثر الدعاء له، واستمر بمكة إلى يوم عاشوراء، وقيل إلى ربيع الأول، فقام الأشراف الحسنيون عليه، وقالوا له: اخرج إلى بلدك واجعل لك بمكة نائباً، فجعل على مكة محمد بن جعفر بن محمد ابن عبد الله بن هاشم.
الشمال
إيلة
سيناء
البدع
تبوك
تيماء
شناء
الوجه
الفلا
وادي القرى
خيبر
مصر
ينبع
المدينة النبوية
المهد
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الليث
البحر الأحمر
أرض السودان
١ الأشراف السليمانيون أمراء مكة المكرمة
النفوذ السليماني
أبها
تهامة
قرسان
جازان
المخلاف السليماني
المراعص
الصليحيون
صنعاء
أرض اليمن
الحديدة
لحج
بحر العرب
أرض الأحبش

دولة الأشراف الهواشم في مكة المكرمة (٤٥٦ - ٥٩٧ هـ/١٠٦٣ - ١٢٠٠ م)

قال البلادي [١]: يسمون **الهواشم** ويسمون الأمراء، أما تسميتهم بالهواشم فنسبة إلى جدهم محمد أبي هاشم مؤسس دولتهم، الآتي ذكره، أما تسميتهم بالأمراء فنسبة إلى جدهم: الحسين الأمير، قال ابن عنبة: وأما محمد الأكبر بن موسى الثاني، ويقال له: الثائر، فأعقب من صلبه خمسة رجال وهم: عبد الله الأكبر والحسين الأمير.. إلخ، وذريتهم اليوم منتشرون في مكة ومرّ الظهران.

وفي قصة الصليحي صاحب اليمن السابقة تبين كيف تم استيلاؤه على مكة والحج بالناس سنة (٤٥٥هـ)، فلما قضى حجه، يقول الفاسي: وأقام إلى يوم عاشوراء -أي سنة (٤٥٦هـ)- وراسله **الحسنيون**، وكانوا قد أيعدوا عن مكة: اخرج من بلدنا ورتّب منا من تختاره، فرتّب محمد بن أبي هاشم في الإمارة، ورجع إلى اليمن، ومحمد هذا هو صهر شكر على ابنته، وأمّره على الجماعة -أي الصليحي- وأصلح بين العشائر، واستخدم له العساكر، وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً... إلخ.

قلت [٢]: ويكاد يجمع المؤرخون على أن محمداً هذا هو محمد أبو هاشم بن جعفر بن محمد أبي هاشم بن عبد الله بن محمد أبي هاشم بن الحسين الأمير بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله بن موسى الجَون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - . حيث دامت ولاية أبي هاشم ثلاثين سنة، أي من (٤٥٦-٤٨٦هـ).

ولكن حفيد هؤلاء الهواشم الشاب: إبراهيم بن منصور، مؤلف كتاب: (الأشراف الهواشم الأمراء) يستدرك قائلاً: وهم من بني أبي هاشم محمد الأمير بن الحسين الأمير بن محمد الثائر بن موسى الثاني -إلى آخر ما تقدم- ثم أول من تولى **إمرة مكة منهم أبو هاشم الأصغر** محمد بن عبد الله بن أبي هاشم محمد الأمير بن الحسين الأمير، بخلاف ما قرره المؤرخون من أن طبقة الهواشم عرفت من عهد أبي هاشم محمد بن جعفر.

وإتمام رواية الفاسي في شفاء الغرام:... **وأقام محمد بن أبي هاشم بمكة نائباً عنه (الصليحي)** فقصده الحسنيون بنو سليمان مع حمزة بن أبي وهاس، فلم يكن له به طاقة فحاربهم وخرج من مكة فتيموه، فرجع فضرب واحداً منهم ضربة فقطع ذراعه وفرسه وجسده ووصل (السيف) إلى الأرض، فدهشوا ورجعوا عنه، وكان تحت فرس تسمى «دنانير» لا تكل ولا تمل، وليس لها في الدنيا شبيه. ومضى إلى **وادي ينبع** وقطعه الطريق عن مكة... إلى أن يقول: ولعل حمزة بن وهاس المذكور في هذا الخبر حفيد أبي الطيب المشار إليه. وذكر شيخنا ابن خلدون ما يقتضي أن ابن أبي هاشم ولي مكة في سنة (٤٥٤هـ) بعد أن قاتل السليمانيين (قوم شكر) وغلبهم ونفاهم عن الحجاز، والله أعلم بذلك.

١، ٢ - عاتق بن غيث البلادي، الإشراف على تاريخ الأشراف، موقع أشراف الحجاز بالمملكة العربية السعودية.

وعاد ابن أبي هاشم بعد خروجه من مكة إلى إمرتها، ودامت ولايته عليها - فيما أحسب - إلى أن مات في سنة بضع وثمانين، كما ذكر ابن الأثير وغيره[١]، ورأيت في تاريخ ابن الأثير: أن هؤلاء (التركمان) طلبوا من ابن أبي هاشم أموال الكعبة التي أخذها وأنهم نهبوا مكة.. إلخ. وهو -أي أبو هاشم- أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة، بعد قطعها من الحجاز نحو مائة سنة، ونال بسبب ذلك مالاً عظيماً من السلطان **ألب أرسلان السلجوقي**، فإنه خطب له بمكة بعد **القائم الخليفة العباسي (خلافته: ٤٢٢ - ٤٦٨هـ)**، وصار بعد ذلك يخطب حيناً للمقتدي بن القائم العباسي، وحيناً للمستنصر العُبَيدي صاحب مصر، ويقدم في ذلك من تكون صلته أعظم، ولعل ذلك سبب إرسال التركمان إليه، وذكر شيخنا ابن خلدون أن مدة إمرته على مكة ثلاثون سنة، وأنه ملك المدينة، أ. هـ عن شفاء الغرام بقليل من الاختصار[٢].

أما النجم ابن فهد، فيقول في حوادث سنة (٤٥٦هـ): فيها في المحرم بعث **الأشراف الحسنيون** إلى علي بن محمد الصليحي -وكانوا قد هربوا عن مكة لما دخلها الصليحي-: أن اخرج من بلادنا ورتّب منا من تختاره. فرتب أبا هاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم محمد بن الحسين (الأمير)... إلخ النسب المعروف. وكان صهر شكر بن أبي الفتوح على ابنته، وأمرّه -أي الصليحي- على الجماعة، إلى آخر ما نقلناه سابقاً عن رحلته إلى اليمن متخوفاً من الأشراف العلويين، لأنهم تجمعوا، فكان أن وقع الوباء في أصحابه، فمات منهم سبعمائة رجل، ولم يبق منهم إلاّ نفر يسير، فأقام بمكة -نائباً عنه- أبا هاشم ثم سار إلى اليمن. ثم الرواية المتقدمة، وقصة محاربة السليمانيين له، وفرسه دنانير وضربة السيف البتار، وسفره إلى ينبع... إلخ.

وعند مراجعة كتاب العز بن فهد؛ نجده لم يشذ عن أبيه ومن تقدمه، فينقل عن صاحب المرآة حج الصليحي سنة (٤٥٥هـ)، وما فعله الصليحي وما فعله الأشراف في نهاية الحج، وتولية محمد بن جعفر الأمير، إلا أن العز يورد: وذكر بعضهم أنه لما **افتتح الخطبة العباسية** قال:

الحمد لله الذي هدى بأهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوّض بنيه بلبسة الشباب بعد المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة أهل الجماعة. وترك الأذان بحي على خير العمل وكان فعله ذلك سنة (٤٦٢هـ). ثم يقول: فلما لم يصل -في سنة (٤٦٧هـ)- من جهة الخليفة العباسي ما كان يصل لأمير مكة، قطع خطبة المقتدي العباسي، وصادف مع ذلك أن المستنصر (العبيدي) أرسل إليه بهدايا وتحف ليخطب له، وقال له: إنما كانت أيمانك وعهودك للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا، فخطب للمستنصر، ثم قطع خطبته في سنة (٤٦٨هـ) وخطب للمقتدي: عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم العباسي. وصار يخطب تارة

١، ٢ - عاتق بن غيث البلادي، الإشراف على تاريخ الأشراف، موقع أشراف الحجاز بالمملكة العربية السعودية.

لبني العباس وتارة لبني صبيد. قال العز بن فهد: ثم هرب ابن أبي هاشم من مكة في سنة (٤٨٤هـ) إلى **بغداد** لما استولى عليها التركمان الذين أرسلهم السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي **للاستيلاء على الحجاز واليمن**، إلى أن يقول: وذكر شيخنا ابن خلدون أن ابن أبي هاشم هذا جمع جموعاً من الترك، وزحف بهم إلى المدينة، وأخرج منها بني حسين وملكها، وجمع بين الحرمين، وأن ولايته كانت (٣٣) سنة[١].

ثم عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه، واستمر متولياً إلى أن مات في سنة (٤٨٧هـ) **وهو أول من أعاد الخطبة العباسية** بعد أن قطعت نحو مائة سنة. وقد بالغ ابن الأثير في ذمه، فقال: ما له ما يمدح به. قال الفاسي: ولعل ذلك لتهيه الحاج، وقتله خلقاً كثيراً منهم في سنة ست وثمانين، وذكر ابن خلدون أن إمرته على مكة كانت ثلاثين سنة، وأنه ملك المدينة أيضاً[٢].

« لما عاد محمد بن جعفر (أبو هاشم) إلى مكة بعد خروجه منها جمع أنجاداً من الأتراك فزحف بهم إلى **المدينة** فأخرج منها بني الحسين، **وجمع بين الحرمين**. ثم مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل إليه منه، فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين، ثم جاء الزينبي من قابل بالأموال فأعادها ».

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

---

٢٠١ - عاتق بن غيث البلادي، الإشراف على تاريخ الأشراف، موقع أشراف الحجاز بالمملكة العربية السعودية.

الطبقة الثالثة: الأشراف الهواشم في الحجاز
أرض الشام
بدء الاحتلال الصليبي عام ٤٨٩ هـ
الخلافة العباسية
بغداد
العراق
الأردن
الفاطميون
في ١٦٢ هـ، الأمير محمد بن جعفر يفتتح الخطبة العباسية بقوله: الحمد لله الذي هدى بأهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوّض بنيه بلبسة الشباب بعد المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة أهل الجماعة. وترك الأذان يحي على خير العمل ....
شبه الجزيرة العربية
في
القرامطة ثم العيونيون
المدينة النبوية
منذ سنة ١٦٣ هـ
بنو مهنا الحسينيون
أرض الحجاز
نفوذ الأشراف الهواشم
مكة المكرمة
الطبقة الثالثة: الأشراف الهواشم:
وهم من بني أبي هاشم محمد الأمير بن الحسين الأمير بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الرضا بن موسى الجون ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.
مثلث الطبقة: الفترة التي حكم فيها أحد فروع الأشراف الحسنيين الأربعة مكة المكرمة (دامها الله تعالى شرفاً).
قال صاحب منحط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي:
الخرف المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر من الأشراف الهواشم، ومال إلى الأشراف السليمانيين، وكتب إلى علي بن محمد السليحي صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم الأشراف (السليمانيين) على استرجاع ملكهم، وينهض معهم إلى مكة، فانهض وانتهى إلى المهجم.
أرض اليمن
السليحيون
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كم

معركة ملاذكرت[١] (ملاذكرد) ٤٦٣ هـ ١٠٧١ م

أغضبت فتوحات ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي رومانوس (أرمانوس) ، فصمم على القيام بمعركة مضادة للدفاع عن إمبراطوريته، ودخلت قواته في مناوشات ومعارك كان أهمها ملاذكرت (ملاذكرد) عام ٤٦٣ هـ، وتعد معركة "ملاذكرت" من أيام المسلمين الخالدة، مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، والزلاقة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيّرت وجه التاريخ، وأثّرت في مسيرته، وكان انتصار المسلمين في ملاذكرت نقطة فاصلة؛ حيث قضت على سيطرة دولة الروم البيزنطية على أكثر مناطق آسيا الصغرى وأضعفت قوتها، ولم تعد كما كانت من قبل شوكة في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني المسلم محمد الفاتح.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرج والفرنج، وعدد عظيم وعُدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية، خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقاب وحفار، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألف عجلة تحمل السلاح والسروج والقرادات والمناجيق، منها منجنيق عدة ألف ومائتا رحل، ومن عزمه - قبحه الله - أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له: أرفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين، والقدر يقول: ﴿لعمرك إنهم في سكرتهم يعمهون﴾ الحجر: ٧٢ فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم ، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عزوجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين، ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم أرمانوس، أسره غلام رومي، فلما أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقال: لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل ؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بي ؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني. قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فافتدى نفسه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء

---

١ - سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس المعلمات العسكرية على الشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ص ١٦ - ١٧ . مكتبة العبيكان .

معركة ملاذكرت (ملاذكرد) سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م
الجيش السلجوقي التركي المسلم
الجيش البيزنطي
بحر بنطس (البحر الأسود)
أرمينية الكبرى
ملاذكرد
القسطنطينية
الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع
نيقية
الإمبراطورية البيزنطية
دورليوم
أقسوس
آسيا الصغرى
قونية
أطلنة
أرمينية الصغرى
أنطاكية
الرها
سلطنة السلاجقة
القائد ألب أرسلان
حمص
طرابلس
بيروت
العراق
سوريا
دمشق
صور
عكا
الخلافة العباسية
القدس
الكرك
غزة
الدولة العبيدية
مصر
إيلة
جزيرة العرب
صفر
٢٠٠
٤٠٠

وقبّل الأرض بين يديه، وقبّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما انتهى إلى بلاده وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه، وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار وتزهد ولبس الصوف ثم استغاث بملك الأرمن فأخذه وكحله وأرسله إلى السلطان يتقرب إليه بذلك.

وهذه المعركة هي التي مهدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوة السلاجقة المسلمين وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتب على ذلك الحملة الصليبية الأولى. (انظر كتابنا الموسوم أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى) .

مرتسم أوروبي قديم يصور سقوط الإمبراطور البيزنطي (رومانوس) بعد معركة ملاذكرت (ملاذكرد) أسيراً في أيدي المسلمين ، حيث تبين الصورة وقوع الإمبراطور ذليلاً تحت قدم لسلطان السلجوقي المسلم (ألب أرسلان).

ولا شك أن هذه الصورة من مبالغات الرسامين الأوروبيين آنذاك؛ لشحن روح العداء والكراهية ضد المسلمين، حيث لا تمت فيهم وأخلاق المسلمين لمثل هذا العمل غير الأخلاقي؛ ولا سيما أن نبل ألب أرسلان وشهامته، وحسن تواضعه عند النصر تتنافى مع هذا النهج المعوج.

أتاحت **معركة ملاذكرد ٤٦٣هـ** للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها، وتأسيس سلطنة عُرفت في التاريخ باسم " سلطنة سلاجقة الروم ٤٧٠هـ - ٤٧٩هـ " أسّسها سليمان بن قتلمش الذي يعد بحق جد سلاطين آسيا الصغرى، أخذ سليمان على عاتقه إدارة شؤون المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل ألب أرسلان عن آسيا الصغرى، وعزم على أن يقيم لنفسه سلطنة في قونية وآقسرا وغيره من المدن التي كانت تحت حكم قُتلمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملكشاه سلطان السلاجقة العظام الذي خلف أباه ألب أرسلان وكان الأول قد عهد إليه بإدارة المنطقة لصالح الأتراك، وقد ساعد سليمان على تحقيق غايته عاملان[١]:

أ- **التغير الديمغرافي الناتج عن الفتوح**، إذ أضحت المناطق الشمالية والشرقية شبه خالية بعد أن هجرها سكانها، ذلك أن القبائل التركية التي ساندت سليمان في فتوحه، كانت تطوق أرجاء الأناضول تلتمس الماء والكلاء، فاضطر السكان إلى مغادرة قراهم ومزارعهم إلى مناطق أكثر أمناً فدخل إليها السلاجقة واستقروا فيها وغيّروا معالمها.

ب- **الأوضاع البيزنطية المضطربة**، استفاد السلاجقة خلال الأعوام التي انقضت بعد ملاذكرد من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع وظهروا، كحلفاء ومساعدين لبعضهم، مما يسّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا، إلى المقاطعات الغربية في آسيا الصغرى.

وقد أزدادت الفوضى في بلاد الأناضول نتيجة استمرار الانتفاضات على الحكومة المركزية، بالإضافة إلى التوسع السلجوقي، وفقدت الدولة البيزنطية سيطرتها على المنطقة، وتعطلت طرق المواصلات بفعل تدمير البدو لها، ولم يكن ثمة سياسة بيزنطية مدروسة، ويبدوا أن ما جرى من استخدام القوات التركية هيّأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف الأتراك بسليمان زعيماً، ولم تكاد تنتهي سنة ٤٧١هـ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد أعلنت العصيان على تقفور الثالث الذي أقامها في هذه المدينة، وبذلك فقدت الإمبراطورية البيزنطية أهم مدنها بعد أن سيطر عليها السلاجقة. وكان السلطان ملكشاه يراقب تحركات سليمان ونشاطه في آسيا الصغرى عن بعد، ورأى أن يعينه حاكماً على سلاجقة الروم بعد أن ضمّ إليه قونية وآقسرا وقيصرية وتوابعها، وفي الحقيقة استطاع سليمان أن يضع أساس سلطنة سلاجقة الروم، وأن يجعل من مدينة نيقية عاصمة لها[٢].

١، ٢- د. علي بن محمد الصلابي، دولة السلاجقة، وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، ص ٨٩.

مركز مدينة قونية التركية (عاصمة سلاجقة الروم)

أحد المساجد القديمة في قونية وبجواره أحد المزارات الصوفية

السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى (سلاجقة الروم)

فلس سلجوقي من البرونز (عصر سلاجقة الروم) يحمل كتابات عربية، ورسومات للسلطان على فرسه

الدولة الخوارزمية ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م / ٦١٧ هـ - ١٢٢٠ م

ظهر في عهد السلطان السلجوقي "ملكشاه" مملوك نابه في بلاطه، يسمى "أنوش تكين" نجح في أن يحظى بتقدير السلطان ونيل ثقته، فجعله والياً على إقليم خوارزم، وظل على ولايته حتى وفاته سنة (٤٩٠ = ١٠٩٧)، فخلفه ابنه محمد وكان على مقدرة وكفاية مثل أبيه، فظل يحكم باسم الدولة السلجوقية ثلاثين عاماً، نجح في أثنائها في تثبيت سلطانه، ومد نفوذه، وتأسيس دولته وعُرف باسم خوارزم شاه، أي أمير خوارزم، والتصق به اللقب وعُرف به. وبعد وفاته سنة (٥٢٢ = ١١٢٨) خلفه ابنه "أتسز" بموافقة السلطان السلجوقي سنجر، وكان أتسز والياً طموحاً مد بصره فرأى دولة السلاجقة توشك على الانهيار، فتطلع إلى بسط نفوذه على حسابها، واقتطاع أراضيها وإخضاعها لحكمه، ودخل في حروب مع السلطان سنجر الذي وقف بالمرصاد لطموحات أتسز، ولم يمكنه من تحقيق أطماعه، وأجبره على الاعتراف بتبعيته له، وظل يحكم خوارزم تحت سيادة السلاجقة حتى وفاته في سنة (٥٥١ = ١١٥٦).

وفي الوقت الذي بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة السلجوقية كانت الدولة الخوارزمية تزداد قوة وشباباً، حتى تمكنت من إزاحة دولة السلاجقة والاستيلاء على ما كان تحت يديها من بلاد، وكان السلطان "تكش" بطل هذه المرحلة، وتمد فترة حكمه التي امتدت أكثر من ربع قرن (٥٦٨ - ٥٩٦ هـ = ١١٧٢ - ١٢٠٠م)

العصر الذهبي للدولة الخوارزمية:

لما توفي "تكش" سنة (٥٩٦ = ١١٩٩) خلفه ابنه "علاء الدين محمد"، وكان كأبيه طموحاً يتطلع إلى توسيع دولته وبسط نفوذها، فدخل في حروب مع جيرانه، فاستولى على معظم إقليم خراسان، وقضى على دولة القراخطاي سنة (٦٠٦ = ١٢٠٩)، واستولى على بلاد ما وراء النهر، وأخضع لسلطانه مكران وكرمان والأقاليم الواقعة غربي نهر السند، وسيطر على ممتلكات دولة الغور في أفغانستان، وبلغت بذلك الدولة أقصى اتساعها في عهده، حيث امتدت من حدود العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.

ظهور جنكيزخان: تزامن مع اتساع الدولة الخوارزمية وازدياد نفوذها **ظهور المغول** وبروز دولتهم على يد "تيموجين" المعروف بجنكيزخان الذي نجح في السيطرة على قبائل المغول، وإحكام قبضته عليهم، وما كاد يهل عام (٦٠٢ = ١٢٠٦) حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبي، واتخذ من مدينة "قراقورم" مقراً له، ووضع للقبائل الخاضعة لها نظاماً يحكمها وقوانين يحتكمون إليها، سميت بالياسا، وهو دستور اجتماعي وعسكري صارم، أساسه الطاعة العمياء للسلطان. وبعد أن رسخت أقدام جنكيزخان ووثق من قوته تطلع إلى توسيع رقعة دولته، ومد بصره إلى بلاد الصين، حيث الخصب والنماء، فشن حملات عليها، وتوج جهوده بالسيطرة على العاصمة بكين سنة (٦١٢ = ١٢١٥).

ترتيب سلاطين الخوارزمية

١ - أنوش تكين غارتشاي ١٠٧٧-١٠٩٧م.

٢ - إكينجي ١٠٩٧م.

٣ - قطب الدين محمد ١٠٩٧-١١٢٧م.

٤ - علاء الدين أتسز عزيز الخوارزمي ١١٢٧-١١٥٦ م.

٥ - إل أرسلان ١١٥٦-١١٧٢ م.

٦ - سلطان شاه ١١٧٢-١١٩٣ م.

٧ - علاء الدين تكش ١١٧٢-١٢٠٠ م.

٨ - علاء الدين محمد الخوارزمي ١٢٠٠-١٢٢٠ م.

٩ - جلال الدين منكبرتو منكبرتو ١٢٢٠-١٢٣١ م.

بلاد ما وراء النهر. والنهر هنا هو نهر **جيحون**، وهو الحد الفاصل إلى حد ما بين الأقوام الناطقة بالفارسية، والتركية أي « إيران، وتوران ». فما كان في شماله أي ورائه من أقاليم سماها العرب ما وراء النهر وهو نهر جيحون، أما عن أصل تسميته فهو اسم أعجمي هو من جاحَهُ إذا استأصلَه ومنه الخطوب الجوائح، وقد سمي بذلك لاجتياحه الأراضين.

وأصل الاسم بالفارسية: هرون وهو اسم لوادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبَه الناس إليها وقالوا: جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ.

الإسماعيلية النزارية "الحشاشون" سنة ٤٧٨ - ٦٥٤ هـ

تعد **الإسماعيلية النزارية** طائفة وفرقة من أكبر الطوائف والفرق الإسماعيلية في العصر الحاضر، حيث بدأ انفصال هذه الفرقة وتكونها بعد وفاة المستنصر العبيدي عام ٤٧٨ هـ، وكان حسب تقاليد الإسماعيلية قد نص على إمامة ابنه نزار؛ لكن الوزير الجمالي صرف النص إلى أخيه المستعلي - ابن أخت الوزير - وحصل من جراء ذلك انقسام الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارية وعلى الرغم من القضاء على نزار وقتله في الإسكندرية على يد وزير المستعلي الأفضل بن بدر الجمالي ولم يكن له عقب مستتر أو ظاهر، وعلى الرغم من ذلك فإن أحد دعاة الإسماعيلية ويدعى بالحسن بن الصباح انتصر لنزار وأصبح يدعو له ولأبنائه من بعده وجعل نفسه نائباً للإمام المستور من ولد نزار، وأصبح يدعو له وبذلك تكونت هذه الفرقة وأصبح يطلق عليها الإسماعيلية النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر كما يطلق عليها اسم الدعوة الجديدة تمييزاً لها عن الدعوة الإسماعيلية الأولى، كما يطلق عليها الإسماعيلية الشرقية نسبة إلى مكان ظهورها وانتشارها وإشارة إلى انفصالها عن الإسماعيلية الأم التي تسمى الإسماعيلية الغربية. ويسميها بعض الكتّاب المعاصرين بإسماعيلية إيران نسبة إلى مكانها، وجميع هذه المسميات دالة عليها ومحددة لها وقد عاصر ظهور هذه الفرقة عالمان كبيران تولى كل واحد منهما فضح هذه الفرقة وبيان باطنيتها وشدة خطرها وعظم ضررها على الإسلام والمسلمين، وهما: الإمام الغزالي الذي ألف كتابه (فضائح الباطنية)، والشهرستاني الذي أفرد لهم حديثاً خاصاً بهم عند قوله ثم إن أصحاب الدعوة الجديدة.. إلخ، وحفاظاً على بقاء هذه الفرقة وإظهارها، ادعى منظموها أن لنزار بن المستعلي ولداً ثم له نسلاً استمرت الإمامة فيهم وبقيت ولكنهم - أي النزاريون - فيما بعد كذبوا أنفسهم، حيث ادعوا الإمامة للحسن بن الصباح ومن جاء بعده ممن خلفه في قيادة دولة الحشاشين أو الفدائيين، ولا أدل على ذلك من ادعاء الحسن الثاني من نسل الحسن بن الصباح في عام ٥٥٩هـ أنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً (على ذكره السلام) كما يطلق في العادة في الأئمة المستقرين، وبذلك أصبح حكام ألموت بعد الحسن الثاني الذين جاءوا بعده من النسب الفاطمي - كما يزعمون - وهكذا أتى الحسن الثاني بثلاثة تجديدات ما لبث النزارية في كل مكان أن قبلوها على درجات متفاوتة، أهمها أنه أعلن نفسه خليفة لله في أرضه ولم يعد مجرد داع كما كان أسلافه، ويعد الحسن بن الصباح العقل المدبر الذي نظم هذه الطائفة ووجهها ومن ثم نشرها في بلاد فارس مما نتج عن هذه الجهود قيام دولة الحشاشين أو الفدائيين[١].

---

١ - موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، المبحث الثالث: نشأة الطائفة الإسماعيلية النزارية (الحشاشون)، موقع الدرر السنية.

أبرز القلاع الإسماعيلية في إيران وبلاد الشام

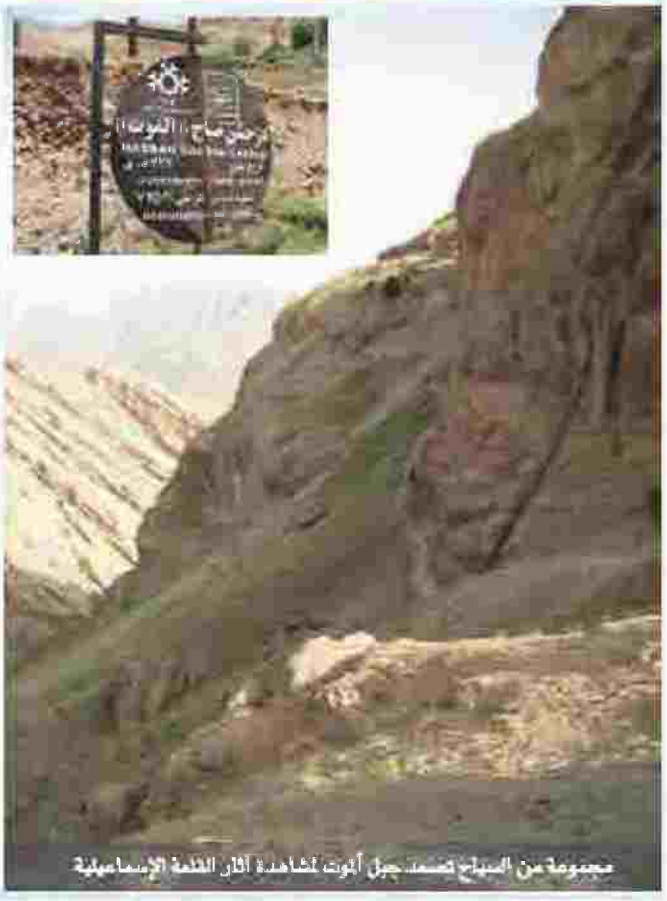

من بقايا آثار قلعة ألموت في إيران والتي دمرها المغول حينما استحوذوا عليها

لم يكد الحسن الصبَّاح يستولي على **قلعة** ألموت في إيران حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة، فأطلق دعاته لتحقيق هذا المآرب. ولم يمض وقت طويل حتى كان الصبَّاح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين برمتها بعد أن سيطر دعاته على القلاع المتناثرة في أرجائها، التي تبلغ نحو المئتين قلعة، كانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه.

دولة الإسماعيلية النزارية السنانية (الحشاشين في الشام)

بعد أن بدأت دولة الحشاشيين أو الإسماعيلية النزارية في ألموت في الأفول ظهر داعية إسماعيلي نزاري في بلاد الشام واسمه **راشد الدين سنان ويلقب بشيخ الجبال**، وحاول تجميع طائفة الإسماعيلية من جديد حيث إن دعوة الإسماعيلية في بلاد الشام ترجع إلى وقت مبكر ولاسيما في مدينة سلمية التي كانت مقراً للأئمة المستورين والإمام الظاهر عبيد الله المهدي. ومن أساليبهم التي حاولوا بها نشر مذهبهم وتقوية سلطتهم الاستيلاء على الحصون والقلاع، ولذا يقول الدكتور محمد كامل حسين: وما زال الإسماعيلية النزارية في الشام يشترون الحصون أو يستولون عليها حتى بلغ عدد حصونهم الرئيسة في الشام في القرن السابع للهجرة ثمانية حصون، هي: القدموس ومصياف وبانياس والكهف والخوابي والمنيقة والقليقة والرصافة، ثم يضيف قائلاً: وازدادت قوة الإسماعيلية بالشام بظهور شخصية فذة وداعية داهية في سياسته وفي مواهبه وهو (راشد الدين سنان) الذي استطاع بمقدرته وكفايته أن يجمع كل إسماعيلية الشام، فقد كان الإسماعيلية في الشام يدينون بإمامة أصحاب قلعة ألموت في فارس فجاء سنان وكون مذهب السنانية واعترفوا بإمامته، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بألموت، وبالرغم من تحولهم هذا فإن إسماعيلية الشام إلى الآن يذكرون الإمام راشد الدين على أنه أعظم شخصياتهم على الإطلاق. وقد تعاصر شيخ الجبل مع القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وكانت بينهما مساجلات كلامية حادة في أول الأمر، ولكن صلاح الدين رحمه الله لما تبين له أنهم بقيادة شيخ الجبل يبيتون له ولجنده من أهل السنة أمراً ويضمرون لهم شراً، حيث حاول عدد من الإسماعيلية اغتيال صلاح الدين، بعد ذلك عزم على قتالهم والقضاء عليهم، ففي سنة ٥٧٢هـ **قصد صلاح الدين بلد الإسماعيليين وانتصر عليهم**، كما حاصر قلعة مصياف واضطروا بعد ذلك إلى طلب الصلح. وظل أمر الإسماعيلية النزارية في الشام بعد ذلك يضعف تارة ويقوى تارة أخرى، إلى أن استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس عام ٦٧٢هـ، وخفت أمرهم من الحياة السياسية حتى لم يسمع عنهم شيئاً ولم تنقل الكتب التاريخية عنهم أحداثاً تذكر، ويبدو أنهم لجأوا إلى التقية والدعوة سراً إلى أن ظهر في إيران رجل شيعي يدعى حسن علي شاه ما بين سنة ١٢١٩هـ إلى سنة ١٢٩٨هـ جمع حوله عدداً من الإسماعيلية وغيرهم وقام بأعمال هدد بها الأمن وأقلق بها السلطات في إيران حتى ذاع صيته وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وانضمت إليه جماعات كثيرة إعجاباً به أو طمعاً في مكاسب آنية تأتيهم عن طريقه، وواكب ظهور هذه الثورة التي هددت الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران ظهور الإنجليز الذين وقفوا مع دعوته ...[1].

١- موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، المبحث الثالث: نشأة الطائفة الإسماعيلية النزارية (الحشاشون)، موقع الدرر السنية.

قلعة مصياف الإسماعيلية في مصياف السورية

هذه صورة مسجد الرفقة الأثري من الداخل حيث يظهر تأثر البناء بأسلوب البناء العبيدي بقناطره الهندسية، والباب الواضح في الصورة يفضي إلى ضريح شيخ الإسماعيلية محمد الرفقي.

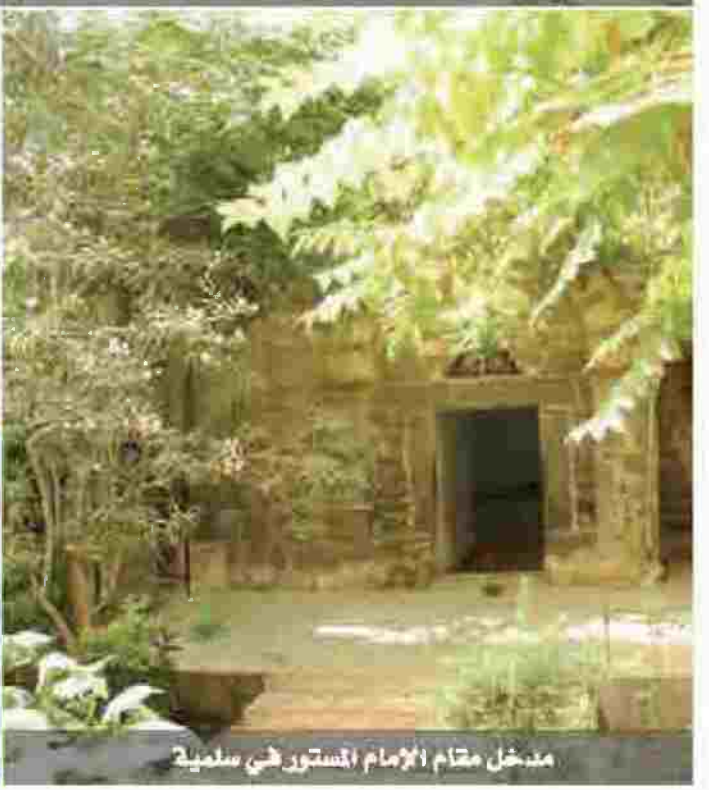

مدخل مقام الإمام المستور في سلمية

صورة لمدخل قلعة مصياف الإسماعيلية

قلعة الخوبي الإسماعيلية

مدخل قلعة كهف الإسماعيلية

قلعة كهف الإسماعيلية

قلعة القدموس الإسماعيلية

معركة الزلاقة في ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م

سقطت الخلافة الأموية في الأندلس إثر سقوط الدولة العامرية سنة (٤٠٠ هـ = ١٠٠٩م) وتفككت الدولة الأندلسية الكبرى إلى أكثر من عشرين دويلة صغيرة يحكمها ملوك الطوائف، ومن أشهرهم: بنو عباد في أشبيلية، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، وزعمت كل طائفة من هذه الطوائف لنفسها الاستقلال والسيادة، ولم تربطها بجارتها إلا المنافسة والكيد والمنازعات والحروب المستمرة، وهو ما أدى إلى ضعف، وأعطى الفرصة للنصارى المتربصين في الشمال أن يتوسعوا على حسابهم. وفي مقابل التجزئة والفرقة الأندلسية في عصر الطوائف كان النصارى يقيمون اتحاداً بين مملكتي ليون وقشتالة على يد فرديناند الأول الذي بدأ حرب الاسترداد التي تعني إرجاع الأندلس إلى النصرانية بدلاً من الإسلام.

وعندما احتل ألفونسو السادس طليطلة يوم ٢٧ رمضان ٤٧٨هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥م، وكان ذلك ناقوس الخطر لملوك الطوائف ينذرهم أن ألفونسو لم يعد يرضى بالمال بل يبغي القواعد أيضاً، وأسهم ذلك في توفير الدوافع للاستنجاد **بقوة المرابطين المجاورة القادرة على الوقوف في وجهه.**

ترد الرواية الشائعة والمشهورة عن كيفية دخول المرابطين إلى الأندلس في العديد من المصادر القديمة، ومؤداها بشكل عام، أن المعتمد بن عباد (ت٤٨٤هـ) كبير ملوك الطوائف آنذاك اختلف مع سفارة لألفونسو يرأسها يهودي جاءت لقبض الجزية، ورفض اليهودي قبول عيار نقودها، وهدد بأنّ سيده لن يقنع فيما بعد إلا بأخذ القواعد والبلاد، فغضب المعتمد وقتل اليهودي وأسر بقية أعضاء السفارة، ولكنه خاف مغبة الأمر، وأيقن من توجه ألفونسو إليه، فاتصل بيوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ) أمير المرابطين في غرة جمادى الأولى ٤٧٨هـ/ ١٤آب ١٠٨٥م، يطلب منه القدوم للأندلس للجهاد، وقد أقدم على ذلك، ضارباً عرض الحائط بنصائح بعض من حوله بعدم إدخال المرابطين إلى الأندلس خشية أن يسلبوه ملكه، فقال قولته المشهورة بأنه خير له أن يصبح راعي جمال في المغرب من أن يصبح راعي خنازير في قشتالة.

بدأت الجيوش المرابطية العبور من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، ثم عبر أميرهم يوسف بن تاشفين في يوم الخميس منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ/ ٣٠ يونية ١٠٨٦م، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية، وعلى رأسهم ابن تاشفين، ونزل بظاهرها، وخرج المعتمد وجماعته من الفرسان لتلقيه، وتعانقا، ودعوَا الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه الكريم [1].

استقر الجيش أياماً في إشبيلية للراحة، ثم اتجه إلى بطليوس في الوقت الذي تقاطرت فيه ملوك الطوائف بقواتهم وجيوشهم. سار هذا الموكب من الجيش الإسلامي إلى موضع سهل من عمل بطليوس

١- محمد عبد الحميد عيسى، الزلاقة معركة كسبها الإيمان وضيع ثمارها الخلاف، مجلة القسطاس التاريخية.

خليج بسكاية
بلاد الغال (فرنسا)
مملكة الفرنجة
مملكة ليون
نبرة
أرجون
قطلونية
كونتيه البرتغال
كونتيه قشتاله
المحيط الأطلسي
نهر دويرو
نهر تاجو
نهر الوادي الكبير
نهر شقورة
ملوك الطوائف
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
المغرب الأقصى
المرابطون
استيلاء ألفونسو السادس على مدينة "طليطلة" سنة (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م) أهم المدن الأندلسية وأكبر قواعد المسلمين هناك.
مناطق نزاع بين المسلمين والنصارى
معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م)
مسار القوات الإسلامية (المرابطين) بقيادة يوسف ابن تاشفين القادمة من المغرب الأقصى.
مسار القوات النصرانية المنطلقة من طليطلة بعد سقوطها بقيادة ألفونسو السادس.
موقع معركة الزلاقة بين الطرفين
مملكة ليون
مملكة الفرنجة
ملوك الطوائف
المرابطون
كونتيه البرتغال
ريباجورثا
قطلونية
نبرة
مملكة أرجون
مملكة قشتاله

ويسمى في المصادر الإسلامية **بالزلاقة** على مقربة من بطليوس.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ زحف ألفونسو بجيشه على المسلمين، ودارت معركة حامية، ازداد وطيسُها، وتحمّل جنودُ الأندلس من المسلمين الصدمة الأولى، وأظهر ابنُ عباد بطولة رائعة، وجرح في المعركة، واختل جيش المسلمين، واهتزّت صفوفه، وكادت تحيق به الهزيمة، وعندئذ دفع ابن تاشفين بجيوشه إلى أتون المعركة، ثم حمل بنفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي فهاجمه بشدة، ثم اتجه صوبَ مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يرغب في الاستشهاد، وقرْعُ الطبول يدوي في الآفاق، فاثل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة، مثل بقية أجنحة المعركة.

ما إن حل الغروب حتى اضطر الملك القشتالي، وقد أصيب في المعركة، إلى الانسحاب حفاظاً على حياته وحياة من بقي من جنده، وطُورِدَ الفارُّون في كل مكان حتى دخل الظلام، فأمر ابنُ تاشفين بالكفّ. استمرت المعركة يوماً واحداً لا غير – وقد حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصرَ المسلمين، وأجزل لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه.

وتجمع المصادر الإسبانية على أن الملك القشتالي ألفونسو السادس قد نجا بأعجوبة في نحو خمسمائة فارس فحسب، من مجموع جيوشه الجرارة التي كان سيهزم بها الجن والإنس والملائكة – حسب قوله –.

سَرَتْ أنباء النصر المبين إلى جميع أنحاء الأندلس والمغرب، وسرى البشرُ بين الناس، وأصبح هذا اليوم مشهوداً من أيام الإسلام، لا على أرض شبه الجزيرة فحسب، وإنما على امتداد الأرض الإسلامية كلها، ونجح ذلك اليوم في أن يمدّ في عمر الإسلام والمسلمين على الأرض الإسبانية ما يقرب من أربعة قرون من الزمان [1].

سهل الزلاقة (الذي جرت عليه أحداث المعركة)

إن ما حدث فعلاً هو عودة المرابطين إلى إفريقيا، وعودة أمراء الأندلس إلى الصراع فيما بينهم، وكأن شيئاً لم يقع، وقد أعطى ذلك الفرصة مرة ثانية للملك ألفونسو السادس أن يستجمع قواه، ويضمد جراحه، ويعمل على الانتقام من الأندلسيين، وكان حقده شديداً على المعتمد ابن عباد، فعاد إلى مهاجمة بلاده، وركز غاراته على أشبيلية، وتمكن من الاستيلاء على حصن لبيط مما اضطر ابن عباد إلى العودة مرة ثانية إلى الاستنجاد بالمرابطين.

---

١ – محمد عبد الحميد عيسى، الزلاقة معركة كسبها الإيمان وضيع ثمارها الخلاف، مجلة القسطاس التاريخية.

سهل الزلاقة من الفضاء الخارجي بواسطة قوقل إرث

لقد أحرز المسلمون النصر في هذه المعركة، الفاصلة التي تماثل معركة حطين في المشرق العربي، بفضل الوحدة والإيمان بنصر الله لهم والثقة بالنفس ونبذ الخلافات وتقديم المصلحة العليا على المصالح الخاصة وصدق وعد الله لهم في قوله تعالى:

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(محمد ٧).

الدويلات التي قامت في اليمن قبل مجيء الأيوبيين

دولة بني زريع: ٤٧٠-٥٦٩ هـ/١٠٧٧-١١٧٣م

بنو زريع: (شيعة إسماعيلية)يمانيون من قبيلة همدان استخدمهم الصليحيون أمراء على **عدن** بعد أن أمر المكرم الصليحي بتقسيمها إلى منطقتين، **المنطقة الأولى** ومقرها حصن التعكر في أعلى جبل شمسان المطل على عدن، تولى حكمها العباس بن المكرم اليامي الهمداني المعروف بابن زريع وأفراد أسرته من بعده. **والثانية** مقرها **حصن الخضراء بعدن** أيضاً، وكان الحكم فيها للمسعود بن المكرم اليامي الهمداني ولأفراد أسرته من بعده على أن يسوق كل منهم مبلغاً معيّناً من المال لبني صُلَيح، وبعد وفاة الملكة أروى الصليحية استقل بنو زريع بتلك النواحي إلى أن قضي على دولتهم من قبل **طوران شاه شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م**، وقد بلغ عدد حكّام هذه الأسرة في كلا القسمين أحد عشر سلطاناً، آخرهم أبو الدر جوهر المعظمي مولى بني زريع.

دولة بني حاتم: ٤٩٤-٥٦٩هـ/١١٠٠-١١٧٣م

بنو حاتم: تنسب هذه الدولة إلى حاتم بن علي المغلس الهمداني الذي استقل وفاة سبأ ابن أحمد الصليحي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، فتغلب على **صنعاء** وما حولها، وأسس ما يعرف بدولة بني حاتم التي بلغ عدد سلاطينها ستة، آخرهم علي بن حاتم بن أحمد بن عمر، انتهت باستيلاء الأيوبيين على أملاكهم، وإلى أحمد بن حاتم بن علي المغلس مؤسس الدولة تنسب روضة حاتم المتنزّه المعروف شمال صنعاء اليوم.

دولة بني مهدي ٥٥٣-٥٦٩هـ/١١٥٨-١١٧٣م

بنو المهدي: (متصوفة وقيل خوارج) ينسب بنو مهدي إلى مهدي بن محمد الرعيني الحميري الزاهد المتبتل من أهل قرية المنيرة بوادي سهام. أما الدولة فقد نشأت على يد ولده علي بن مهدي الذي تمرد على بني نجاح، وحث قومه على احتلال عاصمتهم **زبيد**، فتم له ذلك ودخلها عنوة، وتابع ولده من بعده، فقام بإرسال الحملات إلى تعز وإب والجند والمعافر، وقد استمرت دولة بني مهدي أكثر من خمسة عشر عاماً تداول الحكم فيها أربعة سلاطين، آخرهم عبد الله بن علي بن مهدي الذي زالت الدولة في عهده بدخول **طوران شاه الأيوبي إلى زبيد سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م**.

أبها
تهامة
نجران
صعدة
عثر
المخلاف السليماني
حرض
حوث
عبس
دولة بني حاتم
٤٩٤-٥٦٩هـ/١١٠٠-١١٧٣م
مأرب
ضمران
الزيدية
صنعاء
الحديدة
دولة بني مهدي
٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٨-١١٧٣م
ردّاع
بيحان
حيان
زبيد
اليمن
حضرموت
زبار
البيضاء
خليج الكهرى
تعز (مدينة)
دولة بني زريع
٤٧٠-٥٦٩ هـ/١٠٧٧-١١٧٣م
المخا
عصب
ع. قاطنة
التربة
عدن
بحر العرب
أرض الحبشة
خليج عدن
اليمن عهد الدولة الصليحية

بداية الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م

في الوقت الذي كانت الحروب مستمرة في شرقي العالم الإسلامي كانت الحروب مستمرة في غربيه بين مسلمي الأندلس والدول النصرانية الغربية (شمال إسبانيا وفرنسا في الأساس)، وكانت الأيام دُولاً بين الفريقين؛ فيوم للمسلمين ويوم للصليبيين، إلا أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان في معظمه للصليبيين، وهو العصر الذي عُرِف في التاريخ بعهد ملوك الطوائف، حيث تفرقت كلمة المسلمين؛ مما أدى إلى اجتياح صليبي لقطاع كبير من شمالي الأندلس، خاصةً في زمن ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة، الذي أسقط في سنة (٤٧٨هـ) ١٠٨٥م مدينة طليطلة العتيدة؛ مما أحدث دوياً هائلاً في العالمين الإسلامي والنصراني، غير أن نهاية هذا القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت سعيدة للمسلمين؛ حيث ظهرت دولة المرابطين القوية بالمغرب وغربي إفريقيا، وعبرت إلى بلاد الأندلس، وأنزلت بالصليبيين هزيمة فادحة في موقعة الزَّلَّاقَة سنة (٤٧٩هـ) ١٠٨٦م، (انظر ص ٢٩٦ من هذا الأطلس) أي بعد عام واحد من سقوط طليطلة، وبسطت دولة المرابطين سيطرتها على أجزاء كبيرة من الأندلس، إلا أنهم فشلوا في استرجاع طليطلة[1]. لكن النصارى واصلوا هدفهم من خلال ما عرف في التاريخ بحروب الاسترداد المسيحي الذي في ضوئه سقطت بلاد الأندلس سنة ١٤٩٢ م.

وكتقييم عام للموقف في نهاية القرن الخامس الهجري (نهاية القرن الحادي عشر الميلادي)، فإن العالم الإسلامي كان منقسماً بين **الخلافة العباسية الشرعية تحت سيطرة السلجوقيين وبين الدولة العبيدية في القاهرة**، وكانت نهايات القرن الخامس الهجري تمثِّل ضعفاً وفُرقة واضحين في الشرق الإسلامي، بينما كانت نهاية القرن الخامس الهجري في الأندلس تحمل قوة بارزة للمسلمين - كما أسلفنا - بظهور دولة المرابطين الفتيَّة تحت قيادة القائد الفذّ يوسف بن تاشفين رحمه الله.

لقد كانت الساحة مهيئة لاندلاع حروب بين الطرفين، ولا سيما بعد استنجاد البيزنطيين بالغرب اللاتيني بعد معركة ملاذكرت (ملاذكرد) والتي على أثرها تم أسر الإمبراطور البيزنطي (رومانوس الرابع)، وقيام الحاكم بأمر الله العبيدي بهدم كنيسة القيامة؛ كتصرف شاذ لا ينسجم وسماحة الإسلام وتعاليمه الداعية إلى إعطاء الحرية لأهل الكتاب بممارسة شعائرهم الدينية داخل دور العبادة، ناهيك عن تحين الغرب الصليبي لمثل هذه الفرصة السانحة. فقد وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجة من أجل التركيز على البعد الأثني أو العرقي في هذه الحروب، وأوضح - حسب مزاعمه - أن الله تعالى قد ميزهم بموقع بلادهم، وبعقيدتهم الكاثوليكية، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخي من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة.

العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

الحركة الصليبية: هي رد الفعل النصراني تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون لاتكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (٤٨٩ هـ - ٦٩٠هـ/ ١٠٩٥ - ١٢٩١م) إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد أن يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة[١].

تصالح المؤرخون على إطلاق **الحروب الصليبية** على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غربي أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول، ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس وما يزعم بقبر المسيح، وجذور هذه الحركة تابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غربي أوروبا في القرن الحادي عشر واتخذت من الدين وقوداً لتحقيق أهدافها[٢].

---

١ - د. ممدوح حسين، ود. شاكر مصطفى، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ص ١٠.

٢ - د. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥.

الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي

بادر الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بإرسال رسله إلى البابا " أوربان الثاني " (٤٨٨ هـ - ٤٩٩ م) مستصرخاً إياه، لإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ أراضي الإمبراطورية البيزنطية من خطر الزحف السلجوقي، وكان البابا " أوربان الثاني " في ذلك الوقت يرأس مجمع بياكنزا الديني (مارس ١٠٩٥ م) ، وحضر رسول " الكسيوس كومنين " هذا المجمع وتحدث بفصاحة عما يلاقيه البيزنطيون الشرقيون من مصاعب و مخاطر في آسيا الصغرى.

و سارع البابا أوربان الثاني إلى عقد مجمع ديني في " كلير مونت " (نوفمبر ١٠٩٥ م) افتتحه بخطبة طويلة شرح فيها المقصود بالحرب المقدسة، دعا فيها أهالي غربي أوروبا النصارى إلى التكاتف من أجل استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، و تأمين طريق الحج إلى الأماكن المقدسة ببلاد الشام، حيث عمل البابا حينها على إثارة مطامع سامعيه في ثروات الشرق، فأوضح أن الأرض في الغرب الأوروبي ولاسيما في فرنسا ضاقت بسكانها، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً وفي ذلك الدليل الجلي الذي لا يقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية، قد تم الإعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها. كذلك وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسي، أما إذا مات المرء في سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء النصرانية الأبرار، وجميعها مغريات مهمة في عصر سادته ظاهرة الهوس الديني العاطفي في العالم النصراني الأوروبي.

وبعد انفضاض مجمع كليرمونت أخذ " بطرس الناسك " على عاتقه مهمة نشر قرارات مجمع كليرمونت في مختلف بلاد غربي أوروبا فطاف معظم أرجاء أوروبا داعياً أهلها إلى الانضمام و المشاركة في الحروب المقدسة (الصليبية) ، فلبت الجموع ذلك عبر حملات سيأتي الحديث عنها مفصلاً.

قراءة في خطاب أوربان الثاني

كان البابا أوربان الثاني بارعاً في عرض أفكاره وكذلك في إخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريقاً واحداً على الغرب الأوروبي السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه (وحدة الهدف) من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له في صورة البابوية، وعلى هذا الأساس، لم يرد في الخطاب المذكور أية عبارات عن رغبته العارمة في توحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم في روما.

أن الخطاب الذي ألقاه البابا في مجمع كليرمونت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع من قبل في تاريخ أوروبا القرون الوسطى أن خطاباً كان معبراً عن عصره بمثل هذه الصورة كما لم نسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوروبية الفقيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق بمثل تلك الدرجة التي تحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة، ولذلك لا ننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادي، بل إنه إعلان ما يشبه " الحرب العالمية " في العصور الوسطى من جانب الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي، وذلك دونما مبالغة أو قولبة أو اعتساف في الأحكام، بل من خلال شواهد التاريخ التي وقعت في أعقابه. ويلاحظ أنه في أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهي الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، واتخذوا الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين .

خارطة أوروبا في العصر الحديث ليسهل من خلالها توضيح بعض المسميات التاريخية عن انطلاق الحملات الصليبية في العصور الوسطى

الدوافع الرئيسة للحملات الصليبية

١

كانت هزيمة ملاذكرت (ملاذكرد) سنة ٤٦٣ هـ هزيمة قاسية للإمبراطورية البيزنطية؛ الأمر الذي دعا بالإمبراطور البيزنطي بالاتصال بالبابوية في روما على رغم الخلاف الحاد بينهما من أجل الوقوف صفاً واحداً أمام تنامي قوة السلاجقة الأتراك المسلمين؛ إضافة إلى ما أثاره (بطرس الناسك) الراهب الفرنسي الأصل، الذي جاء لزيارة "بيت المقدس"، وزعم أنه أسيئت معاملته مع غيره من الزوّار، وفور عودته إلى بلاده، مر **بروما** وقابل البابا (أوربان الثاني) ودعاه إلى إنقاذ الأماكن المقدسة. ثم أخذ يجوب ألمانيا وفرنسا وبلجيكا محرضاً الجماهير في خطبه على الزحف لإنقاذ ما يسمى "**قبر المسيح**"، **قال تعالى**: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ النساء ١٥٥ - ١٥٨

فكان لتلك الخطب الحماسية، وتشجيع البابا لهذه الحركة؛ أثر كبير في قلوب الناس؛ لتهييج مشاعرها، وإثارة عواطفها. وكانت أولى ثمار هذا التحرك، انعقاد مؤتمر كليرمونت في تشرين الثاني ١٠٩٥م برئاسة البابا، وكان له تأثير كبير في الدعوة للحروب الصليبية ورعايتها، فعمل على المقاربة وإزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية (البيزنطية) والغربية (اللاتينية)، إذ رفع قرار الحرمان الذي كان موقعاً من الإمبراطور البيزنطي. كما أعطى هذا البابا توجيهاته للأمراء ورجال الدين وكبار التجار الإيطاليين المشاركين في "مجمع كليرمونت"، بأن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف، رمزاً للفكرة التي خرج ليحارب من أجلها، وقد تم تحديد سنة ١٠٩٧ م موعداً للحملة الصليبية الأولى. وقد أخرج البابا علامة الفداء المقدسة وهي (صليب الخلاص) عندهم، وقال: (احملوه على عواتقكم، أو على صدوركم، وليشرف فوق أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم)، ولم يكتف البابا عند هذا الحد بل أخذ بالتنقل بين المدن والبلدان داعياً لهذه الحرب المقدسة.

المصدر: أطلس الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي في العصور الوسطى للمؤلف

٢

كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها سواء قبل وصولهم الشام وفلسطين أو بعد استقرارهم فيهما، والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض، وبقدر ما يكون الاقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع، وهذا ما تأكد حينما هبوا ملبين لدعوة البابا أو ربان الثاني لشن الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي؛ إضافة إلى ما حل بالعالم الإسلامي من فرقة وتناحر واضمحين نتيجة الانقسام بين الخلافة العباسية الشرعية تحت سيطرة السلاجقة، وبين الدولة العبيدية في القاهرة، فالسلاجقة حاربوا البويهيين وسيطروا على الخلافة في بغداد، واتجهوا إلى العبيديين في مصر والشام، فطهروا منهم الشام وألجأوهم إلى مصر، وفي نيتهم القضاء على دولتهم كلها، ثم التفت السلاجقة على البيزنطيين في القسطنطينية فحصنوا آسيا الصغرى (تركيا اليوم)، واستولوا على مدينة **نيقية** التي تطل على الساحل الشرقي لبحر مرمرة وتقابل مدينة القسطنطينية، وحصنوها وأعدوها لحروب طويلة. وهذا الأمر أخاف البيزنطيين ولا سيما بعد هزيمتهم في معركة ملاذكرد، فاتصلوا ببابا الكاثوليك لنجدتهم وأغروه بالمقدسات النصرانية ببلاد المسلمين؛ علماً أن بيت المقدس قد عاد إلى حكم العبيديين منذ بضعة أشهر فقط، ويحكمه في أثناء الزحف الصليبي أمير يسمى(افتخار الدولة) من قِبل الخليفة العبيدي(المستعلي بالله) تؤيده حامية لا تتجاوز ألف جندي.

٣

مثّل طبقة الفلاحين في أوروبا نسبة كبيرة من المجتمع الأوروبي الإقطاعي، وكانت هذه الطبقة تعيش حياة قاسية تفتقر الأمان والاستقرار؛ إضافة إلى أن الأراضي الزراعية قد خربت وأصابها البوار من جراء الهجمات الشمالية فخربت الجسور وغطت المياه الأراضي، كما أن النبلاء كانوا يرفضون تحويل غاباتهم إلى أراض زراعية، وذلك لرغبتهم في الاحتفاظ بهذه الغابات للصيد واللهو، وبذلك لم تعد الموارد تكفي حاجات السكان فتوجهوا إلى الحرب.

كما وجدت عوامل خاصة شجعت طبقة النبلاء على الاشتراك في الحروب الصليبية وهي أن الاقطاعات في أوروبا لم تعد تكفي أفراد العائلات النبيلة خاصة بعد تطبيق نظام ينص على منح الابن الأكبر للسيد الإقطاعي اقطاعه بعد وفاة والده.

كما أيضاً انتشرت النبوءات بقرب ظهور السيد المسيح عليه السلام فأسرع الجميع بالتوبة والاشتراك في الحروب الصليبيه و الحج لكنيسة القيامة.

٤

برزت على الناحية الاقتصادية في المجتمع الأوروبي آنذاك الدور التجاري للمدن الإيطالية (بيزا- جنوة- البندقية) التي كانت راغبة في توسيع رقعة تجارتها، ولعل ما دفعها إلى ذلك هو سيطرت النورمان على صقلية وجنوبي إيطاليا بعد أن كانت تحت حكم المسلمين ردحاً من الزمن، وبعد سيطرة القوى النصرانية على شمالي الأندلس منذ سنة ١٠٨٥ م ؛ أدى إلى ثراء المدن الإيطالية وسيطرتها على البحر المتوسط وتطلعت إلى توسيع رقعتها التجارية على حساب الدول الإسلامية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط.

كذلك التحفيز الديني أيضاً للحث على الاشتراك في هذه الحروب قد نجح هذا الجزء نجاحاً باهراً بالاعتماد على أكاذيب كثيرة عن وحشية المسلمين وما يفعلونه في النصارى ومقدساتهم، خصوصاً عندما أقدم العبيديون على حرق كنيسة القيامة، وتصرفات الحاكم بأمر الله العبيدي المؤتورة.

الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي (إبّان الحروب الصليبية)

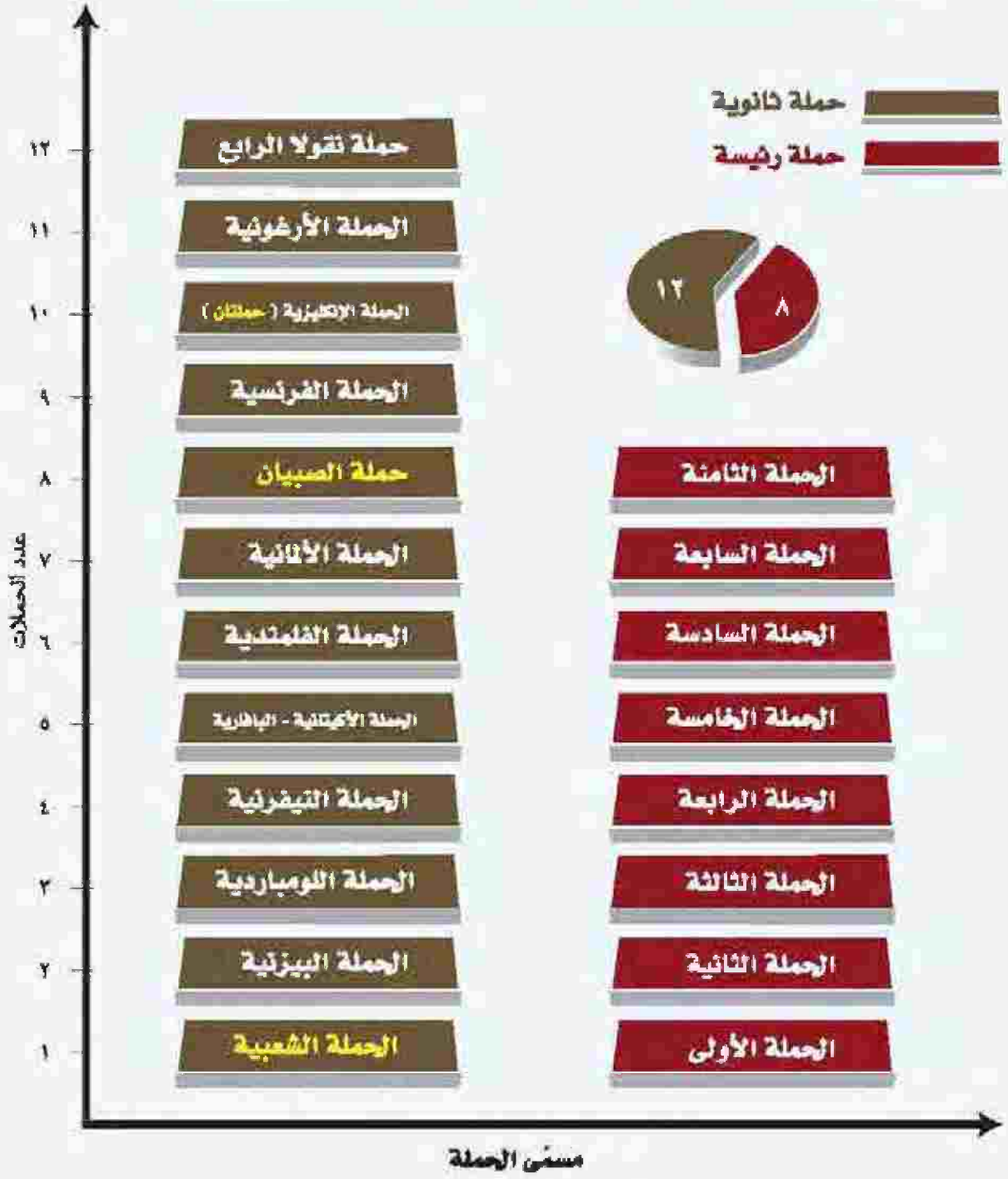

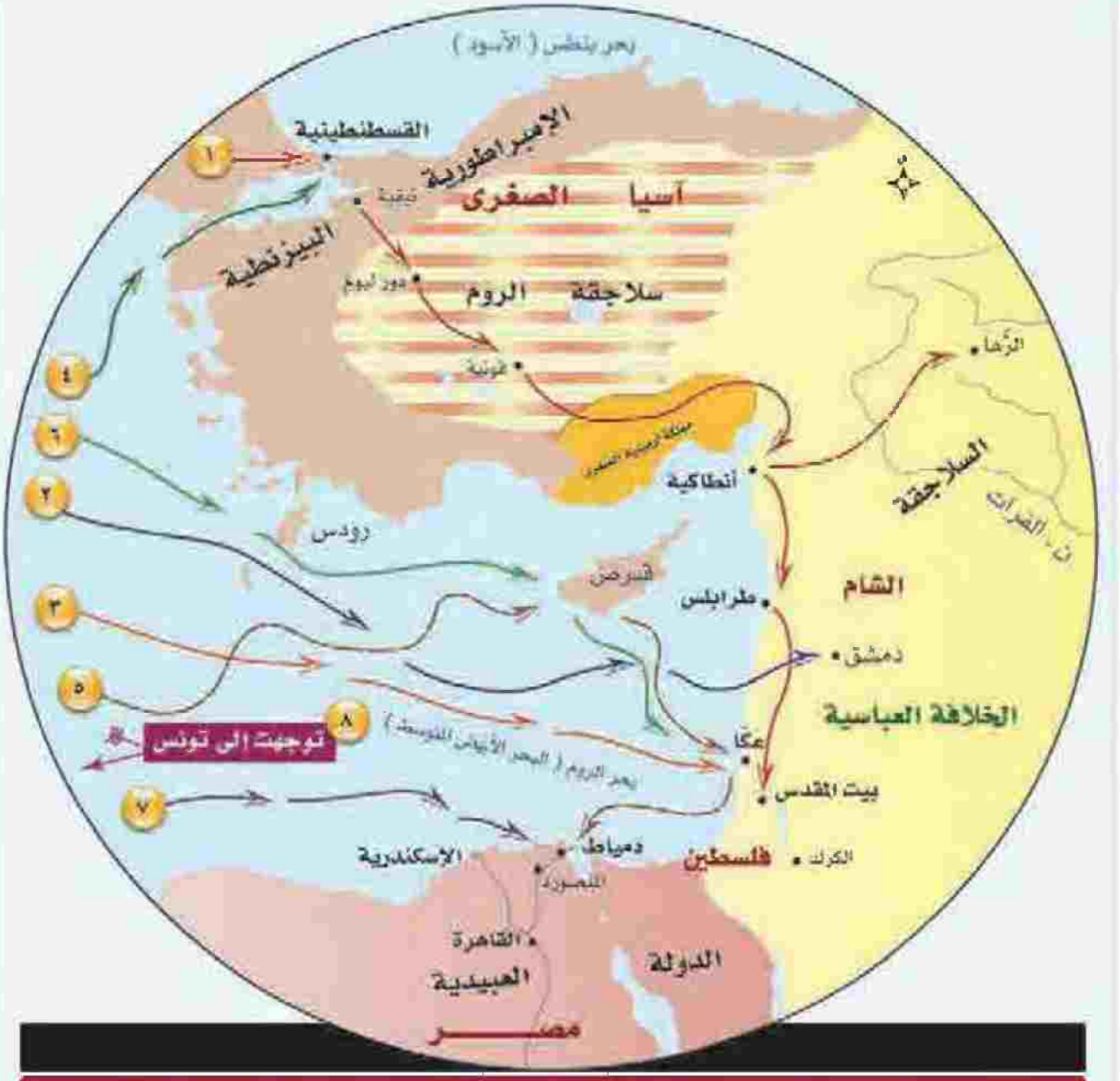

خارطة مجملة لوصول الحملات الصليبية الثمانية إلى المشرق الإسلامي

استطاع البابا «أوربان الثاني» أن يوحّد شعوب الغرب في مشروع عام على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً. ولكن الفكرة الصليبية التي جمعت جماهير الغرب الأوروبي لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع ومع هذا التوافق بين الفكر والواقع .

الحملة الصليبية الأولى

سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م - ١٠٩٩ م

قادة الحملة: ريموند دي صنجيل، روبارت كورت هوز، وغود فري بويون، وبوهيموند.

سبب الحملة ومسارها:

أطلقها البابا أوربان الثاني بعد مؤتمر كليرمونت سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م؛ لإعادة السيطرة النصرانية على المدينة المقدسة (القدس) وعموم الأراضي المقدسة النصرانية من أيدي المسلمين، وما بدأ كدعوة للمساعدة!! تحول بسرعة إلى هجرة جماعية وسيطرة وغزو لمناطق خارج أوروبا؟ وارتحل العديد من الفرسان والأقنان بغير كثير من الإدارة المركزية عبر البر والبحر من مناطق غربي أوروبا.

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى أبواب القسطنطينية - بعد الحملة الشعبية التي قادها بطرس الناسك وآلت إلى الفشل- ، وخاف إمبراطورها منهم فاتفق مع بعض القادة على أن يمدهم بالمؤن والذخيرة على ألا يدخلوا المدينة وأن يردّوا عليه ما يستولون عليه من أملاكه، فاجتازوا البوسفور، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها، ونقل أميرها قليج أرسلان مقره إلى قونية، واتفق مع الإمبراطور أن يدخل جنده نيقية دون القادمين من أوروبا وبهذا غضب الصليبيون لأن الإمبراطور بهذا التصرف لم يسمح لهم بنهب المدينة، وبهذا يكون الإمبراطور البيزنطي قد دعم الصليبيين بكل قوته وسار معهم نحو نيقية، وحصل خلاف بين الصليبيين القادمين من أوروبا والبيزنطيين، إذ وجد الإمبراطور أنه لا يستطيع التفاهم مع هؤلاء القادمين فانصرف لاسترداد آسيا الصغرى من السلاجقة فاتجه نحو الغرب ودخل إزمير وأفسوس وأخذهما من أمراء السلاجقة لانقطاعهم عن دولة السلاجقة، ولم يعد يدعم الصليبيين بل حرص أن يضم له ما أخذوه ، فكان دعمه بقتال المسلمين بجهات ثانية ثم بعد مدة عاد لتقديم الدعم.

لقد اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعض، فاتجه بعضهم إلى الرُّها للبية لدعوة أميرها الأرمني فدخلها وأسس بها إمارة نصرانية لاتينية وكان يطمع بتأسيس دولة صليبية في أرمينيا وقد دعمه في الأمر الأرمن. وسار باقي القادة إلى أنطاكية فألقوا الحصار عليها ودخلوها عنوة عام ٤٩١ هـ بعد حصار دام سبعة أشهر وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف، ومثلوا بالقتلى وبالناس، وفعلوا أبشع الجرائم، ووثوا عليها أحدهم وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحاب، ثم اتجهوا بعدها نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم "كربوقا" صاحب الموصل، وصاحب دمشق "دقاق"، وصاحب حمص "جناح الدولة" غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم ودخلوا معرّة النعمان، ووصلوا إلى بيت المقدس ودخلوها عام ٤٩٢ هـ فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً وخاضت خيولهم ببحر من الدماء، وانتخب غودفري ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي ما يسمى « قبر المسيح » . وكان العبيديون قد استغلوا تقدم الصليبيين من الشمال فتقدموا هم من الجنوب ودخلوا القدس وطردوا السلاجقة منها (قبل وصول الصليبيين إليها) وجرت مفاوضات بين الأفضل بن بدر الجمالي الوزير العبيدي وبين الصليبيين على أن يكون شمال بلاد الشام للصليبيين، وجنوبها للعبيديين ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

في الوقت الذي كان السلاجقة الأتراك يتمرضون فيه للزحف الصليبي في آسيا الصغرى و شمالي بلاد الشام، استغل العبيديون الفرصة فاحتلوا **صور** ٤٩٠ هـ، وسيطروا على **بيت المقدس** في شباط / فبراير ٤٩١ هـ. في أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، واستغل بطرابلس **القاضي بن عمار أحد أتباع العبيديين**، بل أرسل العبيديون للصليبيين في أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي «سوريا» للصليبيين، وفلسطين للعبيديين، وأرسل الصليبيون وفداً إلى مصر ليدللوا على « حسن نيّاتهم »!!، وهكذا... ففي أثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان العبيديون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة الأتراك حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن (الشريعة) شرقاً..!!

وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها، وكسب ود الصليبيين أثناء توسعهم، ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين (انظر القلعة في كتابنا الموسوم أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى)، حيث تعهد بعدم اعتراضهم وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن؛ بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق !!، وقدمت لهم **حمص** الهدايا!! وعقدت معهم **مصياف** الإسماعيلية اتفاقية !!.. أما **طرابلس** فدفعت لهم الجزية، ودفعت **بيروت** المال، وعرضت عليهم الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس!!

احتلال بيت المقدس وقيام مملكة صليبية (لاتينية) فيه

تحركت باقي جموع الصليبيين نحو بيت المقدس بعد أن مكثوا نحو خمسة عشر شهراً في شمالي بلاد الشام، نجحوا خلالها في احتلال كثير من المدن والقرى، (انظر كتابنا الموسوم أطلس الحملات الصليبية)، وفي الطريق إلى بيت المقدس كان بعض الحكام المسلمين يدخلون في طاعة الصليبيين، مؤثرين السلامة على المواجهة، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شروط الصليبيين بتقديم العون والمساعدة لهم، وتوالى سقوط المدن الساحلية وغيرها في أيدي الصليبيين حتى بلغوا أسوار بيت المقدس في (١٥ من رجب ٤٩٢هـ= ٧ من يونيو ١٠٩٩م).

وكان "افتخار الدولة" حاكم بيت المقدس من قبل الدولة العبيدية قد اتخذ استعداده لمواجهة الصليبيين، فسمم آبار المياه وقطع موارد المياه، وطرد جميع من بالمدينة من النصارى لشعوره بخطورة وجودهم في أثناء الهجوم الصليبي، وتعاطفهم معهم، وقوى استحكامات المدينة.

كانت قوات الصليبيين التي تحاصر المدينة المقدسة تقدر بأربعين ألفاً، وظلت ما يقرب من نحو خمسة أيام قبل أن تشن هجومها المرتقب على أسوار المدينة الحصينة، وكان الجند في غاية الشوق والحماسة لإسقاط المدينة، فشنوا هجوماً كاسحاً في يوم الإثنين الموافق (٢٠ رجب ٤٩٢هـ= ١٢ من يونيو ١٠٩٩م) انهارت على إثره التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية، لكن طبيعة السجال في الحرب بين الطرفين أفشلت الهجوم الضاري إلى حد ما، وقتلت الحماس المشتعل في نفوس الصليبيين، فتراجعت القوات الصليبية بعد ساعات من القتال.

كان موقف الصليبيين سيئاً، فهم يعانون العطش وقلة المؤن، وكان يمكن للحامية العبيدية أن تشن هجوماً مضاداً على الصليبيين وهم في هذه الحالة من الإنهاك، فتستأصل شأفتهم وتقضي عليهم، لكنها لم تفعل ثقة منها في مناعة أسوارها، وعدم قدرة الصليبيين على الاستمرار وهم في هذه الحالة، ثم قدر الله - تعالى - أن تصل سفن حربية من جنوة الإيطالية إلى يافا لتستولي عليها، وتمد الصليبيين بالمؤن والإمدادات والأسلحة والمواد اللازمة لصناعة آلات وأبراج الحصار، وكان لهذه النجدة أبلغ الأثر في نفوس الصليبيين فقويت عزائمهم وثبتت أركانهم، وطمعوا في الفوز المرتقب وهو احتلال بيت المقدس.

تسليم القدس للصليبيين

استطاع النصارى بواسطة البرج الثاني وتحت رماية مكثفة من المنجنيق والرماح من الصعود إلى أسوار الحصن، وبدأ القتال على أسوار القدس، وسقطت أخيراً الحامية العبيدية، واستسلمت القدس للنصارى، والواقع أن الذي سلم القدس للنصارى هم العبيديون، فهم لم يرسلوا جيشاً لمساعدة المسلمين، ولم يقدموا يد العون لحاميتهم في القدس، وتعد هذه خيانة عظمى في تاريخهم، بتصرف عن د. طارق السويدان، فلسطين التاريخ المصور، ص ١١٤.

دمع شائع وحمى مباح
وسيف قاطع ودم سكيب
وكم من مسجد جعلوه ديراً
على محرابه نصب الصليب
أمور لو تأملهن طفل
لطفل في عوارضه المشيب

تألفت الجيوش الأساسية التي أرسلها البابا من الفرنسيين المدربين جيداً والفرسان النورمنديين. وشارك فيها غودفري البولوني، وريموند كونت تولوز، وروبرت الفلاندري، وبوهيموند من تارنتو. وانضمت إليهم القوات البيزنطية في القسطنطينية وتمكن الجيش الموحد من الاستيلاء على نيقية عام ٤٩١هـ، ١٠٩٧م.

وبعد ذلك، انقسم الجيش ومسار الأوروبيون الغربيون نحو القدس، وخاضوا العديد من المعارك الدموية على طول الطريق، وكان أكثرها صعوبة حصار أنطاكية (مدينة تركية الآن)، حيث هلك الكثيرون بسبب الهزيمة التي ألحقها بهم الأتراك، ورحل الآخرون. ووصل الأوروبيون القدس في صيف ٤٩٣هـ، ١٠٩٩م، واستولوا على المدينة المقدسة (بيت المقدس) بعد ستة أسابيع من القتال، ثم عاد معظمهم لأوطانهم. وضم القادة الأراضي التي احتلوها إلى أربع دول سموها دول الصليبيين اللاتينية، وتضم مقاطعة إديسا (الرُّها) وإمارة أنطاكية، ومقاطعة طرابلس، ومملكة بيت القدس.

م. غ. سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى.

مجزرة الصليبيين في بيت المقدس

تعد المستشرقة الألمانية الراحلة «زيجريد هونكه» من أوسع المستشرقين اطّلاعاً على تاريخ الإسلام، وقد وصفت بعبارات مؤثّرة انتصارَ الصليبيين على المسلمين، واستيلاءهم على القدس، فقالت: "عقب وصول الصليبيين إلى هدفهم المنشود «بيت المقدس» طفت حماستهم فجرفت أمامها كلّ السدود، وانطلقوا سيلاً بشعاً بربريا يأتي على الأخضر واليابس، وقد أجّج ذلك صيامُهم ثلاثين يوماً حماسةً متعصبة وتذرأ للرب تقرباً. ولقي هذا كله ردّ فعل لدى سفاكي الدماء ... من فرسان "الفرنجة" من فرنسيين ونورمان وجموعهم التي انحدرت في طرقات بيت المقدس تحصد الأرواح حصداً، لا تقع على إنسان إلا قتلته ... رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً. وتذكر مصادرُنا الغربيةُ ذاتها أن ذلك الحصاد الوحشي بلغ عشرة آلاف ذبيح. ويصف المؤرخ الأوروبي ميشائيل دارسيرر كيف كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق بيت المقدس وسيفه يقطر دماً حاسداً به كلّ من وجد في طريقه، ولم يتوقّف حتى بلغ كنيسة القيامة - وما يسمى - قبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها، مردّداً كلمات المزمور التالي: "يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقاً، إنّ للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهاً يقضي". أما الميدان الذي يتعلّق قبة الصخرة والمسجد الأقصى الذي لجأ إليه معظم الأهالي المسلمين الهاربين هلعاً واحتماءً به، فقد تحوّل تحت زحف الفرنجة المدمر ... إلى حمام دماء خاض فيه مهاجمو النصارى حتى الكعبين، مواصلين الإجهاز على المسلمين. لقد كانت الحملة الصليبية الأولى ... (١٠٩٥م) بمنزلة المقدمة الإنشادية الحزينة لواحدة من كبريات مآسي العبث في تاريخ الإنسانية. لقد حفر ذلك اليوم حفراً يتأبى على المحو أبداً في ذاكرة التاريخ ... ولئن كانت الحملة الصليبية الأولى قد انتهت لوقت مؤقت معلوم بالغلبة الساحقة لمقاتلي النصارى دفاعاً عن المسيح!، فإنها كانت في الوقت نفسه هزيمةً أخلاقيةً مهولة سجّلها تاريخ الإنسانية بحروف من الخزي ... ولقد أيقظت تلك الحملة البربرية ما أيقظت في نفوس المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي ... ولن تزال تلك الحملة الصليبية الأولى بقعة عارٍ وخزيٍ لاصقةً بالغرب مشيرةً إليه بإصبع الاتهام" ص ٣١-٣٢.

شهادة للتاريخ

رصد التاريخ الإسلامي الحدث عن مجزرة الصليبيين في بيت المقدس بكثير من التفصيل والدقة.

قال ابن الأثير: إن المذبحة استمرت طوال يوم الدخول وليلته، واقتحم النصارى المسجد الأقصى في صباح اليوم التالي، وأجهزوا على من احتموا فيه، وصبغت ساحات المسجد بدماء العباد وأزهاد الركع السجود، وتوجه قائد الحملة (ريموند) في الضحى لدخول ساحة المسجد، متلمساً طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته، وكان النظر لايقع إلا على أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام المقطعة في الطرقات والساحات، نهب النصارى جميع الأمتعة وخربوا أثاث المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ونهبوا القناديل التي بلغت نيفاً وأربعين قنديلاً، كل قنديل وزنه ثلاثة آلاف وستمئة درهم، وأخذوا نيفاً وعشرين قنديلاً من ذهب) .

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١ ص ١٩٨.

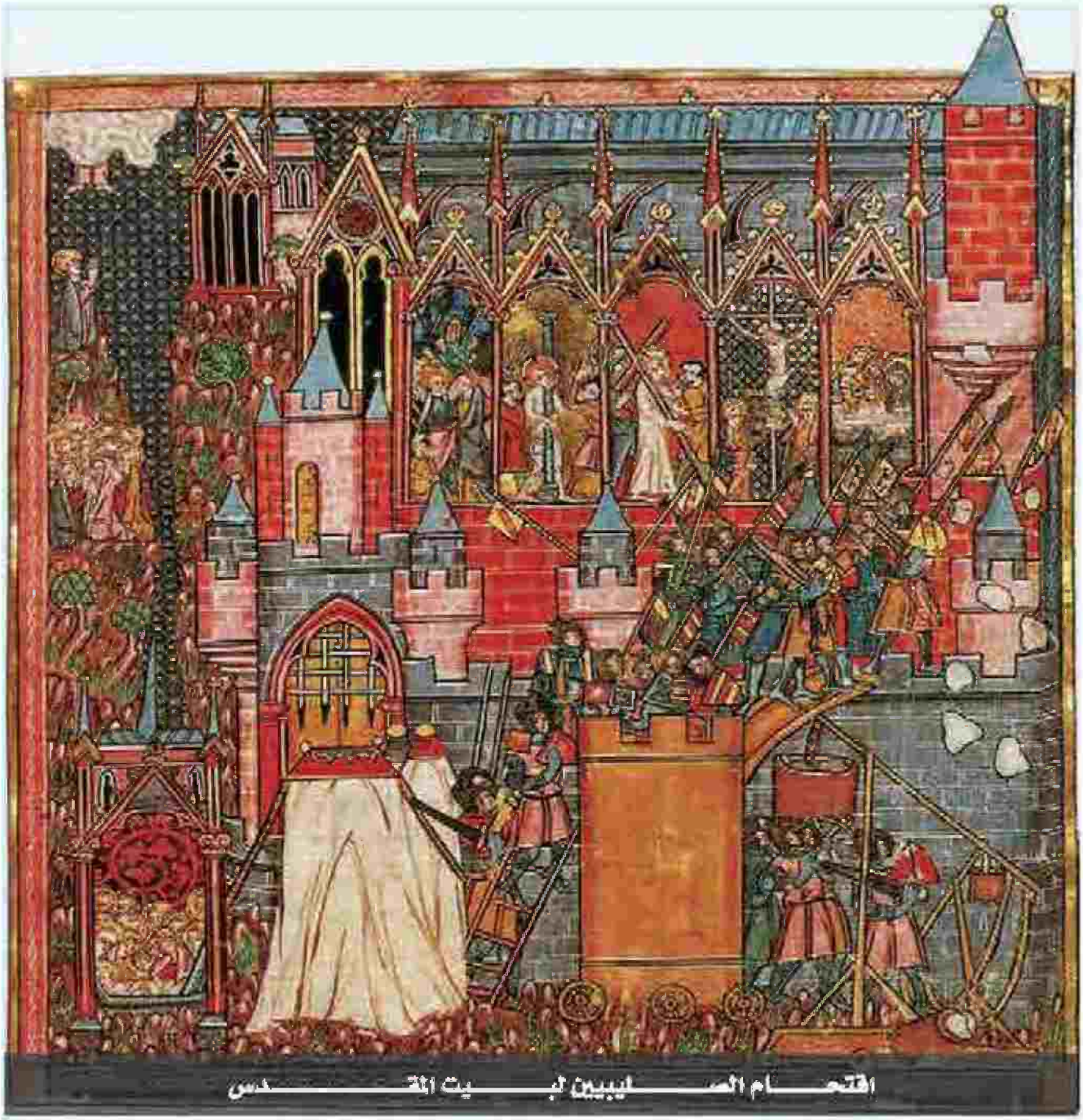

اقتحام الصليبيين لبيت المقدس

يروي المؤرخ الفرنسي (جوستاف لوبون) هذه القصة عن الكاهن (ريمون دوجلوس) الذي حضر مشهد مجزرة الصليبيين في بيت المقدس، ويقول: (لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان حتى صارت الجثث تعوم على الدماء، وصارت الأيادي والرجل تسبح، وما عاد الجنود يطيقون رائحة البخار الذي يخرج من الجثث!!) . ويروي أيضاً في قصة أخرى عن (دوهمن): اقتيد الأسرى الباقون فجمعوا في برج القصر، وأكثرهم من الأطفال والنساء والعجائز والشيوخ، فأمر الحاكم الصليبي بذبح الأطفال والنساء والعجائز والشيوخ، وإبقاء الشباب على قيد الحياة، ثم تم أخذهم عبيداً وبيعوا في أنطاكية.

يقظة العالم الإسلامي بعد الحملة الصليبية الأولى

تحت ضغط العلماء وجهدهم الدؤوب لتنشيط وإشعال الحماس في قلوب الشعب والحكام، بدأ أول تحرك مضاد من قبل المسلمين بحركة جهادية بقيادة العلماء، واستجاب لهم حاكم **الموصل** فقط بين جميع البلاد الإسلامية، وكان يحكم الموصل **رجل تركي مسلم** اسمه (**مودود**) دعا هذا الرجل للجهاد ؛ فاستجاب له خلق كثير، وبدأ الناس يتوافدون إليه، ثم ما لبث أن قاد جيشه هذا نحو (**الرُّها**) واستطاع أن يفتحها ويقتل العدو المغتصب ويأسر بعضهم، ومن الأسرى أخذ بعض الأرمن الذين تعاونوا معهم، وبدأ بعض الأمل يعود للمسلمين بهذا الفتح.

في عام **٥٠٧ هـ ١١١٣ م**، توافدت جموع من المسلمين الذين بعثتهم بوادر الأمل إلى (مودود) فشكل منهم جيشاً وتحرك نحو **القدس**، وشعر النصارى بخطر الجيش الزاحف نحوهم، ولم يكن لدى مودود إلا جيش بسيط متناثر الأطراف، في مواجهة قوة عظيمة من النصارى كانت قد تجمعت بتعداد وأعداد ضخمة، ثم اشتبك الطرفان في معركة هائلة لم يستطع أحد الطرفين أن يحسمها لصالحه، ورأى مودود أن يعيد ترتيب صفوفه فانسحب نحو دمشق، وكانت لا تزال تابعة له، وفي **دمشق** نزل في المسجد الأموي يوم الجمعة فتربص له أحد رجال (**الحشاشين**) وهي **فرقة باطنية** ضالة، وقتلته غيلة، ولعل في ذلك قمة الخيانة أن يعمد أحد ممن يدعون الانتساب للإسلام فيقتل مجاهداً مسلماً بعث الله فيه أمل الأمة المكلومة، ولكن هذا - كان ولا يزال - ديدن الفرق المنحرفة والباطنية، فهم يضمرون العداء للمسلمين ومن خالفهم أكثر من عدائهم للكفار والنصارى واليهود ومن والاهم.

معركة قسطوان ... **٥١٣ هـ ١١١٩ م**

وُئدت هذه الحركة الجهادية في مهدها، ولم يكتب لها التوفيق والنجاح، لكن العلماء لم يلبثوا أن بثوا العزيمة والحماس في نفس حاكم آخر، وهو حاكم مدينة **ناردين** فجمع هذا الأخير جيشاً وتحرك به مرة أخرى نحو **الرُّها**، وبعد معركة بسيطة تسمى معركة (**قسطوان**) استطاع الجيش المسلم التغلب على النصارى ودحرهم، وانتشر مجدداً الأمل والتفاؤل بين الناس بهذا القائد الجديد، وبدأت عمليات استعدادات الجهاد والنهضة في الأمة مرة أخرى. د. السيد، فلسطين التاريخ المصور، ص ١١٥ - ١١٦.

من تاريخ الحشاشين الباطنيين

هم من غلاة الإسماعيلية ويطلق عليهم النزارية، ومؤسس دولتهم الحسن بن الصباح، وتذكر كتب التاريخ: أن فخر الدين الرازي كان يعلم الناس في حلقته في المسجد ما يراه حقاً، ولم يكن لدى المسلمين آنذاك شبهة فصل الدين عن الحياة، وفي ذلك الزمان كانت فتنة **الحشاشين** قد ذرّت، وبدأت تنشر الإرهاب واغتيال قادة المسلمين، **فاغتالوا، شرف الدولة مودود**، ونظام الملك، وحاولوا اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة، **وكل ذلك إرضاءً للصليبيين**، ووصولاً إلى أهدافهم الباطنية، وكان أحد هؤلاء الحشاشين قد انتظم في حلقة الفخر الرازي لمدة طويلة، ليراقب الشيخ ثم يسكته عن النقد أو يقتاله، وسئل ذات يوم عنهم فشرح رأيه في الحشاشين وبين ضلوعهم على الإسلام وأهله، ثم خرج الشيخ إلى داره، وفي ناحية من الطريق انفرد الحشاش بالشيخ - وكان الحشاش ضخماً قوياً - وعدا على الفخر وصرعه أرضاً، ثم جلس على صدره، وسل خنجره وقال: عدني ألا تعود إلى نقد الحشاشين مرة أخرى وإلا قتلتك الآن، فتخلص منه الشيخ بالوعد الذي أراده، وفي يوم آخر سأل أحد الحاضرين الشيخ عن الحشاشين فقال له: يا بني هؤلاء القوم لا أقول فيهم شيئاً، لأن لهم حجيجاً ثقيلة؛ وأخرى حادة!! . بتصرف عن د. محمد حامد الأحمري، أطراف الفلسفة الميتافيزيقية.

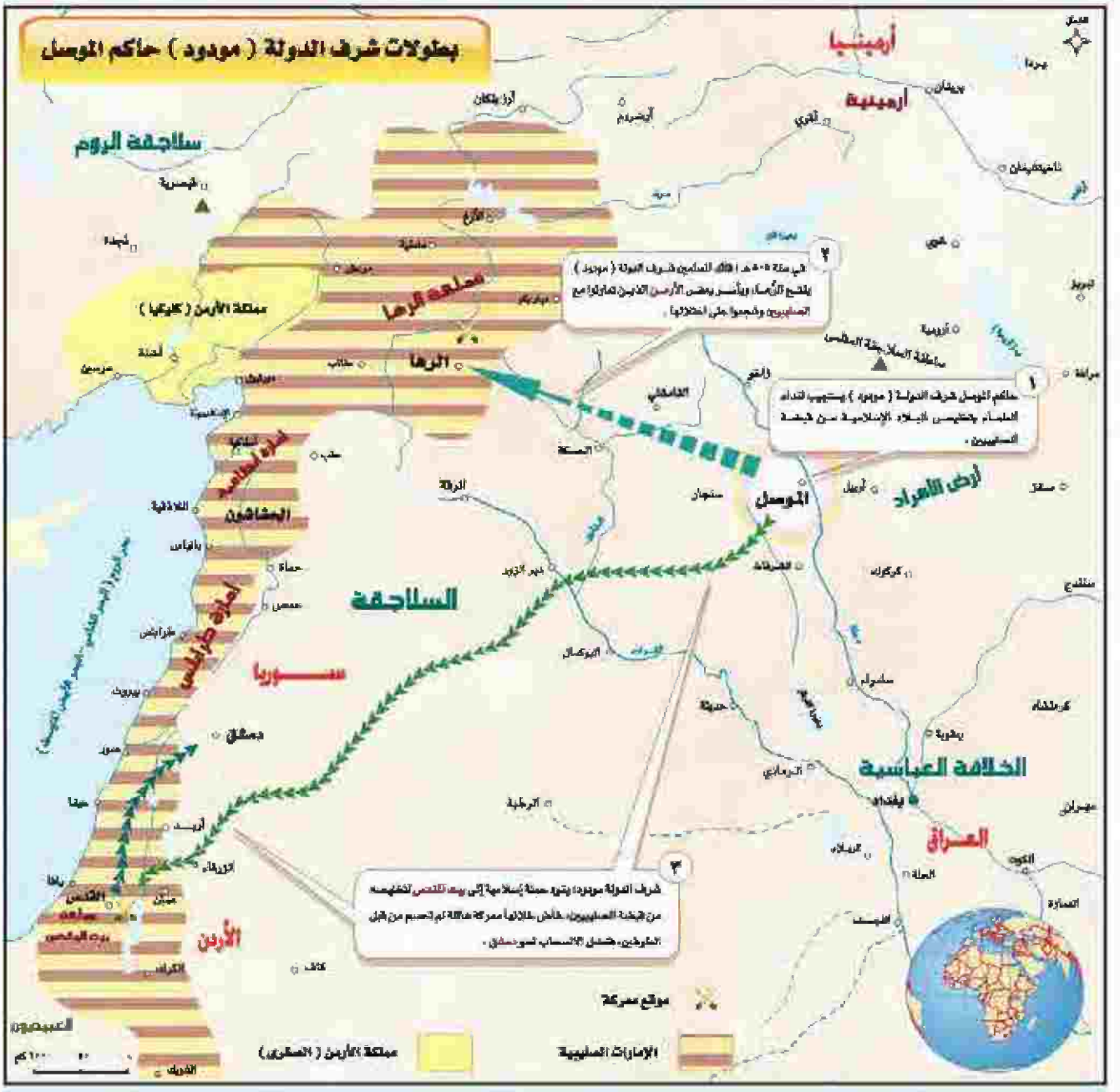

قال الذهبي: ثم سار المسلمون للقلا فتهيبوا بلاد الفرنج وضياعهم ما بين القدس إلى عكّا. وردّت عساكر الموصل، وتخلّف مقدّمهم مودود عند طغتكين بدمشق وأمر العساكر بالقدوم بالربيع فوثب على مودود باطنيٌّ يوم جمعة فقتله، وقتلوا الباطنيّ. ودفن مودود عند دقاق بخانكاه الطواويس ثم نقل إلى إصبهان. العبر في خبر من غبر - (ج ١ / ص ٢٢٧).

وقال ابن القلانسي في "تاريخه" : قام هو (أي مودود) وطغتكين حولهما الترك والأحداث بأنواع السلاح من الصوارم والصمصامات والخناجر المجردة، كالأجمة المشتبكة، فوثب رجلٌ لا يؤبه له، وحدا لمودود، وشعد منه، وقبض بيده قبائه، وضربه تحت سرته ضربتين، والسيوف تنزل عليه، ودفن بخانقاه الطواويس، ثم نقل، وكان بطبرية مصحف أرسله عثمان رضي الله عنه إليها، فنقله طغتكين إلى جامع دمشق. سير أعلام النبلاء - (ج ١٩ / ص ٤١٠).

قيام الدولة الزنكية سنة ٥٢٠ - ٥٦٩ هـ / ١١٢٧ - ١١٧٤ م

بعد تأسيس الدولة الزنكية استطاع عماد الدين زنكي بفضل الله ثم بجهوده الميمونة؛ أن ينتزع من الصليبيين إمارة الرُّها التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م بزعامة بلدوين الأول وكان تحريرها في عام ٥٣٩هـ، وقد ساعد عماد الدين زنكي عوامل عديدة في فتح الرُّها من أهمها؛ تنامي حركة الجهاد الإسلامي حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرُّها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مَثَّل: (موتاً بطيئاً لها) إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور، ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين العسكرية، الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها، ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم لقد حقق عماد الدين زنكي بفتح الرُّها؛ أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكان لهذا النصر نتائج مهمة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال[1]:

١- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت ذروتها دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي ولاسيما الأمير مودود بن التونتكين، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم فإنها البداية، واليوم إسقاط الرُّها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل والتقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء.

٢- تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، ومن ثم عاد التجانس لمنطقة شمالي العراق ولم تعد الرُّها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة الروم، وكذلك سلاجقة بلاد فارس.

٣- كما أدى سقوط الرُّها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الإستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرحم الأم، فلم يكن ذلك الغرب يسمح لامتداده السياسي، والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢هـ وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرُّها، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين، وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين لفتحه إمارة الرُّها.

١- د. علي محمد محمد الصَّلابي، عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلل الباطني والغزو الصليبي، النسخة الرقمية

آل زنكي، ينتمي عماد الدين بن آق سنقر بن عبدالله آل ترغان إلى قبائل (السبايو) **التركمانية**، وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول و أترابه، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخصّ أصدقائه، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولما تسلم ملكشاه الحكم عينه حاجباً له، وحظي عنده فكان من المقرّبين، ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته. ومن أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنقُر عند السلطان، منحه لقب "قسيم الدولة"، وهذا يعني الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة محصورة لا تُعطى إلا لمستحقيها، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سُنقُر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده. ...يتبع الجزء التالي.

القائد التركي: نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (رحمهما الله)

ولد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، في ١٧ شوال سنة ٥١١هـ، وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكي بعد سيف الدين غازي، وقد تأثر أبناء عماد الدين بما كان لأبيهم من خلال طيبة وفضائل جمّة، فكانوا جميعاً من رجال الجهاد وفرسانه، على تفاوت في ذلك بينهم.

وبعد وفاة عماد الدين زنكي، اقتسم ولداه: سيف الدين غازي ونور الدين محمود دولته، فحكم الأول الموصل وثبّت أقدامه بها، وانفرد الآخر بحكم حلب، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور في الجزيرة الفراتية، وكان كلا الأخوين مؤهلاً لما وجهته له الأقدار، فكان سيف الدين غازي صاحب سياسة وأناة، على حين كان نور الدين مجاهداً مخلصاً جياش العاطفة صادق الإيمان، ميالاً إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديار المسلمين، مفطوراً على الرقة ورهافة الشعور؛ وهو ما جذب الناس إليه، وحبب القلوب فيه.

وكان على نور الدين أن يواصل سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، يدفعه إلى ذلك طبيعته المفطورة على حب الجهاد، وملازمته لأبيه في حروبه معهم. وقرب إمارته في حلب في شمالي سوريا من الصليبيين جعله أكثر الناس إحساساً بالخطر الصليبي.

كيف قُتل عماد الدين زنكي؟

فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكي، وبعد تفكير وتقليب فيمن سيقوم بهذه المهمة قرروا إسناد مهمة الاغتيال إلى جماعة مدربة بذلك وبالفعل وفي ٦ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ والبطل الفذ عماد الدين زنكي يحاصر أحد القلاع المطلة على نهر الفرات واسمها قلعة جعبر، فاندست مجموعة من الباطنية المتعاونين بالاتفاق مع الصليبيين بعد أن قبضوا الثمن بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكي واندسوا بين حراسه وفي الليل دخلوا خيمته وهو نائم وقتلوه - رحمه الله - وهكذا مات البطل وترجل الفارس وخط الراكب بعد حياة طويلة كلها جهاد وكفاح ونصرة للإسلام وأهله، وبعد أن أحيا ما كان مندثراً وأعاد ما كان مفقوداً. ووضع الأساس المتين لمن جاء بعده فرحمه الله رحمة واسعة، وغفر له ما كان من خطايا وزلات.

استهل نور الدين حكمه في سوريا بالقيام ببعض الهجمات على إمارة أنطاكية الصليبية، واستولى على عدة قلاع في شمالي الشام ومنطقة الساحل السوري، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة الرُّها التي فتحها عماد الدين زنكي وكانت هزيمة الصليبيين في الرُّها أشد من هزيمتهم الأولى، وعاقب نور الدين من خان المسلمين من أهل الرُّها، وخاف بقية أهل البلد من النصارى على أنفسهم فغادروها.

كان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشام وشمال العراق وكسب ودها وصداقتها؛ لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع "معين الدين أنر" حاكم دمشق سنة (٥٤١هـ = ١١٤٧م) وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف، لم يجد غير نور الدين يستجير به بعد الله سبحانه، فخرج إليه، وسارا معاً؛ صاحب دمشق، ونور الدين، واستولوا على بصرى وصرخد في جنوبي سوريا قبل أن يقعا في أيدي الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة أنطاكية، واستولى على أرتاح وكفر لاثا وبصرفوت وغيرها.

وعلى أثر ذلك ملك الرعب قلوب الصليبيين من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكانت سنه إذ ذاك تسعاً وعشرين سنة، لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيراً كثيراً.

وفي سنة (٥٤٢هـ = ١١٤٧م) وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها، كما سيتضح لنا في الصفحة ما بعد القادمة، وعجزت عن احتلال دمشق أهم مدن الشام، ويرجع الفضل في ذلك لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في فشل تلك الحملة، واستغل نور الدين هذه النكبة التي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم للهجوم على أنطاكية بعد أن ازداد تفوقه في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ=١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب أنطاكية لنجدتها، والتقى الفريقان في (٢١ من صفر ٥٤٤هـ = آخر يونيو ١١٤٩م) ونجح المسلمون في تحقيق النصر وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكية وغيره من قادة الفرنج.

٣ ثم يقف نور الدين محمود مكتوف اليدين أمام ما جرى على أرض الرُّها ، حيث لبى طلب الحامية التركية المتمركزة فيها ، وأسرع من حلب على رأس جيشه ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم، في زهاء عشرة آلاف فارس، قاصداً الرُّها . ولما وصل إليها أقام المحاصر عليها، فيما كانت الحامية التركية في القلعة، تصلي المحاصرين بسهامها، فتزرع الفوضى بينهم، وتبددهم. وعندما تحقق جوسلين من قوة الحصار، وتراخي مقاومة الأرمن، وتباطؤ الإفرنج بالمجيء لمعاونته، حاول الخروج من المدينة مع أهاليها الأرمن، واقتحموا جميعاً، جيش المسلمين، بغية اختراقه، والإفلات من الطوق، بالهرب، ولكن أين لهم أن ينفذوا ؟ وقد أحاطت بهم قوى ذلك الجيش من جميع الجهات بسرعة، وأطبقت عليهم فأبادتهم، ولم يسلم من جيش أمير الرُّها السابق، سوى قلة ضئيلة من فرسانه، استطاعوا الفرار برفقته لسرعة جيادهم. أما الأهالي الأرمن الذين وقعوا بيد نور الدين، فقد عوقبوا بما يستحقونه، فهلكوا جميعاً، ومن لم يقتل منهم، أسر وبيع رقيقاً في أسواق حلب في ٣ تشرين الثاني سنة ١١٤٦ م - ٥٤١ هـ وكانت حصيلة هذا الخطأ الذي ارتكبه جوسلين الثاني، بدخوله الرُّها، بعد فتحها من قبل عماد الدين، ما يزيد عن ٥٥٠٠٠ ضحية، ما بين قتيل وأسير من إفرنج وأرمن، وبعد هزيمته، لجأ جوسلين الثاني إلى سُميساط وتحصن في قصره على الجانب الآخر من الفرات .

الحملة الصليبية الثانية

سنة ٥٤١هـ - ٥٤٣هـ - ١١٤٧-١١٤٩م

قادة الحملة: كونراد الثالث ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا

سبب الحملة ومسارها:

استطاع المسلمون بقيادة عماد الدين زنكي ومن ثم ابنه نور الدين محمود من استرجاع **الرُّها** من أيدي الصليبيين كما أوضحنا ذلك في الصفحات السابقة.

وتحتل الرُّها مكانة دينية كبرى لدى النصارى - لكثرة ما فيها من الأديرة والكنائس، ويؤمن النصارى: أن بكنيستها العظمى منديل المسيح عليه السلام!؟ كما بها معالم إسلامية؛ كجامع ينسب للخليل عليه السلام، وأماكن تاريخية أخرى - فخشي الأوروبيون بعد فقدان الرُّها على مصير الإمارات الصليبية الباقية نتيجة لهذه الصحوة الإسلامية المباركة.

وكان الداعي المحرض لهذه الحملة الصليبية **الراهب الفرنسي** (سان برنارد) وكان البابا إذ ذاك (أوجان الثالث)، حيث عقد مجمع كنسي في مدينة فيزولاي في مارس ٥٤٠ هـ - ١١٤٦ م، واستجاب لذلك ملك فرنسا (لويس السابع) وإمبراطور ألمانيا (كونراد الثالث).

سار إمبراطور ألمانيا مع مسار الحملة الصليبية الأولى نفسه واصطدم مع السلاجقة الأتراك المسلمين في **قونية** مما أدى إلى رجوعه إلى **نيقية** ثم **القسطنطينية** لاستخدام سفن حربية للوصول لبيت المقدس بحراً؛ بينما سلك لويس الفرنسي طريق الساحل الأناضولي (انظر الخارطة في الصفحة المقابلة لتوضيح ذلك)، ثم واصل من أنطاكية إلى بيت المقدس حيث كان يريد اللحاق بملك ألمانيا قبل أن يصل إلى بيت المقدس. **فسار أكبر جيشين في أوروبا الغربية** لاسترداد **الرُّها** وتعزيز الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي.

كانت نتائج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق فشلاً كبيراً للصليبيين، ونصراً عظيماً للدويلات الإسلامية. وأدت نتائجها إلى استرجاع المسلمين للقدس كما سيتضح ذلك في الصفحات القادمة، وقيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي بعد سلسلة من الأحداث في الشام.

كان النصر الصليبي الوحيد في تلك الحملة على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، حيث توقفت سفن الصليبيين الإنجليز في أثناء عبورهم للبحر قرب **لشبونة** مصادفة، فساعدوا جنود قشتالة في السيطرة عليها عام ١١٤٧ م. وفي تلك الأثناء، في أوروبا الشرقية، كانت أولى الحملات الصليبية الشمالية لتحويل القبائل الوثنية للنصرانية قد بدأت، واستمرت تلك الحملات بعد ذلك قروناً حتى أذعنت جميعها بالنصرانية.

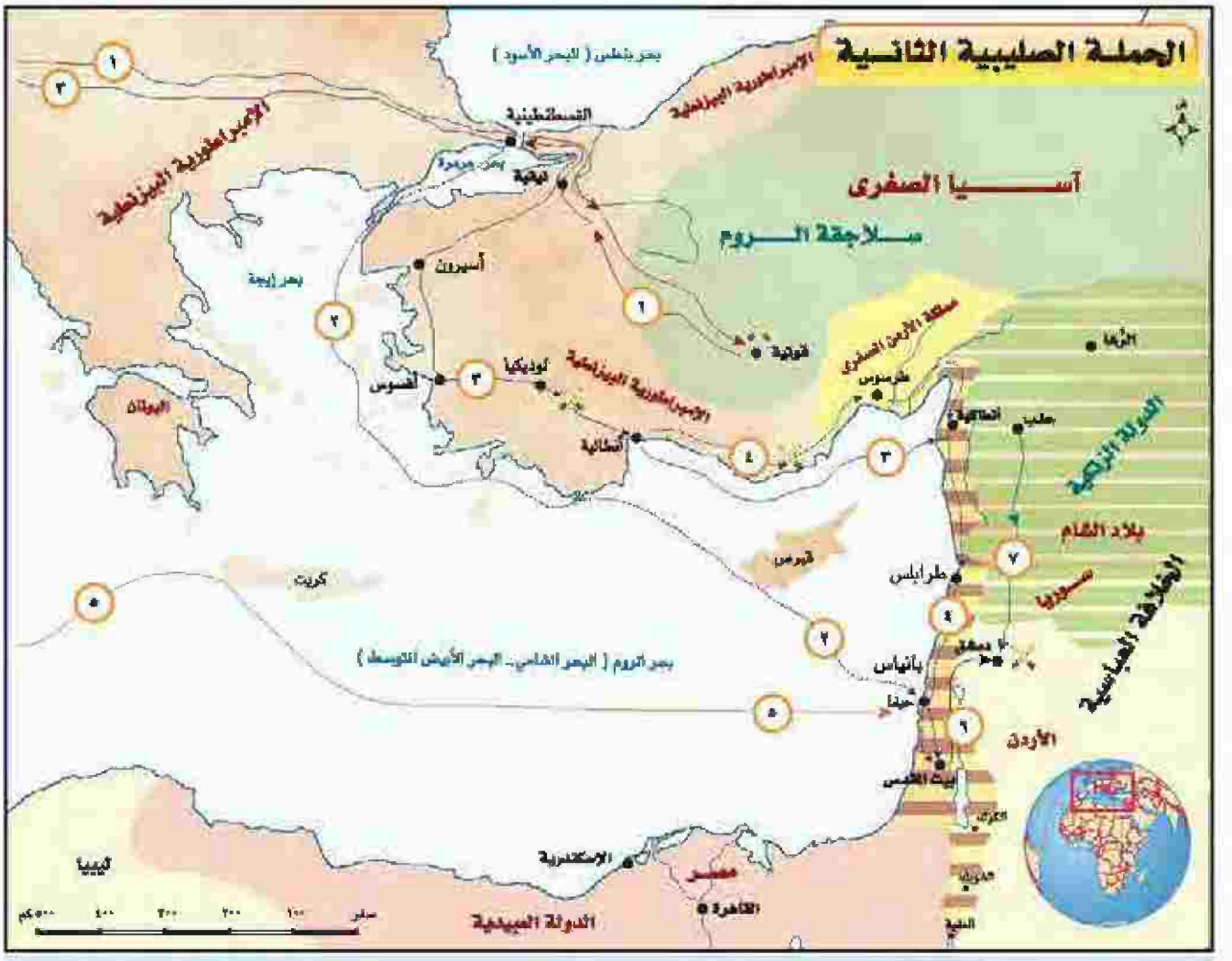

الإمبراطورية البيزنطية	١ إمبراطور ألمانيا (كونراد الثالث)
سلاجقة الروم	٢ المسار الآخر لإمبراطور ألمانيا (كونراد الثالث)
الدولة العبيدية	٣ ملك فرنسا (لويس السابع)
الإمارات الصليبية	٤ الفرع الآخر لملك فرنسا (لويس السابع)
الدولة الزنكية	٥ إمدادات بحرية صليبية أخرى
مملكة الأرمن الصغرى	٦ الجيوش الصليبية تتجه لحصار دمشق
أراضٍ إسلامية	٧ نور الدين محمود يتوجه لمساعدة حاكم دمشق
	مواقع معارك مع الصليبيين

دولة الموحدين (٥٤١ ـ ٦٦٨هـ/١١٤٦ ـ ١٢٦٩م)

الموحدون :أتباع حركة دينية سياسية، قامت على **أنقاض دولة المرابطين** وإمارات أخرى، وكانت أطول عمراً من دولة المرابطين وأكثر اتساعاً، إذ ضمّت كل الجزء الباقي كله من الشمال الإفريقي، وفي حين كانت حركة المرابطين حركة فقيه مالكي مثّلها الأعلى تطبيق الشرع وفق أحكام هذا المذهب الفقهي، كانت حركة الموحدين تجمع بين تيارات الفكر الإسلامي آنذاك. ارتبطت نشأة الحركة ونشر مبادئها الدينية والسياسية **بمحمد بن تومرت** الذي ولد في إيجليز الواقعة على منحدرات الأطلس الصغير، ونشأ في وسط قبيلة «هرغة» وما يجاورها من القبائل المصمودية التي تعمر كل الأطلس.

في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ارتحل ابن تومرت إلى الأندلس ومنها إلى مصر والشام والديار المقدسة والعراق، حيث كان يأخذ العلم ويلتقي المفكرين أينما حلّ، وفي رحلة العودة سنة ٥١٠ هـ/١١١٦م عبر مصر ثم طرابلس وبعدها تونس ثم قسنطينة ومنها إلى بجاية، وأخيراً في **ملالة** وعلى مقربة منها التقى **عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين**.

بعد مغادرة ابن تومرت ملالة برفقة عبد المؤمن تدخل رحلة عودته مرحلة جديدة، إذ ستدخل في الأراضي الخاضعة لسلطان المرابطين، وأصبح المضمون السياسي واضحاً في تصرفاته ممتزجاً بعمله آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر؛ لأنه أخذ يتعرض للحكام المرابطين والسلاطين، فطُرد من فاس بأمر من حاكمها إثر تحريض مجموعة من الفقهاء عليه، وفي مرّاكش تعرّض لكبار الموظفين المرابطين، ومن بعدهم لأفراد الأسرة الحاكمة بل للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، فأُجبر على مغادرة مراكش، فتوجه نحو جبال الأطلس ليستقر في مسقط رأسه **إيجليز**، وفي أثناء تنقله كان يجمع بعض الأتباع من المصامدة لعلّ أشهرهم أبو حفص **عمر بن يحيى الهنتاتي**، الذي كان له دور بارز في بناء دولة الموحدين، وعندما حاول أن ينتقل من ضم الأفراد إلى ضم قبائل مصمودية كاملة عن طريق إرسال المبعوثين، أدرك المرابطون خطر هذه الدعوة الدينية عليهم، فحاولوا القضاء عليه وكادوا ينجحون في ذلك، فانتقل ابن تومرت إلى قلب الأطلس الأعلى ونزل في قرية **تينمل** التي كانت غاية في المنعة والحصانة، وفي هذا الحصن نظّم دعوته التي قامت على مبادئ دينية في الأصل ولكنها ذات أهداف سياسية تهدف إلى تحطيم سلطان المرابطين [١].

---

١ - نجدة خماش، الموسوعة العربية العالمية، مج ١٩، ص ٨٤٥، دار الفكر - دمشق - سوريا .

ينتسب **بنو غانية** إلى قبيلة مسوفة الأمازيغية الطوارقية التي كانت تستوطن ما يعرف الآن بالصحراء الغربية وموريتانيا و الجزائر. أمهم غانية، وكان المرابطون كثيراً ما ينسبون أبناءهم لأمهاتهم لعادت عندهم، وكانت أسرة بني غانية من كبار الأسر في الدولة المرابطية. فهي إذن أسرة أمازيغية قادت ثورة في إفريقية من ٦ شعبان ٥٨٠هـ /١٢ نوفمبر ١١٨٤م إلى ٦٣١هـ/١٢٣٣م (نحو ٥٠ سنة) هدفت إلى إحياء دولة المرابطين والقضاء على دولة الموحدين.

حيث كان أحد أبناء أسرة بين غانية إسحاق بن غانية والياً على الجزر الشرقية باسم المرابطين (منورقة وميانسة وميورقة أو جزر البليار حالياً) فلما رأى ما حل بدولتهم استقل بالجزر، ولكنه رأى أنه من الأحسن له موادعة الموحدين للقوة الكبيرة التي أصبحت عليها هذه الدولة خاصة بعد سيطرتها على كل المغرب (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) وأجزاء كبيرة من الأندلس. لكن الموحدين ما إن أكملوا سيطرتهم على الأندلس في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حتى أرسلوا سنة ٥٧٩هـ الرسل له تباعاً يدعونه للدخول في طاعتهم ويحذرونه من منبة العصيان؛ وهنا تردد إسحاق في البت في الموضوع وخرج في غزوة إلى قطلونيا (كاتالونيا) فاستشهد في هذه الغزوة دون أن يبت الأمر. فلما تولى ابنه محمد بن أسحاق بن غانية الحكم أظهر استعداداً لقبول طاعة الموحدين، غير أن إخوته رفضوا ذلك وعزلوه وولوا عليهم أخاهم علي بن غانية.

وهكذا ترى أن **دعوة ابن تومرت**، وإن كانت قد تغلغلت في قلوب العامة والسذج من الناس، في بعض بلاد المغرب الأقصى والأندلس، فإن ما تحمله من باطل وزيف قد بدا لمن كان عنده شيء من العلم، مما دفع العقلاء من الموحدين وهم حماتها إلى العمل على إزالتها، والسعي لبيان وجه الخطأ فيها، فالمنصور ثالث أمراء الموحدين بعد ابن تومرت عمل على بيان باطلها وسعى لتقويضها ولم يمضِ على انتشارها بين الناس سوى نصف قرن، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات، لكن ما تحمله هذه الدعوة من غلو وشطط جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها - كما بينا في السطور السابقة -.

وهنا قد يرد تساؤل وهو: لماذا لم يعلن المنصور الموحدي للناس صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت ويعمل جاداً للقضاء على دعوته؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى لاسيما العامة وشيوخ الموحدين وزعماء القبائل قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت واقتنعوا بصحة ما قال به ودعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها[1].

في **بلاد السوس** أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته، حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة ومن خلال تلك الدروس بث أفكاره بين تلاميذه، وأخذ يعدهم إعداداً خاصاً، فألف لهم كتاباً سماه كتاب التوحيد بلسانهم البربري قسمه إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، وأمرهم بقراءة حزب واحد منه في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحتوي هذا الكتاب على معظم أفكار ابن تومرت والأسس العقدية لدعوته، ولهذا يذكر ابن أبي زرع أن ابن تومرت قال لتلاميذه: من لا يحفظ هذا (التوحيد) فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز.

عقيدة الموحدين

أكمل صورة لعقيدة الموحدين نجدها في كتاب «أعز ما يطلب» الذي جمع فيه عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت كل تعاليمه، وأول ما يميز هذه التعاليم كونها خليطاً متنافراً غير متجانس من الأفكار، تجتمع منه كل المذاهب والتيارات التي سار معها ابن تومرت كلياً أو جزئياً في إطار السنة، وجعل مبدأ تنزيه وحدانية الله حجر الزاوية بالنسبة إلى مبادئه حتى سُمي الذين آمنوا بدعوته بالموحدين، ولكنه خالفها بأجمعها ودفعة واحدة بقوله بعقيدة الإمامة والمهدوية على الطريقة الشيعية، وعدّ الإمامة ركناً من أركان الدين، وعدّ اعتقادها والعمل بها والتزامها ديناً، ومن مقتضيات هذا الالتزام، الهجرة إلى الإمام، كما عدّ أن الإمام لايكون إلا معصوماً من الباطل لهدم الباطل.

ظل محمد بن تومرت يعمل في تؤمل مع أصحابه على نشر عقيدته، وتنظيم المجتمع الموحدي، ومحاربة المرابطين.

السحيباني المرجع نفسه

١ - د. حمد بن صالح السحيباني، مجلة البيان، مج ١٨، ص ٦٠.

تسلسل	الحاكم الموحدي	فترته الزمنية
١	أبو عبد الله محمد بن تومرت	٥١٥-٥٢٤هـ/١١٢١-١١٢٨م
٢	عبد المؤمن بن علي	٥٢٧-٥٥٨هـ/١١٣٢-١١٦٣م
٣	أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م
٤	أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م
٥	محمد الناصر لدين الله	٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٩-١٢١٣م
٦	أبو يعقوب يوسف الثاني	٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٤م
٧	أبو محمد عبد الواحد المخلوع	٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٤م
٨	أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٧م
٩	المأمون	٦٢٤-٦٣٠هـ/١٢٢٧-١٢٣٠م
١٠	أبومحمد عبد الواحد الرشيد	٦٣٠-٦٤٠هـ/١٢٣٠-١٢٤٢م
١١	أبو الحسن علي السعيد المقتدر بالله	٦٤٠-٦٤٦هـ/١٢٤٢-١٢٤٨م
١٢	أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م
١٣	أبو العلاء أبو دبوس الواثق بالله	٦٦٥-٦٦٨هـ/١٢٦٦-١٢٦٩م

جدول بأسماء أمراء الدولة الموحدية (الموحدين)

بلغت **الدولة الموحدية** أوجها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي (١١٦٣-١١٨٤ م) ثم أبي يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤-١١٩٩ م) الذي تلقب بالمنصور وعمل على النهوض بالدولة الموحدية والأندلس علمياً وثقافياً، وكان قائداً ماهراً وسياسياً قديراً استطاع عقد الصلح مع مملكة قشتالة، ولكن نقضهم للصلح اضطره لقتالهم في **معركة الأرك** «انظر تفاصيلها في الصفحات القادمة» مع بناء العديد من المدن الجديدة وتشجيع الثقافة والحياة الفكرية (ابن رشد، ابن طفيل).

وبعد موقعة **الأرك** عقدت هدنة بين ملك قشتالة الفونسو الثامن والمسلمين، ولكن ألفونسو استغل الهدنة في تقوية بلاده ومحالفة أمراء النصارى وحين وجد نفسه مستعداً أغار على بلاد جيان وبياسة وأجزاء من مرسية، فاضطر الملك الناصر "محمد بن يعقوب" الذي خلف والده المنصور إلى الذهاب إلى الأندلس لغزو قشتالة فعبر البحر وذهب إلى أشبيلية لتنظيم جيشه، ومنها اتجه إلى قلعة "شلطيرة" إحدى قلاع مملكة قشتالة، واستولى عليها بعد حصار ٨ شهور، ولكن الملك الفونسو الثامن دعا البابا أنوسنت الثالث" بروما إلى إعلان الحرب الصليبية ضد الأندلس، وكان من نتاج ذلك أن اجتمع للإسبان ١٢٤٥٥٣ مقاتل انطلقوا ليستولوا على حصن رباح والأرك وغيرها وقام المسلمون بجمع جيش مماثل والتقى الجيشان عند حصن العقاب إلا أن الموحدين تلقوا هزيمة قاسية على يد النصرانيين في معركة حصن العقاب (١٢١٢ م) - لم تقم للمسلمين بعد هذه المعركة قائمة- «انظر تفاصيلها في الصفحات القادمة».

بعد سنة ١٢١٣ م بدأت الدولة تتهاوى بسرعة مع سقوط الأندلس في أيدي النصارى (بعد ١٢٢٨ م)، وإفريقية (تونس) في أيدي الحفصيين والمغرب الأوسط (الجزائر) في أيدي بني عبد الواد -الزيانيون- (١٢٢٩-١٢٣٦ م).

يتجلى الازدهار الفكري في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب بن يوسف اللذين كانا من المشاركين فيها، وقد هيأتهما لذلك حياتهم في ربوع الأندلس وفي إشبيلية على وجه الخصوص، ويؤثر عن الأول أنه كان أعرف الناس بكلام العرب وأحفظهم لأيامهم ومآثرهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام، وكان مبرزاً في العلوم الدينية من ناحية والفلسفية بجميع فروعها من ناحية ثانية، وقد جمع كتب هذه العلوم من كل جهة حتى توفر له منها عدد يقرب مما كان لدى الحكم المستنصر الخليفة الأموي الشهير، كما استقدم العلماء المشاهير في هذا الباب، واستصحب محمد بن الطفيل الفيلسوف الشهير الذي عمل في ميدان الجمع بين الحكمة والشريعة، ولم يقتصر دور ابن الطفيل على مصاحبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، بل كان يدل على العلماء من جميع الأقطار، فكان الوساطة لجلب أبي الوليد محمد بن رشد الذي اتصل منذ ذلك الوقت ببلاط الموحدين، وقام بترجمة كتب أرسطو الفلسفية إلى العربية بعنوان «كتاب الجوامع»، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها بناء على طلب الخليفة.

١ - **المرحلة الأولى:** الاستيلاء على تلمسان ووهران في المغرب الأوسط، وقد تمت هذه المرحلة **سنة ٥٣٩هـ** - ١١٤٤م.

٢ - **المرحلة الثانية:** الاستيلاء على بلاد المغرب الأقصى بما في ذلك مراكش وفاس وبقية المغرب إلى الزقاق وهو مضيق جبل طارق وقد تمت سنة **٥٤٢هـ**.

٣ - **المرحلة الثالثة:** فتح بقية المغرب الأوسط وقد تمت بدخول الموحدين مدينة الجزائر سنة **٥٤٨هـ** - ١١٥٣م.

٤ - **المرحلة الرابعة:** بسط فيها الموحدون سلطانهم على إفريقية بما في ذلك شرق إقليم طرابلس ليبيا وقاموا باستعادة المهدية وجزيرة جربة تونس وبقية سواحل إفريقية من النورمان، وقد تمت سنة **٥٥٥هـ** - ١١٦٠م التي تسمى **سنة الأخماس**، وبذلك يكون الموحدون أول من وحد بلاد المغرب (المغرب العربي) كله عدا برقة وما يليها شرقاً إلى حدود مصر.

الصليبيون على أبواب دمشق

في سنة (٥٤٢هـ = ١١٤٧م) وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى دمشق لكنها فشلت في تحقيق أهدافها، وعجزت عن احتلالها ويرجع الفضل لله سبحانه، ثم لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، إضافة للقوات المساعدة التي جاءت مع سيف الدين غازي من الموصل لتشكل مع أخيه نور الدين محمود سداً منيعاً أفشل خطة الصليبيين وحملتهم.

قوات نور الدين محمود لمساندة حاكم دمشق ضد الصليبيين.

قوات سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي وهي قادمة من الموصل لمساندة جيش أخيه نور الدين محمود في أثناء حصار دمشق.

قادة الحملة الثانية: ملك فرنسا "لويس السابع"، وإمبراطور ألمانيا "كونراد الثالث"، والملك "بلدوين الثالث" ملك بيت المقدس، يتوجهون لحصار دمشق.

تابع "لويس السابع" سيره إلى "بيت المقدس"، وهناك استقبل استقبالاً حافلاً، ولكن للمرة الثانية انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن أهدافها، عندما تم عقد مجلس صليبي كبير، ضم "لويس السابع" و"كونراد الثالث"، الذي سبقه إلى "بيت المقدس"، والملك "بلدوين الثالث"، وأمراء مملكة "بيت المقدس"، وعدداً كبيراً من كبار رجال الدين والأمراء الصليبيين، حيث اتفق الجميع على مهاجمة "معين الدين أنر" حاكم "دمشق" الفعلي، **الذي كان حليفاً للصليبيين، ولكن نور الدين زنكي حاكم حلب؛** تناسى غدر حاكم دمشق به ووقف بجانبه. وبالفعل، جهز الصليبيون جيشاً لهذه الغاية وزحفوا إلى دمشق (ربيع الأول ٥٤٢ هـ= حزيران ١١٤٨م) فحاصروها، ولكن أهالي دمشق تصدوا لهم بقوة بمشاركة الزهاد والفقهاء في القتال، الذين كان لهم دور كبير في إذكاء شعلة الصمود والتصدي، وبدأت قوات "معين الدين أنر" تتزايد، وتدفقت النجدات إلى "دمشق" من الأبواب الشمالية، وهو ما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع.

والذي زاد من حراجة الموقف الصليبي هو تلك الشقاقات والخلافات التي وقعت بينهم حول تبعية "دمشق" ومصيرها، وأحقية كل فريق منهم في ضمها إليه في حالة سقوطها والاستيلاء عليها.

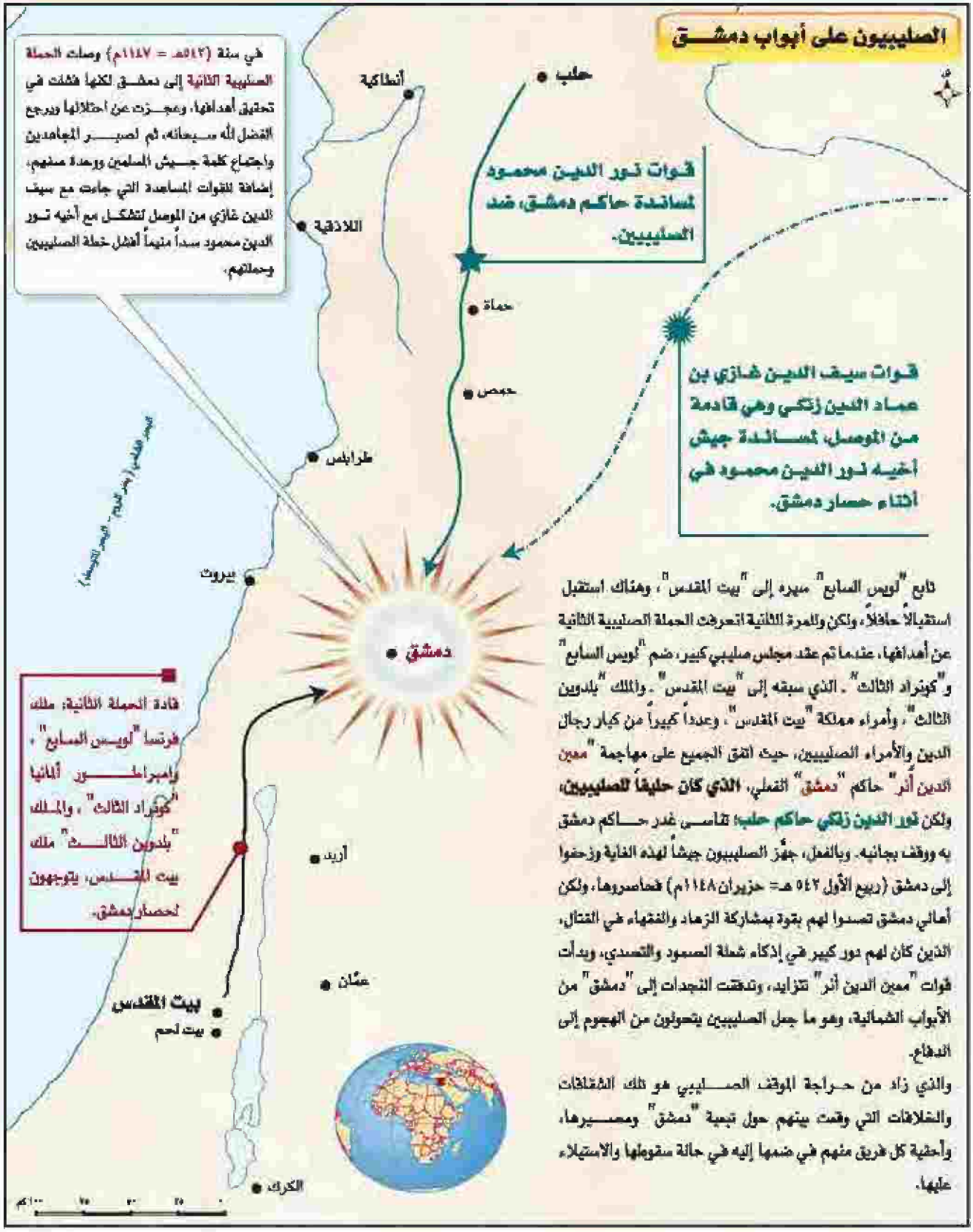

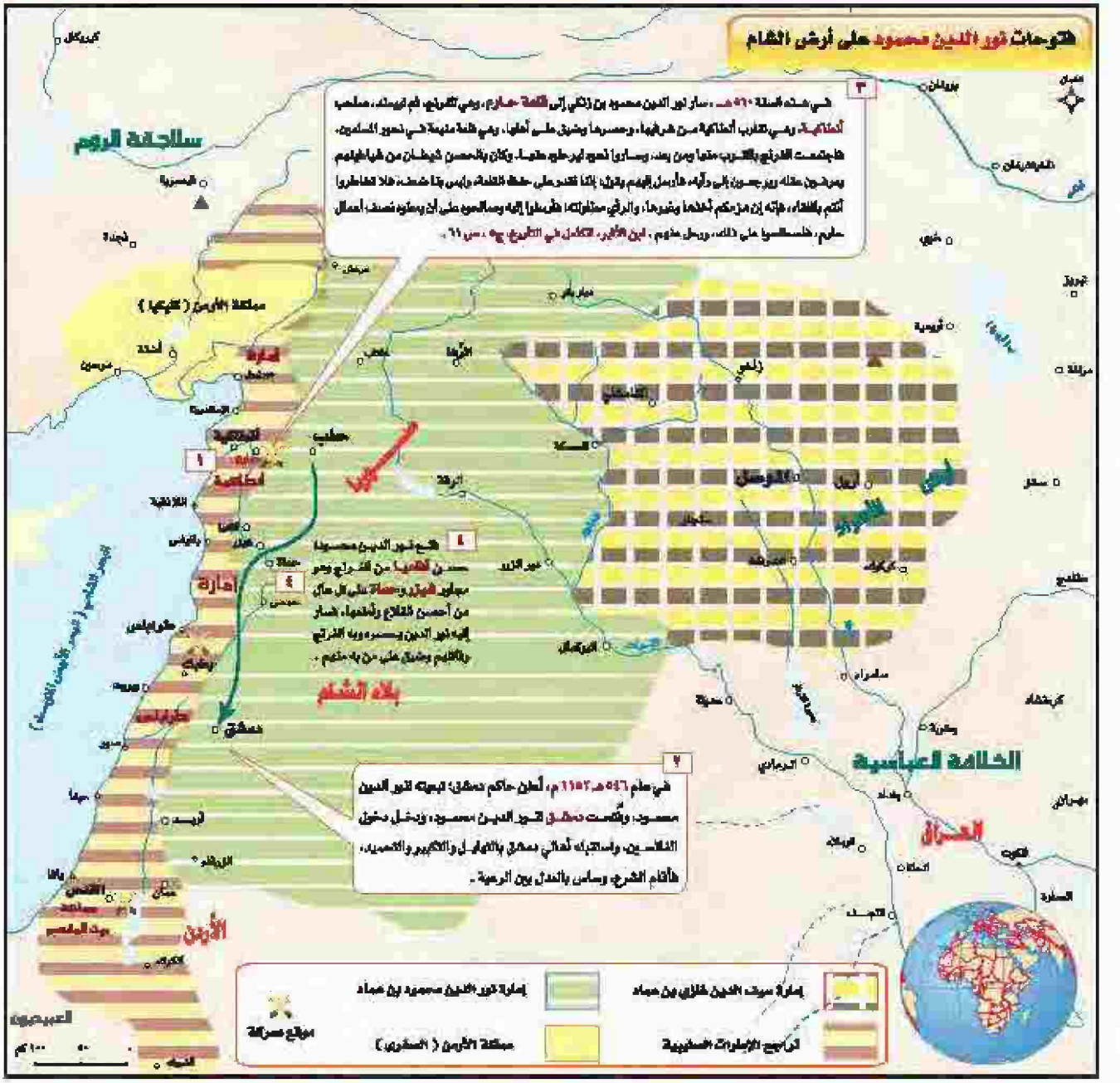

١ استغل نور الدين هذه النكبة (الفشل في حصار دمشق)، والتي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم للهجوم على أنطاكية بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ=١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فتيقن "ريموند دي بواتيه" صاحب أنطاكية لتجدها، والتقى الفريقان في (٢١ من صفر ٥٤٤هـ= آخر يونيو ١١٤٩م)، ونجح المسلمون في تحقيق النصر وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكية وغيره من قادة الفرنج ومن قال فيه القيسراني في قصيدته المشهورة التي أولها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب
سافرت يا ابن عماد الدين ذروتها ... براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدك بيني كل شاهقة ... حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج رابطة ... ظؤار رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة ... أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جنب

الصراع على ضم مصر بين نور الدين والصليبيين

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين محمود - رحمه الله -، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء، طمع الصليبيون في غزو مصر فهاجموها المرة، تلو المرة وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر ما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها، فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده "ضرغام" ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً في ضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي في إطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام ٥٤٩هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر.

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم. فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام[1].

مسألة في العبيديين؟

يقول ابن تيمية - موضحاً رأي أهل السنة في ملوك الدولتين الأموية والعباسية -: "ما قال أهل السنة أن الواحد من هؤلاء كان هو الذي تجب توليته وطاعته في كل ما أمر به، بل كذا وقع، فيقولون تولى هؤلاء وكان لهم سلطان وقدرة؛ فانتظم لهم الأمر، وأقاموا مقاصد الإمامة من الجهاد وإقامة الحج والجُمَع والأعياد وأمن السبل ولكن لا طاعة في معصية الله" وعندما طعن العلماء في نسب العُبيديين الذين كانوا بمصر والذين تسموا (الفاطميين). وقالوا: ليس لهم أي صلة بنسب علي ابن أبي طالب، وأنهم مجوس ملحدون، فهذا الطعن له أهمية كبيرة، ويساعدنا على فهم تصرفات هذه الدولة. فهؤلاء العلماء من أمثال أبي حامد الإسفراييني وأبو الحسن القدوري والبيضاوي وابن الأكفاني وغيرهم لا يمكن أن يشهدوا هذه الشهادة تقرباً وتملقاً للخليفة العباسي ببغداد، كما يريد أن يصورهم البعض، وهؤلاء أجلّ من أن يشهدوا زوراً من أجل الخليفة. مجلة البيان، ع ٤، ص ٩٠.

---

١ - بتصرف من د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص ١٣

أطلس تاريخ الدولة العباسية

ما بين سنة الهدنة الصليبي بين، كان الحكم بيد الوزراء الذين تحت إمرتهم، ورئيسهم الخليفة العباسي المعروف بالوزراء الأكبر (هارون جنرالهم) العادل بن رزيك، قام بالأمور، بالعدل العادل، الخليفة الإمام جيش مصر، فقهر الكثير من مصر إلى الشام. أيضاً شاور إلى القائد نور الدين محمود لمساعدته للإنقاذ مصر، وأخذ يدري نور الدين بدخول مصر بعدها الدولة الفاطمية للصليبيين التي يريدي تضييق الخناق عليهم منها. أحد جانب نور الدين تدافع لمصر القوات الصليبيين، ويعد (شاور) نور الدين بإرساله بالجيش والمال إذا ساعده لإعادة حكمه في مصر، فرجه نور الدين قائد جيشه (أسد الدين شيركوه) ويصحبه ابن أخيه الكتاب الناصح يوسف صلاح الدين الأيوبي، ابتدأت من سنة (١٥٩ هـ = ١١٦٤ م) وانتصرت لصوغيس ستوك وهذات عدة مرات بسبب خيانة صاحب مصر وتحالفه مع الصليبين والتمساد الداخلي، حتى تمكن الزنكيون من دخول مصر مرة ثالثة وقتل شاور الخائن وتعيين شيركوه وزيراً عليها.

الدولة الغورية (٥٥٠-٦١٢هـ، ١١٥٥ - ١٢١٥م)

قامت الدولة الغورية في بلاد **الغور** في أفغانستان الحالية، بين هراة وغزنة. أقام الغور دولة مستقلة في هذه المنطقة تتخذ من **فيروزكوه** عاصمة لها. غزاهم السلطان الغزنوي محمود سبكتكين سنة ٤٠١هـ، ١٠١٠م، وأدخلهم في الإسلام، مع الإبقاء على الحكم في أيديهم. وعلا شأن أمرائهم في ظل السيادة الغزنوية، ولكنهم أخذوا يتحينون الفرص للاستقلال عن غزنة. وكانت المحاولة الأولى على يد أميرهم محمد بن الحسين الذي انتهز فرصة انشغال الغزنويين بدفع خطر السلاجقة، فسار إلى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ، ١١٤٨م، لكن السلطان الغزنوي بهرام شاه أحبط محاولته وهزمه وقتله. استنكر الغور قتل سلطانهم، فتكتلوا وراء أميرهم الجديد سوري بن الحسين وتمكنوا من الانتقام والاستيلاء على **غزنة**.

لجأ بهرام شاه إلى الهند الغزنوية، وحشد قوات تمكن بها من استرداد غزنة وقتل سوري بن الحسين. وتمكن خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين من الاستيلاء على غزنة للمرة الثانية، واستردها منه بهرام للمرة الثانية، وعندما حاول الغور الاستيلاء عليها للمرة الثالثة تركها لهم خسرو شاه بن بهرام وخليفته، واستقر **في لاهور**. فدخل الغور غزنة سنة ٥٥٠هـ، ١١٥٥م.

قويت دولة الغور في عهد أميرها علاء الدين وتطلع إلى توسيع رقعة دولته، فسار إلى خراسان وخربها، وضم إليه بلخ. وتصدى للسلاجقة وهزموه وأخرجوه من خراسان وبلخ. طمع الغور في غزنة بعد وفاة علاء الدين عام ٥٥٦هـ، ١١٦٠م، فاستولوا عليها، واستردها منهم **غياث الدين محمد**، خليفة علاء الدين وابن أخيه. وعقد العزم على القضاء التام على آل سبكتكين حتى يضمن لدولته الاستقرار. فاستولى على بلدان الغزنويين غير الهندية. واستولى أخوه شهاب الدين على ممتلكات الغزنويين بالهند، ودخل لاهور، وقبض على السلطان الغزنوي خسرو شاه، وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها. **واعترفت الخلافة العباسية بالدولة الغورية**. وتوسع الغور على حساب السلاجقة، فضموا إليهم هراة وبوشمنج وبادغيس وبعض البلدان المجاورة لها في إقليم خراسان. واستولى الغور على بلاد السند والبنجاب، وحكمها شهاب الدين الغوري نيابة عن أخيه السلطان غياث الدين، واتخذ **لاهور** مركزاً وسعى للتوسع في بلاد الهند.

خشي الأمراء الراجبوتيون - حكام شمالي الهند - من خطر الغور فحشدوا قواتهم لطردهم من الهند، وتمكنوا في المعركة الأولى من هزيمة الغور، ولكن تمكن الغور من هزيمتهم في العام التالي واستولوا منهم على شمالي الهند، وضموا **دلهي** لملكهم. وحاول الراجبوتيون استرداد ملكهم، ولكنهم فشلوا. وضم الغور إليهم المزيد من بلاد شمالي الهند، واستولوا على **جاولار وتهروالـه وكالنجار**، وبذلك سيطروا على أراضي شمالي الهند كلها. واستولوا على إقليم بهار وإقليم البنغال.

هذه المسكوكة ضربت سنة ٥٩٨ هـ في عهد الدولة الغورية أيام الحاكم محمد بن سام في أفغانستان ما بين مدينة بمور أو هراة بمناسبة الانتصارات التي حققها السلطان غياث الدين على الدولة الخوارزمية عام ٥٩٧ هـ ، حيث أراد أن يشعر الناس بعلاوة النصر فضربها وعليها شعاره (الله أعلى) وهو شعار النصر .

الدولة الغورية ٥٥٠ - ٦١٢هـ، ١١٥٥ - ١٢١٥م

بدأت متاعب الغور في بلاد الهند في مستهل القرن السابع الهجري، وذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على دولة الغور منتهزة فرصة انشغالها بالحروب في إيران. ومن أبرز الانتفاضات ثورة الكهكوية الذين قطعوا الطريق بين غزنة ولاهور، واستفحل أمرهم، فاضطر السلطان الغوري إلى أن يسير إليهم بنفسه ويهزمهم هزيمة نكراء.

سار غياث الدين وشهاب الدين سيرة حسنة في دولتهما، على أن دولتهما اضطربت بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد. فقد تنافس الأمراء على عرش السلطنة وحدثت حروب أنهكت قوى الدولة الغورية، وتسببت في زوالها.

انتهز **الخوارزميون** ضعف الدولة فانتزعوا منها بلاد خراسان، ثم انتزعوا ممتلكات الغور في أفغانستان، وساروا إلى فيروزكوه عاصمة الغور. وتمكنوا من قتل السلطان الغوري غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد سنة ٦٠٥هـ، واستولوا بعد هذا على غزنة عام ٦١٢هـ، ١٢١٥م، وأزالوا آخر معاقل الدولة الغورية[1].

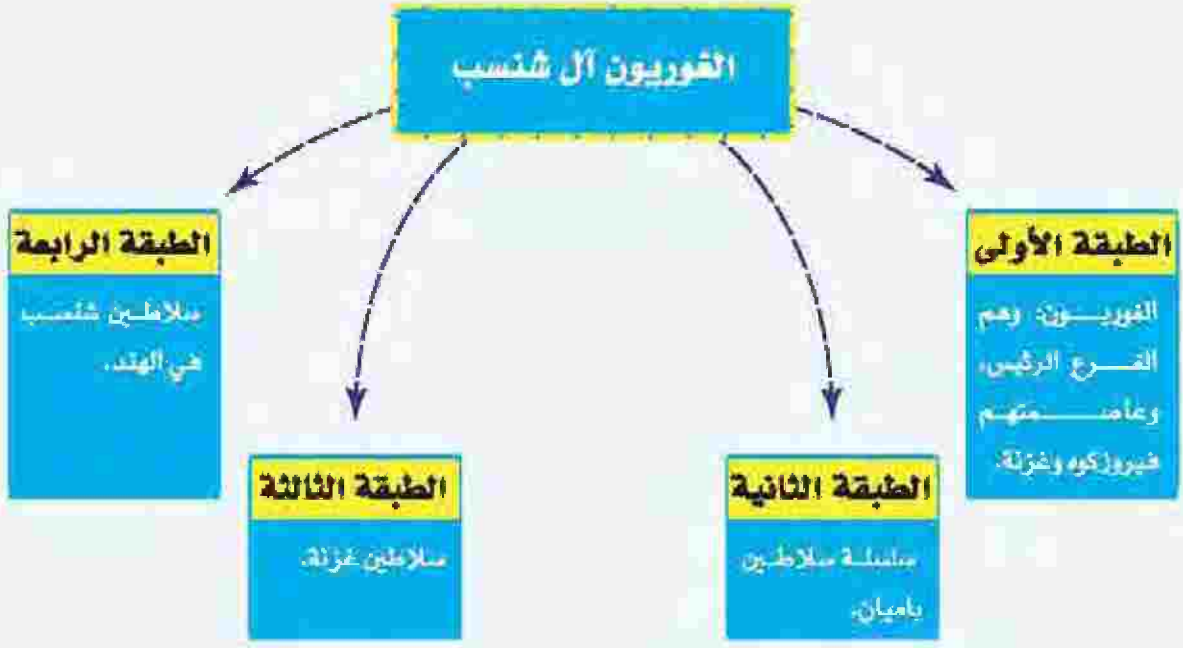

١ - الموسوعة العربية الشاملة

الغوريون: دخلت قبيلة الشنسباني التي تنحدر من الجبال الواقعة وسط أفغانستان في الإسلام في القرن الـ ١١ م. وضعت القبيلة نفسها ومنذ ١٠١٠ م في خدمة الغزنويين. منذ ١٠٩٩ م، وأصبح الشنسباني ولاة على غزنة من قبل الغزنويين. ثم أسسوا إمارة في فيروز رخ منذ ١١٤٦ م. مع تولي علاء الدين حسين (١١٤٩-١١٦١ م) استولوا على غزنة سنة ١١٥٠ م. ثم سيطروا وحتى ١١٦١ م على كل المناطق التي كانت تحت حكم الغزنويين.

منذ سنة ١١٧٨م بدؤوا حملاتهم على الهند، بشاور والساحل حتى السند (١١٨٢ م)، ثم استولوا على لاهور سنة ١١٨٦ م وقضوا على الغزنويين نهائياً. حكم فرعين للأسرة:

أحدهما في فيروز رخ تحت سلطة غياث الدين (١١٦٣-١٢٠٣ م).

والآخر في غزنة تحت سلطة أخيه معز الدين (١١٧٣-١٢٠٦ م) والذي كان في لاهور منذ ١١٨٦ م. استولى الغوريون على دهلي (دلهي) سنة ١١٩٣ م. وسعوا مملكتهم حتى غوجرات جنوباً والبنغال شرقاً (١٢٠٢). كان مقتل معز الدين بداية النهاية للدولة الغورية. سقطت أفغانستان (١٢١٢ م) في أيدي الخوارزم شاهات والهند (١٢٠٦ م) في أيدي القائد التركي أيبك، الذي أسس دولة المماليك في الهند (سلطنة دلهي).

مصر تحت حكم الدولة الزنكية

كان **نور الدين محمود** يرى إزالة **الدولة العبيدية** هدفاً إستراتيجياً للقضاء على **الوجود الصليبي**، و**النفوذ الباطني** في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة **مصر لعقيدة أهل السنة والجماعة**؛ فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة فتم الله له ما أراد على أيدي جنديه المخلصين (أسد الدين شيركوه) وابن أخيه الفتى اليافع والقائد الصالح يوسف صلاح الدين الأيوبي، والأخير طبق سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة هذه الدولة الباطنية. فلما انتهى الخبر إلى **الملك العادل نور الدين** بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد يعلمه الخبر مع ابن أبي عصرون فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب العبيديون (الفاطميُّون زوراً) عليها أيام المعزّ العبيدي، بأني القاهرة إلى هذه الأوان، وذلك مائتا سنة وثماني سنين، وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني في قصيدته المشهورة :

تـــوفي العاضـــد الـــدعي ثمـــا ** يفـــتح ذو بدعـــة بمـــصر فمـــا
وحـــصر قرحوفـــا القـــضي وغـــدا ** يوســـفها في الأمـــور محتكمـــا
قـــد طفئـــت جمـــرة الغـــواة وقـــد ** داح من الـــشرك كـــل مـــا اضـــطرما
وصـــار ثغـــرُ الـــصلاح ملتثمـــاً ** فمـــا وعقـــد الـــسداد منتظمـــاً
لمـــا غـــدا مـــشعراً شـــعار بـــني ** العبـــاس حقـــا والباطـــل اكتتمـــا
وبـــات داعـــي التوحيـــد منتظـــراً ** ومـــن دعـــاة الإشـــراك منتقمـــاً
وظـــل أهـــل الـــضلال في ظلـــل ** داجيـــة مـــن غيابـــه وعمـــى
وارتـــاك الجـــاهلون في طلـــل ** لمـــا أضـــاءت منـــار العُلمـــاء
وعـــاد بالمستـــضيء ممتهـــداً ** بنـــاء حـــقٍّ قـــد كـــان منهـــدما
واعتلـــت الدولـــة الـــتي اضـــطهدت ** وانتـــصر الـــدين بعـــدما اهتـــضما
واهتزَّ عطـــف الإســـلام مـــن خجـــلٍ ** واقـــشرَّ ثغـــر الإيمـــان وابتـــسما
وابتـــشرت أوجـــه الهُـــدى فرحـــاً ** للنـــزع الكُفـــر بـــتَّة لـــدما
عـــاد حـــريمُ الأعـــداد منتهـــكاً ** لعـــبي ولؤي الطغـــاة مقتـــسماً
قـــصور أهـــل القـــصور أخربهـــا ** عـــامر بيـــت مـــن الكمـــال بنـــا
أزعـــج بعـــد الـــسكون ســـاكنها ** ومـــات ذُلاً وأنفـــه رَغمـــا [1]

---

١ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/١٩٥).

البيمارستان النوري في جنوب شرقي جامع البهرمية، بناه نور الدين زنكي في منتصف القرن ١٢م أيام الطبيب ابن بطلان وهو أقدم الأبنية الإسلامية في حلب

القائد يوسف صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ هـ - ٥٨٩هـ) وقيام الدولة الأيوبية

ذكر المؤرخون: أن أسد الدين شيركوه؛ لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ابن أخيه فبذل الأموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، استعداداً لمواجهات مستمرة مع الصليبيين المعتدين من جهة، ومع بدع الدولة العبيدية من جهة أخرى.

ففي الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، قامت الدولة الأيوبية في خضم الأحداث المضطربة، وأخذت على عاتقها مهمة قيادة العالم الإسلامي ومكافحة القوى الأجنبية الغازية؛ فكان على الصليبيين أن يواجهوا السياسة التي رسمها الأيوبيون والقائمة على أساس الجهاد ومكافحة الصليبيين. فبعد وفاة نور الدين زنكي، استطاع صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩-٥٨٩ هـ/ ١١٧٣-١١٩٣ م) أن يرسخ جذور دولته ويوسع حدودها لتشمل مصر ومعظم بلاد الشام والجزيرة واليمن والموصل. وبذلك أصبحت ممتلكات الأيوبيين تغطي مساحة شاسعة من العالم العربي آنذاك، ويرجع الفضل الأعظم في تأسيس الدولة الأيوبية بمصر واستمرارها زهاء ثمانين عاماً إلى شخصية السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب القوية وحنكته السياسية، وقدراته العسكرية العالية، وجهاده المتواصل ضد قوى الصليبيين المغتصبين لديار المسلمين، وعن طريق توحيده للجبهة الإسلامية، وجمعه لشمل المسلمين في مصر والشام والجزيرة، والحجاز واليمن، وتأليف كلمتهم، وحسم مادة الفتن بينهم تجنباً لتمزقهم فبذلك ورث صلاح الدين راية الجهاد التي رفعها شرف الدولة مودود، وعماد الدين زنكي، وورث الروح التي سادت في البلاد الإسلامية لدعم الجهاد في سبيل الله لتحرير بيت المقدس ، كما ورث جزءاً كبيراً من الجيش الذي أعد للجهاد وأضاف عليه جيش مصر، وجيش المغرب الذي انتدبه سلطانه للمشاركة في تحرير بيت المقدس وفلسطين، هذا إلى جانب الجيوش الإسلامية الأخرى.

نسب ومولد صلاح الدين الأيوبي

هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر صلاح الدين. اتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من (دوين)، وهي بلدة في آخر أذربيجان وأنهم أكراد روادية، والروادية بطن من الهذبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد.

يقول أحمد بن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها (أجدانقان) وجميع أهلها أكراد روادية وكان شاذي- جد صلاح الدين- قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد.

ولد صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها والظاهر أنهم ما أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة، ولكنهم خرجوا من تكريت في بقية سنة ٥٣٢هـ التي ولد فيها صلاح الدين أو في سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين زنكي بالموصل ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين.

فتوحات صلاح الدين الأيوبي
الصغرى
الروم
آسيا
سلاجقة
أذربيجان
بلاد الأكراد
إسماعيلية
الدولة التركية
الخلافة العباسية
إيران
مصر
الصعيد
النوبة
السودان
الحجاز
جزيرة العرب
اليمن
نجد
الصحراء الربع الخالي (صعيد وبدو)
كان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان بدمشق عند وفاة أبيه ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، واختلفت الأحوال بالشام وكاتب قطب الدين ابن أخيه صلاح الدين فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها، وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح فملكها في سنة ٥٧٠هـ وتسلم قلعتها وكان أول دخوله دار أبيه، وهي الدار المعروفة بالشريف العقيلي، واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً وأظهر السرور بالدخلتين
١ في سنة ٥٦٩هـ بعث صلاح الدين جيشاً أمّره توران شاه على رأس قوة لمنازلة أحد الأمراء في اليمن الذي استولى عليها وملك حصونها ويسمى عبد النبي بن مهدي فقتله وأخذ البلاد منه.
٢ بلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز يجمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية وكان بعض أهل مصر يؤثرون عودهم فتقدموا إلى الكنز، فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وصل مقدمه أمام الملك العادل وسيروا هاتفوا وهزموهم وقتلوه في شعبان من سنة ٥٧٠هـ.
٣ كان صلاح الدين جاداً في لم شمل الأمة الإسلامية تحت لواء واحد؛ فبعد وفاة نور الدين محمود، كان ابنه الملك الصالح إسماعيل لا يزال طفلاً، وغير مؤهل لقيادة دفة الحكم، الأمر الذي جعل صلاح الدين يتقدم نحو دمشق لضمها تحت سيطرته، وهذا ما حدث في سنة ٥٧٠ هـ، ثم أكمل صلاح الدين سيره فاستولى على حمص وحماة، بعد معارك ضد متاوليه ثم تمكن من دخول حلب سنة ٥٧١ هـ وضمها لحكمه.
حدود الدولة الزنكية
حدود الإمبراطورية البيزنطية
حدود المملكة الأرمنية
حدود المستعمرات الصليبية في المشرق
ممالك نصرانية بجورجيا
العالم الإسلامي آنذاك
ممالك إسماعيلية
ممالك نصرانية أخرى
معركة

الأيوبيون في اليمن ٥٦٩ -٦٢٦هـ، ١١٧٣-١٢٢٩ م

تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي من إنشاء ملك خالص له في مصر ابتداء من عام ٥٦٧هـ على أنقاض العبيديين، ومد سلطانه إلى الشام ليرث مملكة نور الدين زنكي، ومع ذلك أبقى صلاح الدين على ولائه **للخلافة العباسية في بغداد**، التي أعانته في إضفاء شرعية على طموحه في توسيع مملكته، وكان على صلاح الدين الذي أخذ يحل في مصر قواعد المذهب السني الشافعي محل المذهب العبيدي الشيعي الإسماعيلي، أن يتابع جهاده ضد الصليبيين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في الشام ومصر مع نهاية الحكم العبيدي، وكان طموح صلاح الدين في تأسيس مملكة واسعة له قد أقنعه **بضرورة إرسال حملة إلى اليمن لضمها إلى مصر والشام في مجابهته للصليبيين، خاصة أن** اليمن كانت تابعة للدولة العبيدية المنهارة، وإلى جانب الطموح السياسي لصلاح الدين في ضم اليمن إلى ملكه، رويت أخبار عن رسائل من بعض أهل اليمن تشكوا ولاتها وتطالب الدولة الأيوبية في مصر بالقدوم إلى اليمن، فأرسل **صلاح الدين الأيوبي** أخاه **توران شاه** إلى اليمن عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م ، وكانت اليمن منقسمة على نفسها بين دول وقبائل تتصارع على السيادة والنفوذ، فأخذ الأيوبيون بسهولة أحياناً وببعض الصعوبات أخرى يقضون على تلك الدول دولة فدولة، فبدأوا بدولة **بني مهدي في زبيد**، ثم تحولوا للقضاء على دولة **بني زريع في عدن وتعز ومخلاف جعفر إب**، ثم تطلعوا للقضاء على سلطة **بني حاتم في صنعاء**، وفي الطريق جابهتهم قوات قبلية انتهت إلى صلح بدفع إتاوة مجزية للأيوبيين، وكان السلطان علي بن حاتم قد خرج من صنعاء فاراً من الأيوبيين ووجه لهم في الوقت نفسه من يتفاوض معهم على صلح وافقوا عليه، وفيه دفع لأموال وأحصنة، وبهذا تكون دولة بني حاتم وإن احتفظت بسلطانها قد خضعت هي الأخرى لنفوذ الأيوبيين، ثم اتجه القائد الأيوبي إلى زبيد ومنها إلى تعز ثانية ومنه إلى مخلاف الحجرية حيث استولى على حصونها باستثناء حصن الدملوة، حيث قاوم نائب الزريعين هناك أبو الدر جوهر المعظمي ، ثم اختط توران شاه مكان قرية ذي عدينة مدينة تعز كمقر لحكمه بعد نصيحة أطبائه له بأنها طيبة الهواء والمكان الذي يصلح لإقامته، ومع ذلك فإن رسائله وشعره لأخيه صلاح الدين أظهرت شوقه لمصر وبلاد الشام التي افتقدها، وافتقد خيرات لم يجدها في اليمن التي لم تغن عن مصر والشام شيئاً رغم كثرة أموالها وسعة ملكها كما وصفها السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه.

وبقي تاريخ الأيوبيين في اليمن الذي زاد قليلاً عن **نصف القرن** قد توزع بين منافسات ولاة الأيوبيين وحرب الخارجين عليهم من آل حاتم وإمام الزيدية العالم الغزير عبد الله بن حمزة الذي ظهر في الجوف وصعدة عام ٥٨٣ للهجرة محاولاً استغلال ضعف آل حاتم ليستولي على صنعاء وليرسي ثانية نفوذاً للعلويين في اليمن، وهو ما كان الإمام أحمد بن سليمان قد حاوله وهو يشهد تصدع الدولة الصليحية عقب

أصبحت عكّا بعد أن استردها الصليبيون؛ أهم مركز لدولة الفرنجة (الصليبية) في الشرق، وحلت محل بيت المقدس في الزعامة على المدن الصليبية الأخرى. وأصبح مسماها الجديد مملكة بيت المقدس؛ لتبقى حية في قلوب الغزاة!

وفاة الملكة الصليحية السيدة بنت أحمد، لكن وصول الأيوبيين إلى اليمن أعاقت طموحات الإمام أحمد بن سليمان واضطر لمصالحتهم والاعتراف بنفوذهم في جهاته، ثم دخل الإمام عبد الله بن حمزة في حروب مع زعماء الدولة الأيوبية في اليمن كانت الغلبة فيها لجيوش الأيوبيين، ولعل أحد أسباب الهزيمة هذه يكمن في أن الإمام ابن حمزة كان قد بذل جهوداً حربية وفكرية جبارة للقضاء على فرقة المطرفية المنشقة على المذهب الزيدي وتمكن من إفنائهم فكراً وجسداً.

وكان آخر الولاة الأيوبيين في اليمن السلطان المسعود الأيوبي الذي تمكن من فرض هيبة الأيوبيين على مختلف القوى والمنافسين في اليمن ، وقد عاد إلى مصر عام ٦٢٠هـ لزيارة والده السلطان الأيوبي الكامل مخلفاً الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً له في اليمن، استمرت غيبة السلطان المسعودي في مصر أربع سنوات تمكن خلالها نائبه في اليمن وأخوته من السيطرة على الأمور في اليمن وتحقيق انتصارات مهمة على المنافسين من أبناء الإمام عبد الله بن حمزة، وغيرهم من رؤساء القبائل الطامحين، فعلت بذلك مكانتهم وعظمت قوتهم، وخشي من تطلعهم إلى الاستقلال عن الأيوبيين فعاد السلطان الأيوبي المسعود إلى اليمن مكرهاً من قبل أبيه السلطان الكامل كما تذكر المصادر، إذ ما لبث أن عبر عن فرحته حين استدعاه أبوه السلطان الكامل ليتسلم ولاية الشام، فغادر اليمن سنة ٦٢٦ للهجرة مخلفاً عليها صديقه **نور الدين عمر بن علي بن رسول**، وأوصاه بأن يستأثر لنفسه بالملك بعد موته، وألا يسمح لأحد من بني أيوب بدخول اليمن ولو كان أبوه السلطان نفسه مطلوباً في كتاب، وقد مات السلطان مسعود في مكة وهو في طريقه إلى الشام، وهكذا مهد السبيل **لظهور الدولة الرسولية** في اليمن على يد مؤسسها نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي تلقب بعدئذ بالمنصور.

تسلسل	الحاكم الأيوبي	فترته الزمنية
١	المعظم شمس الدين توران شاه بن أيوب	١١٧٤-١١٧٥ م
٢	العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب	١١٨٤-١١٩٤ م
٣	معز الدين إسماعيل بن طغتكين	١١٩٤-١٢٠٤ م
٤	الناصر أيوب بن طغتكين	١٢٠٣-١٢١٥ م
٥	المظفر سليمان بن طغتكين	١٢١٥-١٢١٦ م
٦	المسعود صلاح الدين يوسف بن طغتكين	١٢١٦-١٢٢٩ م

الحكام الأيوبيون في اليمن

ظهور عبد الله بن حمزة في الجوف اليماني وسمدة عام ٥٨٣ للهجرة مستغلاً استغلال ضعف آل حاتم ليستولي على صنعاء وليرسي ثانية نفوذاً العلويين في اليمن.
اليمن تحت حكم الأيوبيين
نجران
صعدة
الجوف
عثر
المخلاف السليماني
حرض
حوث
عبس
٣ القضاء على سلطة بني حاتم في صنعاء.
قمران
الزيدية
صنعاء
مأرب
اليمن
١ بدأ الأيوبيون بالتخلص من دولة بني مهدي في زبيد.
الحديدة
البحر الأحمر (الجزء الجنوبي)
بيحان
رداع
حبان
زبيد
زبر
إب
مخلاف جعفر
البيضاء
حضرموت
حيش الكبرى
تعز (مدينة)
٢ القضاء على دولة بني زريع في عدن وتعز ومخلاف جعفر إب.
اختط تورانشاه مكان قرية ذي عدينة مدينة تعز كمقر لحكمه.
المخا
عصب
ج. قاطبة
التربة
عدن
مضيق باب المندب
أرض الحبشة
خليج عدن
بحر العرب
٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥ كم

صلاح الدين الأيوبي وصاحب حصن الكرك (أرناط)

عملة صليبية تنسب إلى أرناط (صاحب الكرك)

بعد أن أصبح الجيشان الشامي والمصري تحت قيادة واحدة، رأى **صلاح الدين** تأديب صاحب الكرك؛ ففي سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. قام أحد القادة الصليبيين يدعى رينو الشاتيوني (Renaud de Chatillon)، صاحب حصن الكرك (جنوب شرقي الأردن)، والمعروف في المصادر الإسلامية باسم **أرناط**، بتجهيز مراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال، ومضى بها نحو **عيذاب**، فقطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب والأسر، ثم توجهوا إلى أرض **رابغ بالحجاز** وتعذر على الناس وجه الاحتراز فعظم البلاء... وأشرف أهل **المدينة النبوية** منهم على خطر. ويرى ابن جبير: أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإخراجه من قبره الشريف. فلما وصل الخبر إلى **مصر**، أمر الملك العادل (شقيق صلاح الدين ونائبه بمصر) الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فعمر المراكب بالرجال البحرية ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، مع أنجاد من المغاربة البحريين وسار إلى **إيلة**، فظفر بالمركب الفرنجي عندها، فخرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدّى إلى **عيذاب** وشاهد بأهلها العذاب ودل على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها ووافقها ورد عليهم ما أخذ لهم... وعاد إلى **القاهرة** ومعه الأسارى. فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف. بعداً دينياً، بمعنى أن هدفها كان هو الهجوم على الأراضي الإسلامية المقدسة (إخراج رفات الرسول صلى الله عليه وسلم من قبره الشريف).

حرص القائد **صلاح الدين** منذ تأسيسه للدولة الأيوبية في تأمين سلامة المرور في البحر الأحمر، وتأمين الملاحة فيه للسفن الإسلامية، إذ كان قيام إمارة **الكرك الصليبية** حافزاً على بذل مزيد من الجهود لتنفيذ سياسته في البحر الأحمر سواء ما يتعلق بالتجارة الشرقية أو **بسلامة الحجاج** الذين كانوا يسلكون منذ أن سيطر الصليبيون على المناطق الجنوبية من الشام الطريق النهري عبر النيل إلى قوص ومنها في الصحراء الشرقية عبر وادي العلاقي إلى ثغر عيذاب ومن عيذاب بالسفن المعروفة بالجلاب إلى **جدة** وتحول درب الحج بذلك من سيناء إلى عيذاب، ولتأمين الملاحة في البحر الأحمر، وقصره على خدمة المصالح الإسلامية كان لزاماً عليه التصدي لكل محاولة للعبث في هذا البحر والبطش بأي قوة صليبية تقدم على التسلل إلى عمق هذا الممر المائي المهم اقتصادياً واستراتيجياً. ولهذا حرص على تحصين مدخل البحر الأحمر الشمالي بالسيطرة على قلعة إيلة التي كان الصليبيون قد اتخذوها لاعتداءاتهم المتكررة منذ أن أسسها بلدوين ملك بيت المقدس في سنة ٥١٠ هـ وحصنها وبنى قلعة أخرى منيعة في جزيرة فرعون القريبة من الساحل فأصبحت هي وقلعة إيلة تتحكمان في القوافل المارة بين مصر والشام والحجاز.

تشير المصادر التاريخية، إلى أن القاهرة شاركوا إخوانهم بمصر في التصدي لما عرف في التاريخ بحملة البحر الأحمر، ويعتقد أحد الباحثين المعاصرين، أن اسم حسام الدين يحوي التفكير في الأمير حسام الدين لؤلؤ، قائد أسطول صلاح الدين الذي أنزل بقوات أرناط صاحب إمارة الكرك الصليبية هزيمة نكراء في موقعة الحمراء سنة ٥٧٨ هـ. فقد عرف المغاربة بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ عصر ميكر، وذاعت شهرتهم في الجهاد البحري في العصر الأيوبي، فكان البحريون منهم موضع احترام للناس وتبجيلهم، فكان يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والقراء في أعداء الله، وكان قد اشترك منهم عدد كبير في مهاجمة مراكب الصليبيين عند رابغ وعيذاب وقت تعرضها لعدوان أرناط، واستعان الحاجب حسام الدين لؤلؤ بجماعة من أنجادهم في مراكب عديدة من مصر والإسكندرية في مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها وأسر من كان بها.

تحرير عكّا وبعض المدن المحتلة

رحل صلاح الدين طالباً **عكّا** فكان نزوله عليها يوم الأربعاء وقاتل **الصليبيين** بها صباح يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ فأخذها واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين وكانوا أكثر من أربعة آلاف نفس، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا **نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة**، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم، ولما استقرت قواعد عكّا وقسم أموالها وأسراها، سار يطلب **تبنين** فنزل عليها يوم الأحد ١١ جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق بالزحف خناق من فيها، فقاتلوا قتالاً شديداً ونصره الله سبحانه عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ١٨ عنوة، وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى **صيدا** فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى **بيروت** فنازلها ليلة الخميس ٢٢ من جمادى الأولى وركب عليها المجانيق ودام الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس ٢٩ من الشهر المذكور، وتسلم أصحابه **جبيل** وهو على **بيروت**، ولما فرغ من هذا الجانب رأى أن قصده **عسقلان** أولى؛ لأنها أيسر من **صور** فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد ١٦ من جمادى الآخرة من السنة نفسها، وتسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة **كالرملة والداروم**، وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها في يوم السبت نهاية جمادى الآخرة من السنة ٥٨٣ هـ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه **غزة وبيت جبريل والنطرون** بغير قتال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الإفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإنهم كانوا قد أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ.

قراءة في خطاب أوربان الثاني

لم تكن هزيمة الصليبيين في حطين هزيمة عابرة، وإنما كانت فاجعة حلت بهم؛ وقدت فلسطين عقب حطين في متناول قبضة صلاح الدين، فشرع يفتح البلاد والمدن والثغور الصليبية واحدة بعد الأخرى، حتى توج جهوده بتحرير بيت المقدس في (٢٧ من رجب ٥٨٣هـ = ١٢ من أكتوبر ١١٨٧م) كما سيأتي توضيحه - إن شاء الله تعالى -.

لقد هزم صلاح الدين الصليبيين في حطين وقتل منهم ثلاثين ألفاً وأسر مثلهم، وأسر سائر أمرائهم وفرسانهم، وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس الذي سقاه صلاح الدين قدحاً من الماء وأحسن رعايته، بينما توعد أرناط أمير الكَرَك، الذي قتله صلاح الدين بيده وفاءً لنذر نذره، لأنه كان يؤذي الحُجاج المسلمين، وينقض المعاهدات، ويهدد بالسير إلى قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليعتدي عليه، ووصلت ملائم جيش أرناط إلى عيذاب ورابع على البحر الأحمر كما ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم (أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى).

فتوحات صلاح الدين بعد حطين
رأس الناقورة
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيسارية
نابلس
يافا
أشدود
بيت المقدس
بيت لحم
عسقلان
غزة
الخليل
بئر السبع
رفح
الكرك
الشوبك
حماه
حمص
بعلبك
دمشق
الدولة الأيوبية
إمدادات صليبية
منطقة تجمع الفلول الصليبية المنهزمة
البحر المتوسط (البحر الأبيض المتوسط)
مناطق دخلت تحت سيطرة صلاح الدين بعد معركة حطين مباشرة
الخلافة العباسية
الدولة الأيوبية
مناطق دخلت تحت سيطرة صلاح الدين بعد معركة حطين مباشرة
لما دخل صلاح الدين بيت المقدس، حافظ على ما بها من آثار، وعمّر ما تخرب منها في أثناء الحصار، ثم أرسل أخاه العادل لفتح حصن الكرك ففتحه سنة ٥٨٤ هـ، وتوجه هو على رأس بقية الجيش إلى مدينة صور وحاصرها وكانت قد تجمعت بها فلول الناجين من البلاد المفتوحة واحتموا بها فاستعصت عليه لأن الإمدادات كانت تأتيها عن طريق البحر فمنك منها الحصار.
مناطق دخلت قبل وبعد معركة حطين تحت سيطرة صلاح الدين الأيوبي
الدولة الأيوبية
الدولة الأيوبية
مناطق لاتزال تحت الاحتلال الصليبي

فتح بيت المقدس ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ

قال المقريزي: وسار السلطان " وقد اجتمعت إليه العساكر " يريد **فتح بيت المقدس**، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب، وبه حشود الفرنج وجميعهم، فنصب المجانيق، **واقتتل الفريقان أشد قتال**، استشهد فيه جماعة من المسلمين، وأيد الله بنصره المسلمين، حتى تمكنوا من **السور ونقبوه**، وأشرفوا على أخذ البلد فسأل الفرنج حينئذ الأمان، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان، على أن يعطي كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية، سواء كان غنياً أو فقيراً، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل من الذكور والإناث ديناريين، ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار **وتسلم المسلمون القدس يوم الجمعة سابع عشر رجب**، وأخرج من فيه من الفرنج، وكانوا نحو الستين ألفاً، بعدما أسر منهم نحو ستة عشر ألفاً، مابين رجل وامرأة وصبي، وهم من لايقدر على شراء نفسه. وقبض السلطان من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، سوى ما أخذه الأمراء، وما حصلت فيه الخيانة. والتحق من كان بالقدس من الفرنج **بصور**، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس، فأتوه رجالاً وركابنا من كل جهة لزيارته، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر، **فأقيمت فيه الجمعة** يوم الرابع من شعبان، **وخطب القاضي محيي** الدين بن الزاكي بالسواد خطبة بليغة، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين، وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا، فوعظ الناس.

وأمر السلطان بترميم المحراب العمري القديم، وحمل منبر مليح من حلب ، ونصب بالمسجد الأقصى، وأزيل ما هناك من آثار النصرانية، **وغسلت الصخرة** بعدة أحمال ماء ورد، وبخرت وفرشت، ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، وأغلقت كنيسة القيامة، ثم فتحت، وقرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها. وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح، وإلى سائر الأطراف. ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا، وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به، وسار العادل مع السلطان، فنزلا على عكا أول شهر رمضان ، ثم رحل السلطان منها، ونزل على صور في تاسعه، وكانت حصينة، وقد استعد الفرنج فيها، فتلاحقت العساكر بالسلطان، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها، واستدعى السلطان الأسطول من مصر، فقدم عليه عشر شواني، وصار القتال في البر والبحر فأخذ الفرنج خمس شوان، ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان، وفيها غلظة وإنكار أمور، فأجاب بالاعتذار، ورحل عن صور في آخر شوال، وعادت العساكر إلى بلادها، **وأقام السلطان بعكا**، وسار العادل إلى مصر، فطرق الفرنج قلعة كوكب، وقتلوا بها جماعة من المسلمين، ونهبوا ما كان بها، وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس. السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ٦٦).

كان أول ما قال محيي الدين بن الزاكي في مستهل خطبته بعد فتح بيت المقدس:(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين). ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: " الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طله ومطله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وسلم، وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان " . ثم ذكر الموعظة وهي مشتملة على تقبيح الحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس. الروضتين في أخبار الدولتين - (ج ٢ / ص ٢٧٠).

دخل صلاح الدين الأيوبي المسجد الأقصى ليلة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ. وأدرك عدم إمكانية الصلاة في المسجد بسبب الحالة التي كان عليها المكان الطاهر، حيث قام الصليبيون بتحويله إلى حظيرة خنازير، ولذا لم تعقد بالمسجد الأقصى صلاة أول جمعة بعد فتح بيت المقدس مباشرة، وإنما جاءت خطبة الجمعة الأولى بعد ذلك في المسجد في يوم ٤ شعبان سنة ٥٨٣ هـ. وقد ألقى الخطبة في ذلك اليوم محيي الدين بن الزاكي وهو أحد الأئمة الكبار، وأقدم صلاح الدين على إظهار ما كان يتمتع به من وفاء عندما أمر بإحضار المنبر من دمشق الذي كان نور الدين محمود قد أمر بصنعه، وذلك حتى يصعد عليه الخطيب عند إلقائه لأول خطبة جمعة بالمسجد الأقصى بعد تحريره - لتمم الحديث عنه - وهذا من خلق الوفاء الذي امتاز به صلاح الدين، لذلك مكّن الله على يدي هذا المسلم الكردي إعادة فتح بيت المقدس.

٠ ١٠٠ ٢٠٠ م

منظر عام للمسجد الأقصى والمسجد القبلي المصغر وداخل السور القديم بمدينة القدس الشريفة (فلسطين)

منبر نور الدين زنكي الذي أحضره صلاح الدين بعد الفتح

صخرة المعراج بالمسجد القبلي المصغر

حصار عكا

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي، قد عانى الأهوال في حصار عكا الذي استمر أكثر من سنتين، ومع ذلك صابر الكفار كل هذه المدة قال عنه القاضي الفاضل: «وأما صبره في الجهاد، فقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمامل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس، ومع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى المغرب، وهو صابر على شدة الألم، وكان يقول: إذا ركبتُ يزول عنّي ألمها حتى أنزل».

الحملة الصليبية الثالثة

سنة ٥٨٥ - ٥٨٨ هـ - ١١٨٩ م - ١١٩٢ م

قادة الحملة: فردريك بربروسا (إمبراطور ألمانيا)، فيليب أغسطس (ملك فرنسا)، وريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا)

سبب الحملة ومسارها:

كان لرجوع بيت المقدس في أيدي المسلمين رد فعل جنوني في أوروبا، فقد قام بطريرك القدس الذي تركه صلاح الدين يرحل؛ بالطواف في بلاد أوروبا (الفرنجة) ومعه صورة رجل عربي يضرب المسيح عليه السلام ليحثهم على الأخذ بالثأر لبيت المقدس، وقام البابا كليمنت الثالث بالتبشير بحرب صليبية وهي ما عرفت بالحرب الصليبية الثالثة.

بينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة عكّا كانت ممالك أوروبا تستعد لحرب صليبية ثالثة؛ إثر الانتصارات الباهرة التي سجلها صلاح الدين الأيوبي ضد الإمارات الصليبية، واسترجاعه لبيت المقدس، وكان على رأس هذه الحملة أعظم ملوك أوروبا آنذاك، حيث سار الإمبراطور الألماني بـ ١٠٠،٠٠٠ مقاتل، مخترقاً بلاد المجر على نفس مسار الحملة الصليبية الأولى، وحينما وصلوا إلى مملكة أرمينية الصغرى ساعدهم الأرمن، وزودوهم بالمؤن والعتاد؛ إلا أن فريدريك غرق بنهر سالف، مما أدى إلى تشتت الجيش واضطرابه، ورجع غالبه إلى ألمانيا، أما البقية الباقية؛ فقد ركبت السفن إلى عكّا وصور وقسم سار براً.

أما الحملتان الفرنسية والإنجليزية؛ فقد التقى الفريقان في صقلية وأقاموا فيها مدة طويلة بينما الصليبيون في عكّا ينتظرونهم بفارغ الصبر. وإذا لم يكن الملكان على غير وفاق، فقد بارح الفرنسيون صقلية أولاً، ثم بعدهم بعشرة أيام تحرك الأسطول الإنجليزي، الذي ألقت العاصفة به على جزيرة قبرص، التابعة للإمبراطورية البيزنطية، فنشبت حرب بين الفريقين، انتهت باستيلاء الإنجليز على قبرص، ثم أبحر إلى عكّا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذي أطلق سراحه صلاح الدين، فازداد الصليبيون قوة بمجيء ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، رغم الجهود العظيمة التي بذلها صلاح الدين وجيشه لإنقاذ عكّا؛ لكن الصليبيين تمكنوا من دخول المدينة ورفع رايتهم الصليبية على أسوار المدينة، معلنة احتلالها واستسلامها؛ ففوجئ المسلمون وارتاعوا. واستبشر الصليبيون بذلك استبشاراً كبيراً.

ريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا)

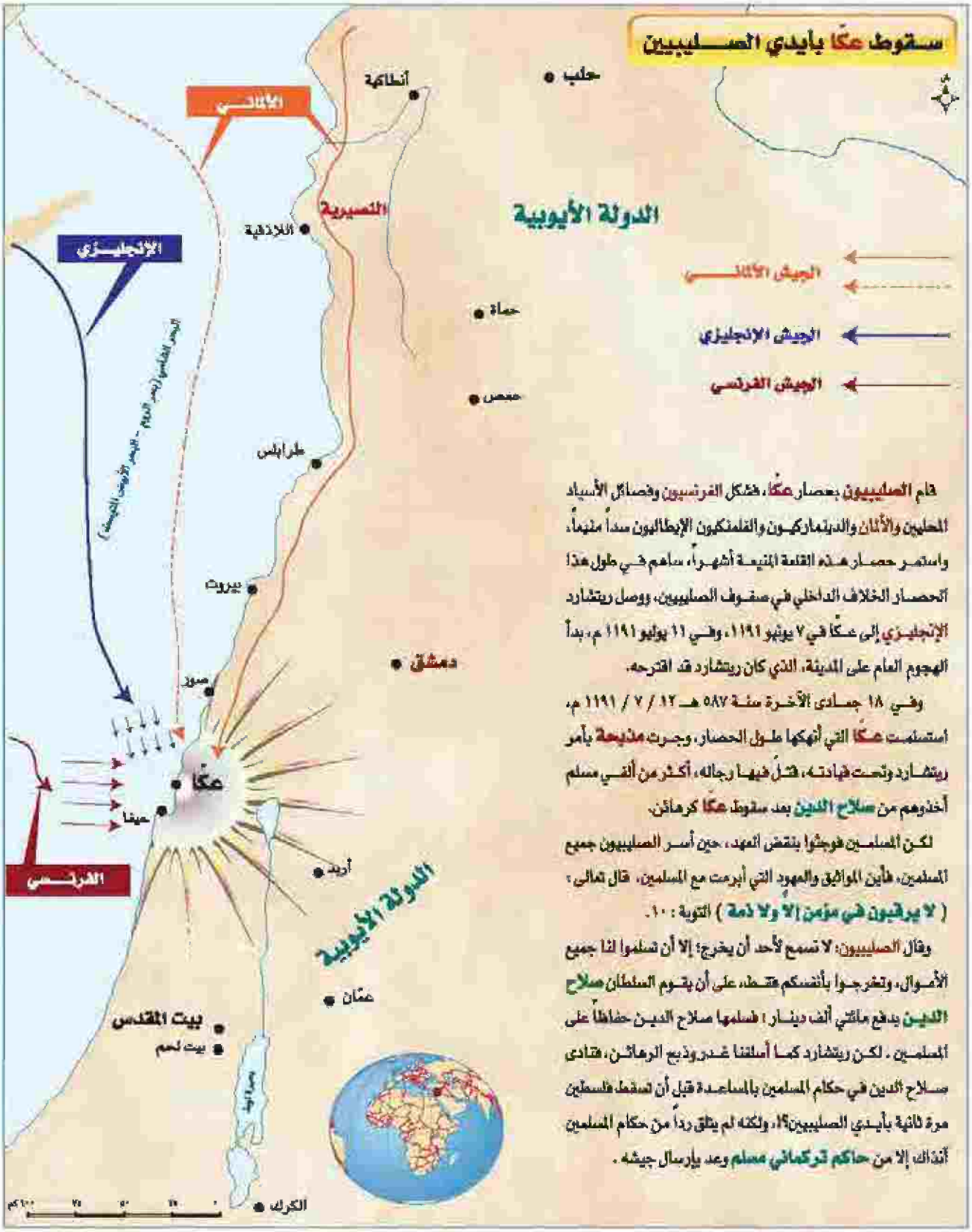

قام الصليبيون بحصار عكا، فشكل الفرنسيون وفصائل الأسياد المحليين والألمان والدينماركيون والفلمنكيون الإيطاليون سداً منيعاً، واستمر حصار هذه القلعة المنيعة أشهراً، ساهم في طول هذا الحصار الخلاف الداخلي في صفوف الصليبيين، ووصل ريتشارد الإنجليزي إلى عكا في ٧ يونيو ١١٩١، وفي ١١ يوليو ١١٩١ م، بدأ الهجوم العام على المدينة، الذي كان ريتشارد قد اقترحه.

وفي ١٨ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ١٢ / ٧ / ١١٩١ م، استسلمت عكا التي أنهكها طول الحصار، وجرت مذبحة بأمر ريتشارد وتحت قيادته، قتل فيها رجاله، أكثر من ألفي مسلم أخذوهم من صلاح الدين بعد سقوط عكا كرهائن.

لكن المسلمين فوجئوا بنقض العهد، حين أسر الصليبيون جميع المسلمين، فأين المواثيق والعهود التي أبرمت مع المسلمين، قال تعالى: (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة) التوبة : ١٠.

وقال الصليبيون: لا نسمح لأحد أن يخرج؛ إلا أن تسلموا لنا جميع الأموال، وتخرجوا بأنفسكم فقط، على أن يقوم السلطان صلاح الدين بدفع مائتي ألف دينار ؛ فسلمها صلاح الدين حفاظاً على المسلمين . لكن ريتشارد كما أسلفنا غدر وذبح الرهائن، فنادى صلاح الدين في حكام المسلمين بالمساعدة قبل أن تسقط فلسطين مرة ثانية بأيدي الصليبيين؟!، ولكنه لم يلق رداً من حكام المسلمين آنذاك إلا من حاكم تركماني مسلم وعد بإرسال جيشه .

عكا ("عاكو" باللاتينية "acre") مدينة عربية فلسطينية داخل الخط الأخضر تديرها السلطات اليهودية المحتلة، تقع على ساحل البحر المتوسط غربي منطقة الجليل، وهي من أقدم مدن فلسطين التاريخية. تقع المدينة على بعد ١٧٣ كيلومترا تقريبا شمال غربي القدس.

في عكا يوجد مركز وميد لأبناء الديانة البهائية الذي يعتبر من أهم المعابد البهائية إلى جانب المعبد الرئيسي في مدينة حيفا.

تعتبر عكا مفتاح فلسطين لكونها الاستراتيجي، فهي بوابة كنعان، وعرفت عكا بصناعة الزجاج والأصبغة الأرجوانية الملوكية، احتلها وحكمها سلسلة طويلة من الغزاة كالصليبيين، والمغول بعدها لمائتين بينما هدم أسوارها إبان الحملة الفرنسية. وتظهر في أدبيات عكا فنون معمارية متعددة كالعمارة العربية والصليبية والعثمانية، كما تعتبر بمثابة جامع البحار الذي يلف من أعماقه تاريخا عريقا، أما المدينة القديمة فقد قام الصليبيون ببنائها.

جـــــزء من ســـــور عكا الشـــــهير

دخول حيفا تحت حكم الصليبيين

حيفا: مدينة فلسطينية تقع على جبل الكرمل وشواطئه، وهي من أقدم مدن فلسطين التاريخية، ومن أهم موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط. خضعت للاحتلال اليهودي في القرن الماضي.

سيطر عليها **الصليبيون** في العصور الوسطى، حينما أمر **ريتشارد قلب الأسد**، الزحف نحوها بعد سقوط عكّا، حيث دخلها الصليبيون بكل يسر وسهولة لعدم وجود تحصينات دفاعية كعكّا، توجهت جحافل الصليبيين لاحتلال بعض المدن الفلسطينية كما سيتضح لنا في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

يعتقد النصارى أن اسم (حيفا) مشتق من «كاياهاس» (Caiaphas) الأسقف الأعلى لأورشليم في وقت المسيح عليه السلام، أو من الاسم الآرامي لقديس النصارى بطرس (أو كيفا). بالإضافة إلى ذلك، الاسم سايكامينون (Sycaminon) أو سايكامينوس (Sykaminos) ومعناه "الفراولة البرية" يستخدمان أيضاً. البعض يقول إن كلمة حيفا عربية أصلها من «حف» بمعنى شاطئ، أو الحيفة بمعنى الناحية.

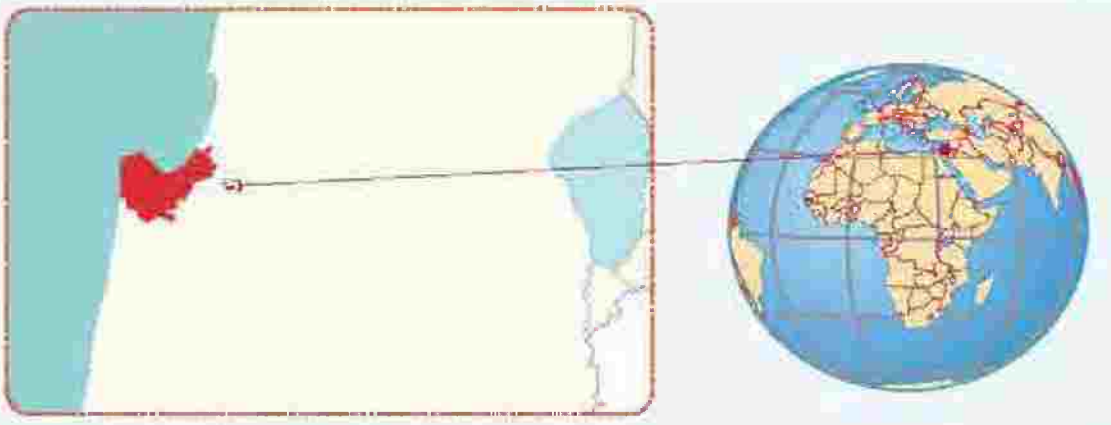

حَيْفَـاءُ: كأنّـه تأنيـث؛ ... وحيفا، غير ممدود: حصن علـى ساحل بحر الشام قرب يافا، ولم يزل في أيـدي المسلمين إلى أن تغلّب عليه كندفري الذي ملك بيت المقدس في سنة ٤٩٤، وبقي في أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٣ وخرّبه؛ وفي تاريخ دمشق: إبراهيم بن محمد بن عبد الرزّاق أبو طاهر الحافظ الحيفيّ من أهل قصر حَيْفة، سمع بأطرابلس أبا يوسف عبد السلام ابـن محمـد بن يوسف القزويني وأبا الوفاء سعد بن علي بن محمد بـن أحمد النَّسوي، وحدث بصور سنة ٤٨٦، سمع منه غَيْث بن علي وأبو الفضل أحمد بن الحسين ابن نَيّت الكاملي؛ هكذا في كتابه قصر حيفة، بالهاء، وأنا أحسبه المذكور قبله. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٢٢.

معركة أرسوف وسقوط اللد والرملة

أصبحت عكّا بعد أن استردها الصليبيون أهم مركز لدولة الفرنجة في الشرق وحلت محل بيت المقدس في الزعامة على المدن الصليبية الأخرى. وانضم إليها حيفا وقيسارية، وكان من المحتمل أن يكسب الصليبيون انتصارات أخرى مهمة على المسلمين ولكن سرعان ما دب دبيب الشقاق بينهم ورجع ملك فرنسا إلى بلاده وبقي (ريتشارد) الذي استولى على مدينتي أرسوف بعد معركة حامية الوطيس آل فيها النصر إلى ريتشارد، ثم مدينة يافا وعزم على استرداد بيت المقدس فوجه صلاح الدين همته إلى تحصين المدينة، والدفاع عنها، ورأى أنه من الخير الاحتفاظ بالمدن الداخلية ريثما تتاح له فرصة تكوين أسطول بحري كبير يحمي به المدن الساحلية. وأخيراً وتحت تأثير الرغبة الملحة في العودة إلى بلاده اضطر ريتشارد إلى التنازل عن بعض شروطه، فتم عقد صلح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م، الموافق لسنة ٥٨٨ هـ، وهو الصلح الذي نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف؛ أما عسقلان فتكون للمسلمين في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وفرض صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية (الباطنية)، واشترط الصليبيون دخول صاحب إنطاكية وطرابلس في الصلح، "ورضي الاسبتارية والداوية، وسائر مقدمي الإفرنجة بذلك".

أما الأماكن المقدسة، فقد ظلت في أيدي المسلمين، على أن يكون للنصارى حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أي ضريبة. وقد اتفق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وتاب عن الملك ريتشارد في التوقيع على الاتفاقية هنري دي شامبني وبالبان الثاني دي أبلين وأونفروي الرابع دي تورون، في حين مثل الجانب الإسلامي: الملك الأفضل والملك الظاهر ابنا صلاح الدين، وأخوه الملك العادل وبعض الأمراء الأيوبيين الآخرين.

بين صلاح الدين وريتشارد

لم يلبث ريتشارد أن اعتراه المرض في يافا، فأبت شهامة صلاح الدين إلا أن يقدم له كل معونة ممكنة في مرضه. من ذلك ما تذكره المراجع من أن الأطباء وصفوا لريتشارد الفاكهة والثلج، فأخذت رسله تتردد على صلاح الدين الذي لم يضن على خصمه بكل ما طلبه، فكانت "رسل ريتشارد لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع عليه في مرضه شهوى الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمده بذلك..". ويبدو أن هذا السلوك من جانب صلاح الدين كان له أثره العليب في نفس ريتشارد، فقال لأحد أمراء المسلمين: "سلم على السلطان وقل له: بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا الأمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وما في دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم". والواقع أن ريتشارد كان لا يستطيع العودة إلى بلاده تاركاً الموقف معلقاً في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين.

الوضع السياسي بعد صلح الرملة
الدولة الأيوبية
سوريا
لبنان
فلسطين
الأردن
بلاد الشام
الدولة الأيوبية
مملكة عكا الصليبية (مملكة بيت المقدس)
منطقة تحت سيطرة الطرفين
منطقة تابعة لإمارة طرابلس الصليبية

وفاة القائد الإسلامي الكردي (صلاح الدين الأيوبي) رحمه الله تعالى

كان صلح الرملة قاطعاً لسلسلة الحروب التي شنها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، التي اكتسب بها شهرة كبيرة، ومجداً ما زال المسلمون يتذكرون أمجاده، وقبل هذه الحروب كان المسلمون لا يملكون شيئاً غربي نهر الأردن، وإذا بنتيجة هذه الحروب تفصح عن استرجاع بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام، واستيلاء المسلمين على الأراضي المحصورة بين نهر العاصي والأردن وبين البحر الأبيض المتوسط، ما عدا أجزاء ساحلية قليلة بقيت لإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الجديدة (عكّا).

بعد صلح الرملة سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وأمر بإجراء عدة إصلاحات وتنظيمات. ثم سار إلى دمشق فوصلها في ٢٥ شوال سنة ٥٨٨ هـ، ولم يعمر طويلاً بعد الصلح، فقد وافاه الأجل المحتوم وهو بدمشق الفيحاء فأسلم الروح لبارئها في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وفارق الحياة بعد أن أدى رسالته على الصورة الكاملة، وقد أوصى ابنه الملك الأفضل بوصية عظيمة قبل ذلك.

لقد اشتدت الضائقة على قلب كل مسلم؛ بسماع نبأ وفاة القائد الرباني صلاح الدين الأيوبي، ثم توارثت أسرته حكم الدولة الجهادية التي أنشأها، حيث خرج صلاح الدين من الدنيا ولم يأخذ معه إلا الكفن، والذكر الحسن لكن ترك وراءه راية الجهاد ضد الصليبيين المغتصبين، حيث استطاعت أسرته أن تسير على خطاه وتنهج طريقه في هذا العمل الإسلامي العظيم، وهو الذب عن الدين والأعراض، والتصدي لأي هجوم صليبي في الشام ومصر وكان آخر أبطالهم الكبار في هذا الصدد (توران شاه بن السلطان الصالح أيوب)؛ الذي أظهر بطولة نادرة في حربه مع لويس التاسع ملك فرنسا، وتغلب عليه وأسره مع كثير من أمراء دولته وجنده وقتل منهم سبعة آلاف في المعركة.

عملة نقدية ليوسف صلاح الدين الأيوبي؛ سكت بعد نصر حطين سنة ٥٨٣ هـ

أصبحت عكّا بعد أن استردها الصليبيون؛ أهم مركز لدولة الفرنجة (الصليبية) في الشرق، وحلت محل بيت المقدس في الزعامة على المدن الصليبية الأخرى، وأصبح مسماها الجديد مملكة بيت المقدس؛ لتبقى حية في قلوب الغزاة!

تعود أهمية **قلعة عجلون (الربض)** أو صلاح الدين الأيوبي، في الذاكرة الإسلامية إلى دورها الكبير في أثناء الحروب الصليبية، قال دوبات: "من قلعة عجلون هزم الناصر صلاح الدين الأيوبي جيوش الصليبيين بحروب استمرت ثمانية أعوام واجه خلالها ٢٢ ملكاً أوروبياً ومنهم: فريدريك الألماني، وريتشارد قلب الأسد الإنجليزي، خاض مندمج ٧٤ معركة، وحرر أكثر من خمسين مدينة وقلعة مغتصبة، قبل أن يهاجمه الموت من ٥٧ عاماً".

حارسان للقلعة بلباس عسكري تاريخي يعود إلى العهد الأيوبي

تعد **قلعة عجلون التاريخية** التي تعرف بقلعة الربض أو **قلعة صلاح الدين** أحد المعالم الأثرية المهمة في الأردن، وتقع القلعة الرائعة في مدينة عجلون (٧٥ كلم شمال العاصمة عمّان) اسم الربض من موقعها كونها "كربض" على قمة تل شاهق الارتفاع عرف باسم جبل عوف نسبة إلى بني عوف الذين أقاموا عشيرة منهم في الجبل أيام العباسيين، واستمدت القلعة اسمها الثاني للقلعة (صلاح الدين) من القائد الإسلامي الرباني صلاح الدين الأيوبي، الذي اتخذها كقاعدة انطلاق لجيوشه المتوجهة صوب مدينة القدس، ويشير المصادر التاريخية المتوافرة عن القلعة التي ترتفع ١٠٧٢ متراً عن سطح البحر، القائد الأيوبي عز الدين أسامة بن منقذ أحد القادة البارزين الذين شاركوا الحروب إلى جانب القائد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٨م، الذي اتخذها قاعدة في حملته العسكرية لطرد الصليبيين من وجه قلعة بيلفوار التي قهرها الصليبيون قرب بحيرة طبريا في فلسطين، وذلك بسبب موقع قلعة الربض الإستراتيجي لسيطرتها على طرق المواصلات بين سورية وجنوب الأردن، وكان الهدف من إقامة قلعة صلاح الدين في هذه المنطقة الجبلية المطلة من جميع الجهات حماية المنطقة من الزحف الصليبي والحفاظ على خطوط المواصلات وطرق الحج بين الشام والحجاز لأنها تشرف على وادي الأردن وسهول حوران في الشمال ونظراً لموقعها المرتفع فقد استخدمت عبر تاريخها مركزاً للحمام الزاجل ومنارة لنقل الأخبار والبريد من حدود الفرات إلى القاهرة.

قلعة عجلون (بالانجليزية: Ajlun Castle) وتسمى قلعة الربض، وتعرف كذلك بقلعة صلاح الدين، هي قلعة تقع في عجلون بالأردن

إحدى قاعات القلعة الداخلية

شيدت **قلعة عجلون** معظم اعتصام السلاطين والأمراء و الملوك في العصور الأيوبية والمملوكية وكذلك العثمانية، يتضح ذلك من النقوش والكتابات الأثرية التي تسجل على القلعة وتشير إلى هؤلاء الحكام.

ولقد لعبت القلعة في أوقات السلم دوراً هاماً في المنطقة، إلا أنها كانت مقراً للحكم والقضاء وكان يبدع فيها الشعراء والكتاب. فتشير المصادر العربية القديمة إن مسابقات كانت تجري بين الشعراء في داخل القلعة، ومن هؤلاء الشعراء محمود ابن مكة العجلوني ويحيى بن مطير السلمي البصري ومحمد ابن سليمان، وظافر الارداتي، وسعد الدين بن الفارز العجلوني، وعلاء الدين بن غانم.

كانت القلعة تستخدم كمحطة للحمام الزاجل وكان هذا الحمام يخرج من القاهرة إلى غزة إلى جنين ثم إلى قلعة الربض ومنها إلى أربد ثم إلى دمشق، وكان هذا الخط البريدي على قدر كبير من الانتظام والسرعة في نقل الأخبار بين أجزاء المملكة الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف.

وكانت القلعة يعمر بقربها من جلود مصدر خير للمنطقة، فكانت تقام بالقرب منها الأسواق وتشط حولها مختلف المبادلات التجارية.

معركة الأرك ٩ شعبان ٥٩١ هـ . ١٨ يوليو ١١٩٤م

تولى أبو يوسف **يعقوب بن يوسف** بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي **خلافة الموحدين** بعد استشهاد أبيه مجاهداً ضد النصارى في الأندلس، وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٨٠هـ.

وانشغل بإخماد الثورات التي قامت ضده في إفريقية، حتى كتب ألفونسو السادس خطاباً يدعوه فيه إلى القتال سخرية واستهانة بالمسلمين، فلما قرأ أبو يوسف الخطاب كتب على ظهر رقعة منه: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ الجواب ما ترى لا ما تسمع.

واشتد حنق أبي يوسف، وأمر بالتأهب للحرب في الأندلس، وأن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، فثار الناس للجهاد ودوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب ضد النصارى، وسير قواته إلى الأندلس، وعبر إلى الجزيرة الخضراء في ٥٩١/٧/٢٠هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلاً، ثم بادر بالسير إلى قشتالة ، ولكنه لما علم أن ملك قشتالة قد حشد قواه شمال قلعة رباح على مقربة من قلعة الأرك – الأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه – اتجه بجيشه إلى ذلك المكان ، ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى ضرب معسكره وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في خطط المعركة.

مرت أيام عديدة لم يقع فيها اشتباك، وسأل أبو يوسف مجلسه الاستشاري عن الخطة المناسبة، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد الذي كان من أعقل وأخبر زعماء الأندلس بمكائد الحروب، الذي كان من آرائه أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، وأن يجب اختيار قائد عام للجيش كله فاختار أبو يوسف كبير وزرائه أبا يحيى بن أبي حفص الذي امتاز بالفطنة والشجاعة.

وأن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم حتى لا تضعف حماستهم حينما يتولى الأجانب قيادتهم، وأن يتولى الأندلسيون والموحدون لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش المكون من قبائل البربر غير النظاميين وجمهرة كبيرة من المجاهدين والمحاربين فإنهم يكونون قوة احتياطية تقوم بالعون والإمداد، وأما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقواته وراء التلال على مسافة قريبة منا، ثم ينقض فجأة على العدو، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي ووافق عليها أبو يوسف المنصور وأمر بتنفيذها.

وحشد ألفونسو قوات هائلة من مملكته، وقدم إليه فرسان قلعة رباح، وفرسان الداوية، واستطاع أن يحشد مائة ألف مقاتل في رواية، وأكثر عدد ذكرته الروايات ثلاثمائة ألف مقاتل، ومع ذلك طلب مساعدة ملكي ليون وناڤار النصرانيين اللذين جمعا حشوداً ولكنهما تباطأ في المجيء للمساعدة .

وفي ٩ شعبان ٥٩١هـ كانت موقعة الأرك الفاصلة، وأعد أبو يوسف المنصور جيشه الذي يساوي عدد الأغلب

عدد جيش النصارى ، فاحتل الموحدون القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب – أعقاب فاتحي المغرب المسلمين – ، ومعهم بعض القبائل الأمازيغية تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد، وتولى أبو يوسف قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند ومن الحرس الملكي، ودفعت صفوف المتطوعين، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة إلى المقدمة لتفتتح القتال.

وقام خطيب وحرض المؤمنين على الجهاد وفضله ومكانته، وأخذت الناس مواقعهم، ونظم ملك قشتالة جنده، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، و كان الجيش القشتالي يحتل موقعاً عالياً، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه تحاول اقتحامه، انقض زهاء سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين كالسيل المندفع من عال، فتزحزح قوم من المطوّعة، فصعد غبارها في الجو ، فقال أبو يوسف المنصور لخاصته: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم، ثم تحرك وحده، وسار منفرداً، ومر على القبائل والصفوف، وحثهم على الثبات.

لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف، وعززت قوات القشتاليين بقوى جديدة وهجموا للمرة الثالثة، وضاعفوا جهودهم، واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها، وأرغم الباقون على التراجع، واستشهد آلاف من المسلمين في تلك الصدمة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة.

واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الأندلسيين وبعض بطون زناته، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن، هجموا عندئذ بقيادة أبي عبد الله بن صناديد على قلب الجيش القشتالي، وقد أضعفه تقدم الفرسان القشتاليين، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، فلقي ألفونسو المسلمين بقيادة ابن صناديد دون وجل، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت سويعات، واستبدل النقص في العدد بالإقدام والشجاعة، حتى إنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين، واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا ينهزموا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان.

معركة الأرك، من المعارك الأندلسية الحاسمة التي وقعت بين الموحدين بقيادة يعقوب المنصور وبين النصارى بقيادة (ألفونسو الثامن) ملك قشتالة وذلك في شهر شعبان سنة ٥٩١هـ، وقد تمكن الموحدون من إحراز نصر كبير على أعدائهم النصارى فقتلوا منهم ما يربو على ثلاثين ألفاً ، كما أسروا وغنموا الكثير، وقد وقعت تلك المعركة قرب حصن الأرك غرب قلعة رباح فنسبت إليه.

مع بداية المعركة أيقن **الموحدون** بالنصر حيثما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة، وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى.

مخطط معركة الأرك الفاصلة

ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لمهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته.

وانتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، وأسروا عشرين ألفاً، وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب المعركة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين.

ساحة معركة الأرك حيث كان يوم «الأرك» من الأيام العظيمة لدولة الإسلام بالأندلس، أعادت ذكرى الزلاقة وانتصارات «الحاجب المنصور»، والجدير بالذكر أن «ألفونسو الثامن» من شدة غروره وثقته بالنصر، قد اصطحب معه في جيشه مجموعة من التجار اليهود بأموالهم لشراء أسرى المسلمين، فصاروا هم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

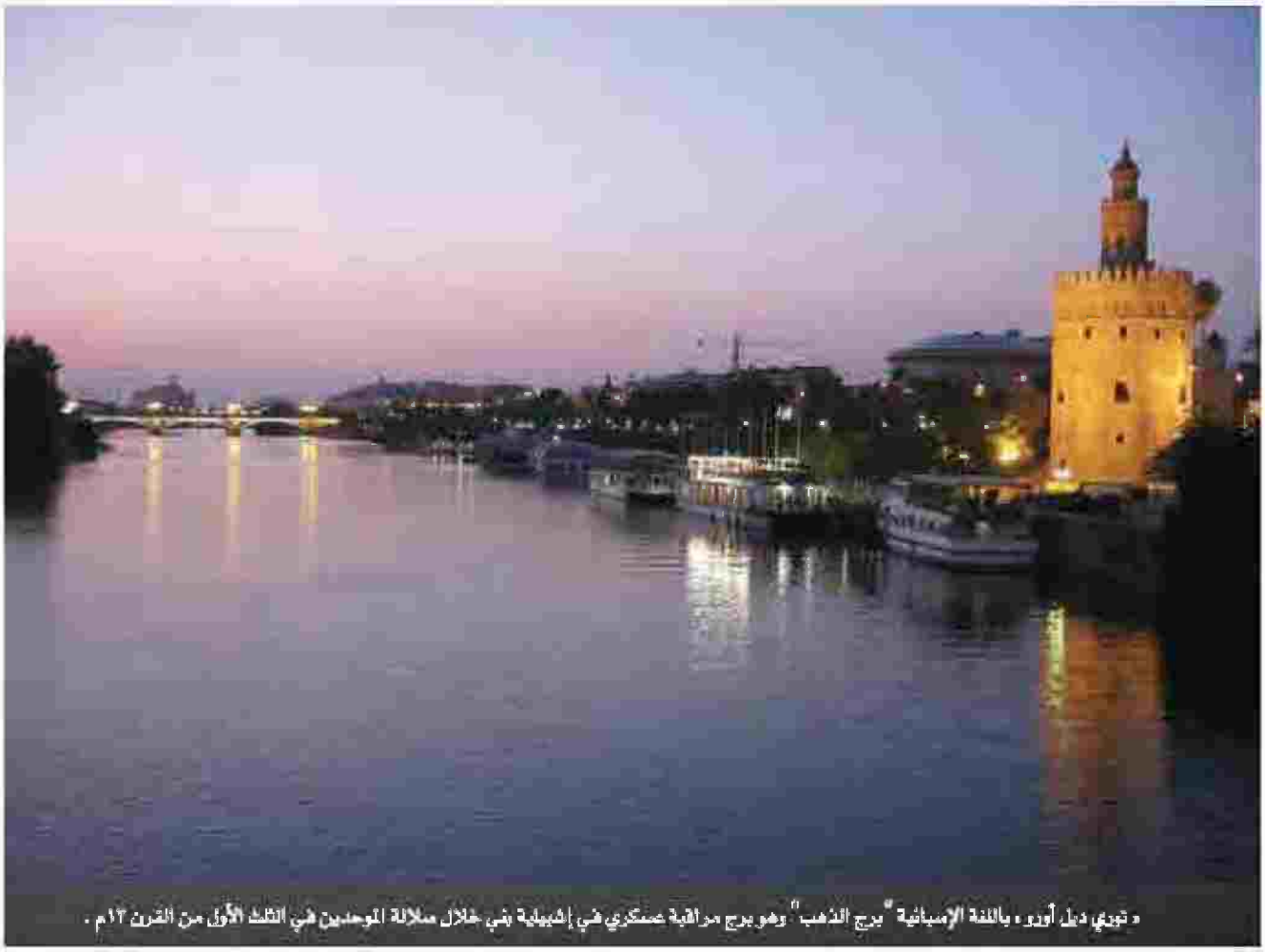

« تورى دل أورو » باللغة الإسبانية "برج الذهب" وهو برج مراقبة عسكري في إشبيلية بنى خلال سلالة الموحدين في الثلث الأول من القرن ١٣م .

برج الذهب : من معالم إشبيلية الباقية. فقد بنى وشيّدَ سوره الأمامي الحاكم أبو العلا إدريس عام ١٢٢٣م، وحفرَ حوله خندقاً ومدّ منه سوراً قليل الارتفاع إلى نهر الوادي الكبير ببرج ضخم كبير الأضلاع هو برج الذهب القائم حتى اليوم. وفي مقابل هذا البرج برج مماثل له على الشاطئ القريب من المدينة، تربط بينهما سلسلة حديدية ضخمة تمنع السفن من المرور ليلاً في نهر الوادي الكبير حماية للمدينة من التسلل إليه عبر النهر.

منارة المسجد الجامع بالقصبة - الخيرالدة - الذي أسسه "أبو يعقوب يوسف"، وعليه تقوم اليوم كاتدرائية إشبيلية. لما خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب أمر والي إشبيلية بالإشراف على إتمام مشروع أبيه وإكمال بناء مئذنة تجاوز في ارتفاعها مئذنة قرطبة، ولم تتم المئذنة إلا بعد انتصار أبي يوسف يعقوب المنصور على جيوش قشتالة في موقعة الأرك في ١٠ يوليو عام ١١٩٥م/ ٥٩١ هـ وارتفعت المئذنة في رشاقة مشرفة على سهول إشبيلية.

دولة بني مرين ٦١٤ - ٨٧٥هـ/١٢١٧ - ١٤٧٠م

المرينيون، أو بنو مرين سلالة أمازيغية حكمت بلاد المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب الأوسط، وسيطرت على مقدراته **نحو قرنين ونيف** بعد أن قضت على سلطة الموحدين فيه.

ينحدر بنو مرين من بني واسين أحد بطون زناتة وجدهم الأعلى جرماط بن مرين؛ وإليه ينسبون. أما مؤسس دولتهم فهو أبو محمد عبد الحق ابن أبي خالد محيي (محيو) المريني الذي انتخب رئيساً لبني مرين بعد أبيه المتوفّى سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م. كان المرينيّون قد استوطنوا الأجـــزاء الشـرقية من المغرب الحالي منذ منتصف القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي.

بعد وفاة الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة ٦١٠هـ اختلت أمورهم، واغتنم المرينيون الوضع، فغادروا القفار، وتفرقوا في جهات المغرب الأقصى، فاكتسحوا بسائطه. وحاول الموحدون ردهم وإخضاعهم، فصمدوا لهم في بلاد الريف، وهزموهم هزيمة منكرة. غير أن بني عسكر انفضوا عن أبناء عمومتهم، وانضموا إلى الموحدين، وتحالفوا عليهم مع بني عبد الواد وأكثر قبائل زناتة والقبائل العربية في المنطقة[١].

وقتل عبد الحق **سنة ٦١٤هـ وتولى الزعامة ابنه عثمان** الذي نجح في بسط سيطرته على قسم كبير من المغرب، وتوحيد زناتة كلها تحت لوائه، وإخضاع القبائل العربية، وعاث غيلة سنة ٦٣٧هـ، وقام بالأمر من بعده أخوه عبد الحق، فسار على نهجه، وتابع إخضاع المتمردين ومناهضة الموحدين يقتطع من أملاكهم جزءاً بعد جزء. ولإضفاء الشرعية على سلطته أمر بالدعوة للحفصيين في تونس وممالأتهم تكاية بالموحدين من بني عبد المؤمن حكام المغرب. وفي عام ٦٤٢هـ دارت معركة حاسمة بين الموحدين بقيادة الخليفة السعيد علي بن المأمون وبين المرينيين كانت الدائرة فيها على بني مرين، فانقلبوا إلى الصحراء، وقتل عبد الحق وابنه محمد، وتولى زعامتهم أخوه أبو بكر بن عبد الحق المكنى بأبي يحيى الذي تمكّن من الاستيلاء على مكناس سنة ٦٤٢هـ، ثم على فاس سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، واتخذها حاضرة له، كما استولى على سلا وسجلماسة سنة ٦٥٣هـ. وأصبح المغرب كله مقسماً بين المرينيين في المغرب الأقصى (فاس) وبني عبد الواد (الزيانيون) في المغرب الأوسط (تلمسان) والحفصيين في إفريقية (تونس).

تُوفي أبو يحيى سنة ٦٥٦هـ، وخلفه أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ابن محيو، وأطاعته بلاد المغرب كلها، وسار على نهج أخيه في إخضاع ما بقي من بلاد المغرب، وهاجمه بنو عبد الواد، فظفر بهم[٢].

١، ٢ - محمد وليد الجلاد، الموسوعة العربية العالمية، مج ١٨، ص ٤٥٦.

بعد أفول **دولة الموحدين** تعاقبت على بلاد المغرب الإسلامي ثلاث دول هي: دولة **بني حفص** شرقاً، ودولة **بني مرين** غرباً ودولة **بني زيان** بالأوسط؛ وتلاشى المذهب الشيعي الإسماعيلي من المنطقة الذي دعت إليه الدولة العبيدية، بينما هيمن المذهب السني المالكي على الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس وحافظ المذهب الإباضي على وجوده في تاهرت وسجلماسه وجربة وجبل نفوسة وغرداية أيام بني يزغن.

دولة الأشراف بني قتادة (خلال العصر العباسي) من سنة ٥٩٧ - ٦٥٦ هـ/ ١٢٠٠ - ١٢٥٨ م

قال البلادي[١]: تقدم معنا انقراض دولة الهواشم سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م)، وذلك باستيلاء **قتادة ابن إدريس على مكة**، قيل بواسطة ابنه عزيز، وقيل بواسطة ابنه حنظلة، وقيل: بل هجم هو عليها فلم يشعروا إلاّ وهو معهم، **وقتادة بن إدريس** بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - ، يُكنى أبا عزيز الينبعي المكيّ، ويقال له: نابغة بني حسن، **صاحب مكة وينبع**، وغير ذلك من بلاد الحجاز. وهو **جد الأشراف القتاديين** أو أشراف الحجاز (مجازاً) إذ إن معظم أشراف الحجاز اليوم من عقبه إلاّ بضع أسر، وظل بنوه يتوارثون أمر الحجاز إلى سنة (١٣٤٤هـ)، أما **إخوانهم الحسينيون** فقد كانوا **يستقلون بالمدينة** مدداً محددة.

وَلي قتادة مكة عشرين سنة أو نحوها، على الخلاف في مبدأ ولايته بمكة، وكان هو وأهله مستوطنين نهر العلقميّة من وادي ينبع، وصارت له على قومه الرئاسة فجمعهم وأركبهم الخيل، وحارب الأشراف بني حراب، من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وبني علي، وبني أحمد، وبني إبراهيم، ثم إنه استألف بني أحمد، وبني إبراهيم، وذلك أيضاً بعد ملكه لوادي الصّفراء، وإخراجه لبني يحيى منه، وكان سبب طمعه في إمرة مكة، على ما بلغني، ما بلغه من انهماك أمرائها **الهواشم بني فليته** على اللهو، وتبسطّهم في الظلم، وإعراضهم عن صونها ممن يريدها بسوء، اغتراراً منهم بما هم فيه من العز والتعسف لمن عارضهم في مرادهم، وإن كان ظلماً أو غيره، فتوحش عليهم لذلك خواطر جماعة من قوّادهم، ولما عرف ذلك منهم قتادة، استمالهم إليه، وسألهم المساعدة على ما يرونه من الاستيلاء على مكة، وجرّأه على المسير إليها مع ما في نفسه، وقيل: إن بعض الناس، فزع إليه مستغيثاً به في ظلامة ظُلمها بمكة، فوعده بالنصر، وتجهّز إلى مكة في جماعة من قومه، فما شعر به أهل مكة، إلا وهو بها معهم، **وولاتهم على ما هم فيه من الانهماك في اللهو**، فلم يكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها دونهم، وقيل إنه لم يأت إليها بنفسه في ابتداء ملكه لها، وانما أرسل إليها ابنه حنظلة فملكها، وخرج منها مكثر بن عيسى بن فليتة إلى **نخلة**، ذكره ابن محفوظ، وذكر أن في سنة ستمائة، وصل محمد بن مكثر، وتقاتلوا عند المتكأ، وتمّت البلاد لقتادة، وجاء إليها بنفسه بعد ولده حنظلة[٢].

١، ٢ - عاتق بن غيث البلادي، الإشراف على تاريخ الأشراف، موقع أشراف الحجاز بالمملكة العربية السعودية.

الطبقة الرابعة : الأشراف القتاديون في الحجاز
الطبقة الرابعة الأشراف القتاديون:
وهم بنو إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين ابن سليمان بن علي بن عبد الله ابن محمد الثائر بن موسى الثاني ابن عبد الله الرضا بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .
سيناء
تبوك
البدع
مدائن صالح
ينبع
شرفاء
الأيوبيون
تيماء
العلا
وادي القرى
الوجه
خيبر
مصر
أملج
يتوهنا الحسينيون
المدينة النبوية
ينبع
وادي الصفراء
المهد
بحر القلزم (البحر الأحمر)
النوبة
رابغ
جدة
مساكن بني قتادة قبل إمارتهم لمكة
نخلة
الطائف
مكة المكرمة
الليث
النفوذ القتادي
الأشراف القتاديون يهاجمون الأشراف الهاشميين وينتزعون منهم ملك مكة شرفها الله تعالى، فجلى الهاشميون إلى نخلة (موضع بين مكة والطائف وهو حد الحرم في الجهة الشرقية الشمالية وينقسم إلى نخلة اليمانية والشامية) .
أبها
تجران
فرسان
جازان
المرعش
الأيوبيون
صنعاء
أرض اليمن
الحديدة
لحج
بحر العرب
ذكر أبو شامة في أخبار سنة ثلاث عشرة وستمائة: فيها وصل الخبر بتسليم نواب الكامل (الأيوبي) ينبع، من نائب قتادة، حمأية له من قاسم بن جماز صاحب المدينة، وبأن قاسم بن جماز أخذ وادي (القرى) ونخلة من قتادة؛ وهو مقيم به ينتظر الحاج، حتى يقضوا مناسكهم، ويتأزل هو مكة بعد انفصالهم عنها. وذكر ابن محفوظ شيئاً من خبر قتادة وقاسم، لأنه قال: سنة ثلاث عشرة وستمائة، كان فيها وقعة الحميمة، جاء الأمير قاسم الحسيني بعسكر من المدينة، وأغار على جدة، وخرج له صاحب مكة قتادة، والتقوا بين القصر والحميمة، وكانت الكسرة على قاسم، وكان ذلك يوم النحر في هذه السنة.
٤

الحملة الصليبية الرابعة

سنة ٥٩٩-٦٠٥هـ - ١٢٠١-١٢٠٤م

قادة الحملة: مجموعة من الإقطاعين الفرنسيين بقيادة بلدوين تيبو الثالث وبونيفاس دي مو منتسرات

سبب الحملة ومسارها:

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة **صلاح الدين** - رحمه الله - في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م. فمنذ وفاته دعا **البابا أنوسنت الثالث** إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين.

فدعا في منتصف سنة ١١٩٨م - ٥٩٤هـ إلى حملة صليبية رابعة، واستجاب له عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وإن كانت الغلبة للعنصر الفرنسي.

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقوادها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة **مصر** أولاً ثم بيت المقدس بعد ذلك.

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع **فينيسيا (البندقية)** لتمدهم بالسفن، واحتشد الصليبيون في **البندقية** في صيف ١٢٠٢م - ٥٩٩هـ، غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمناً لهذا التعاون أن يهاجموا مدينة (زارا) ويستردوها من ملك هنغاريا (المجر)، واستجاب الصليبيون لذلك، على الرغم من غضب البابا وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيراً.

وبينما الصليبيون يستعدون للاتجاه نحو مصر؛ إذا بثورة تشب في القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحق الثاني، فيفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالباً المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضاً في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد **مصر الأيوبية**.

وصادف ذلك هوى في نفس البابا، ومصلحة لدى البنادقة، وتشفياً من الصليبيين في الدولة البيزنطية. فاتجهت جموع الصليبيين إلى **القسطنطينية** واستولت عليها ١٢٠٤م، وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها، حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس **والجامع القديم الذي بني في عهد بني أمية** وقاموا بسلب المدينة. واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ إنشائها.

ولقد كان من نتائج هذه الحملة؛ أن فترت همة المحاربين في الحروب الصليبية التالية، لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروباً دينية، كما زعمت الكنيسة.

بيد أن هذه الحملة عمقت هوة الخلاف بين نصارى الشرق ونصارى الغرب، وجعلت الطريق البري إلى

الشام أشد وعورة وأعظم خطراً.

كما أغرت هذه الحملة كثيرين من فرسان الصليبيين في الشام، إلى أن يتركوا الشام ومتاعبه، ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنأوا بحياة مستقرة.

وبالجملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين في الشرق الإسلامي وزعزعت مكانتهم.

لذلك قرر أحد مؤرخي الحروب الصليبية: ((أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها)).

الهجوم الصليبي على القسطنطينية

في أغسطس ١٢٠٢ م، وصل إلى **البندقية** القائد الأعلى للصليبيين بونيفاس دي مونفيرات، وتواطأ بونيفاس مع دوق البندقية على تحويل الهجوم ، ففي ٨ أكتوبر ١٢٠٢م أبحر أسطول الصليبيين من البندقية واحتل زارا المجرية التي دافعت دفاعاً مستميتاً، عن كيانها المهدد من قبل الحملة الصليبية الرابعة. وأصبحت زارا تحت حكم البندقية. لذلك أعرب الكرسي الأعلى في الكنيسة عن غضب يليق بالحادثة، ولكنه لم يتخذ إجراءات فعلية، فهدد بحرمان الفرسان من الكنيسة، ولكن الهجوم كان إلى حد ما في مصلحته، فكان وسيلة لتوحيد الكنيسة تحت رايته، فكان تأكيده لتحريم الاستيلاء على أملاك الروم (بيزنطة) مشوباً بفجوات مثل "إلا إذا شرعوا يقيمون دون تبصر العوائق أمام حملتكم" . وفي ٢٤ مايو ١٢٠٣م ، غادر الأسطول كورفو التي كانت محطة له إلى القسطنطينية.

في القسطنطينية واجه الصليبيون خصماً ضعيفاً، فبيزنطة أرهقتها الحملات السابقة، والأتاوى والضرائب المتزايدة وتناقصت واردات الدولة، فوصلوا إلى شواطئها في ٢٣ يونيو ، وبدأت العمليات العسكرية في ٥ يوليو ١٢٠٣م، ففر إمبراطور بيزنطة الكسيوس الثالث، وعملياً استسلمت القسطنطينية البالغ تعداد سكانها زهاء ١٠٠ ألف في ١٧ يوليو ١٢٠٣م . وجرى تقسيم بيزنطة بين الصليبيين والبندقية ودمرت آثار ثقافة عريقة، وأصبحت أحداث ١٢٠٢-١٢٠٤ تظهر الصليبيين على صورتهم الحقيقية القائمة على الجشع المادي المتلبس بالدين؛ بعد أن كانت كما يزعمون أمراً إلهياً باسم الكنيسة.

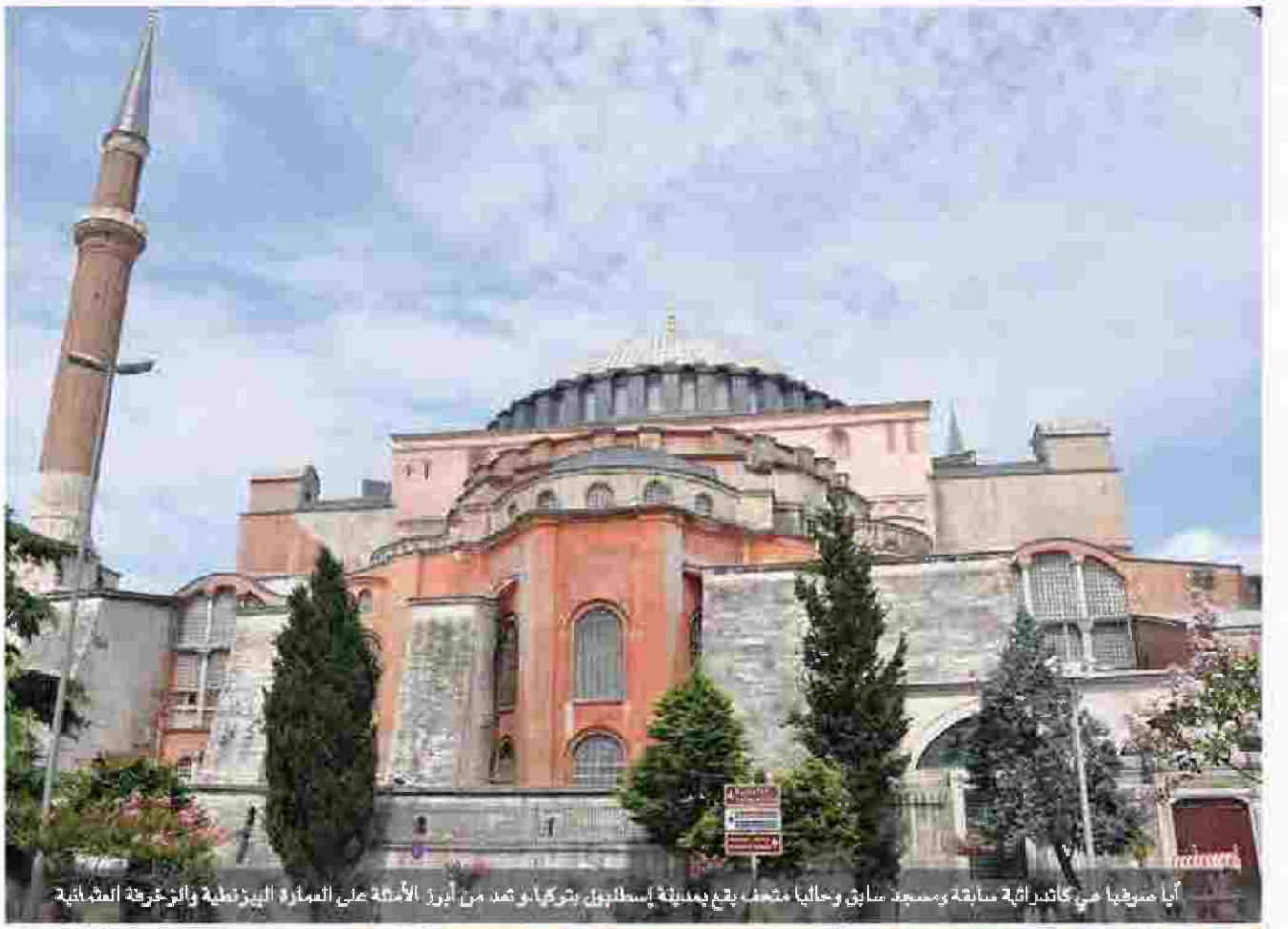

آيا صوفيا هي كاتدرائية سابقة ومسجد سابق وحاليا متحف يقع بمدينة إسطنبول بتركيا، وتعد من أبرز الأمثلة على العمارة البيزنطية والزخرفة العثمانية

لقطة داخلية للقبة والأروقة ويظهر بها الزخارف الإسلامية التي صنعت في أثناء الوجود العثماني فيها، ويرى المؤلف في الصورة الأولى.

اضطراب الوضع بعد الحملة الصليبية الرابعة

لم تستقر الأمور بين المسلمين والصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة - على الرغم من الاتفاقات والمعاهدات - ذلك أن الصليبيين أسرع إلى نقض العهود والغدر والخيانة وتلك طبيعتهم .

فقد أراد الإسبتارية في حصن الأكراد أن يستولوا على مدينة حمص سنة ٦٠٤ هـ ١٢٠٧ م ، فتكررت هجماتهم عليها حتى وصلوا إلى أسوارها فاستنجد صاحب حمص آنذاك أسد الدين شيركوه الثاني، بالملك الظاهر صاحب حلب، فسير له إليه عسكراً منع عنه الصليبيين. وفي شتاء ١٢٠٧ م - ٦٠٤ هـ ، استولى قراصنة صليبيون من قبرص على سفن مصرية وأسروا من فيها، فخرج إليهم السلطان العادل على رأس جيش قاصداً عكا وانتهى الأمر برد أسرى المسلمين.

ثم اتجه العادل إلى حصن الأكراد لإبعاد خطر الإسبتارية عن حمص فعسكر عند بحيرة قدس قرب حمص ، وجمع هناك قوة من عدد من الأمراء ثم أعلن أنه يقصد طرابلس بينما قصد حصن الأكراد فهاجمه وأسر خمسمائة رجل وغنم وإن كان لم يستطع الاستيلاء على الحصن لمناعته.

ثم زحف العادل إلى طرابلس واستولى في طريقه إليها على حصن القليعات ولكنه أطلق سراح حاكمه. وقد أدت حروب العادل هذه إلى أن يسرع بوهيمند الرابع صاحب طرابلس، إلى طلب الصلح فأجابه العادل إلى ذلك. كما أن الملك حنّا برين عقد معاهدة مع السلطان العادل مدتها ست سنوات من ١٢١١ - ١٢١٧ م ، ٦٠٨ - ٦١٤ هـ ، وإن كان حنّا هذا أخذ يدبر مع الصليبيين حملة لغزو مصر عقب انتهاء الهدنة مباشرة؛ فأخذ يراسل روما ويطلب إعداد هذه الحملة. وما إن انتهت الهدنة حتى كانت دعوة حنّا برين قد أثمرت، وبدأت الجموع الصليبية تشق طريقاً نحو الشرق لحملة صليبية خامسة.

الإسبتارية

بدأ ظهور فرسان مالطة عام ١٠٧٠م، كهيئة داعمة، أسسها بعض الإيطاليين، لرعاية مرضى النصارى، في مستشفى (قديس القدس يوحنا) قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس، وظل هؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلامية، وقد أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى أو الإسبتارية باللغة الإيطالية تمييزاً لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في القدس آنذاك مثل فرسان المعبد (الداوية) و"الفرسان التيوتون" وغيرهم، إلا أنهم ساعدوا الغزو الصليبي فيما بعد. وكان التزايد الكبير في أعداد الوافدين النصارى إلى مدينة القدس قد زاد في بداية القرن الحادي عشر لاتجاه بعض الإيطاليين الحصول على حق إدارة الكنيسة اللاتينية من حكام المدينة المسلمين، وكان يلحق بهذه الكنيسة مستشفى للمرضى والحجاج يسمى مستشفى "قديس القدس يوحنا" كذلك استطاع تجار مدينة "أمالفي" ١٠٧٠ م تأسيس جمعية داعمة في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بالأجانب، ومن اسم المستشفى أطلق عليهم اسم فرسان الإسبتارية في اللغة العربية ، ولم يلبث أولئك الإسبتاريون أن دخلوا تحت لواء النظام الديني البندكتي المعروف في غربي أوروبا، وصاروا يتبعون بابا روما مباشرة بعد أن اعترف البابا باسكال الثاني بتنظيمهم رسمياً في ١٥ فبراير ١١١٣ م، وهكذا أصبح نظامهم يلقى مساندة من جهتين: تجار أمالفي وحكام البيروقانس في فرنسا. وعندما قامت الحروب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م تم الاستيلاء على القدس أنشأ رئيس المستشفى (جيرارد دي مارتيز) تنظيماً منفصلاً

أسماه "رهبان مستشفى قديس القدس يوحنا" وهؤلاء بحكم درايتهم بأحوال البلاد قدموا مساعدات قيمة للصليبيين خاصة بعد أن تحولوا إلى نظام فرسان عسكريين بفضل ريموند دو بوي (خليفة مارتيز) الذي أعاد تشكيل التنظيم على أساس عسكري مسلح باركه البابا (أنوسنت الثاني) ١١٣٠، حتى قيل "إن الفضل في بقاء مدينة القدس في يد الصليبيين واستمرار الحيوية في الجيوش الصليبية يعود بالأساس إلى فرسان الإسبتارية بجانب فرسان المعبد، وقد كان تشكيل تنظيم الإسبتاريين ينقسم إلى ثلاث فئات: فرسان العدل الذين هم من أصل نبيل (نبلاء) وأصبحوا فرساناً. القساوسة الذين يقومون على تلبية الاحتياجات الروحية للتنظيم. إخوان الخدمة وهم الذين ينفذون الأوامر الصادرة إليهم.

قلعة الحصن أو حصن الأكراد، هي قلعة تقع ضمن سلاسل جبال المناطق السورى غربي حمص بـ ٦٠ كم، وفي ١١٤٤م، قام ريموند الثاني أمير طرابلس بتسليمها إلى فرسان القديس يوحنا المعروفين بالإسبتارية أو فرسان المشفى، ومنذ ذلك الحين بدأ المكان يعرف باسم حصن الفرسان، وقد أعاد الإسبتارية بناء الدفاعات الجديدة للقلعة، وقاموا بترميمها بعد الزلزال الذي أصابها عام ١١٥٧م وتعد من أجمل القلاع الصليبية في الشرق.

قلعة الفرسان (الإسبتارية)

لهذا الحصن ثلاثة أبواب مقوسة على الشمال، ويحتاز بأبراجه الدائرية ويتكئ من جانبين، الأرسي ويضم فسحة سماوية تتصل بها الأبنية والمدابر وقلعة الإحتماءات، والقنصية والمطعم والممرات والمقاعد، والذي ويحتوي على أسطح مكشوفة ومداوج وأبراج، ويرى في هذه الصورة مؤلف ويضم الأطلس أمام برج القائد في الدير العلوي.

قلعة الحصن قلعة لعبت دوراً رياديا في أحداث الحروب الصليبية وكانت واحدة من أكثر المواقع الصليبية صموداً.

أنشئت قلعة الحصن في العام ١٠٢١م، على يد أمير حمص، حيث وضع حامية كردية في الموقع، وأسماه **حصن الأكراد**. سقط الموقع عام ١٠٩٩م، بيد الأمير الصليبي **ريموند دي صنجيل**، الذي شن الحملة الأولى على المسلمين قرب الموقع، واحتله لفترة وجيزة في ١١٠٢م، لكن أمير حمص استعاد الموقع من الصليبيين ١١١٠م، بيد أن **تانكريد** أمير أنطاكيا الصليبي احتل القلعة وألحقها بكونتية **طرابلس**، ومنذ ذلك الحين باشر ببنائها على الطراز القائم حالياً. تمتاز القلعة بلون حجارتها الكلسية التي كانت تجلب من مسافة ٤ / كم / من بلدة مجاورة تدعى (عمار الحصن) وميزة الحجر الكلسي أنه طيع في أثناء النحت وخفيف الوزن.

دولة المماليك في الهند (٦٠٢هـ - ٦٨٩هـ)

يعد **المماليك في الهند** من موالي السلطان محمد الغوري، الذي برز من بينهم **قطب الدين أيبك** الذى نصب نفسه سلطاناً بعد وفاة السلطان محمد الغوري وبذلك بدأت الدولة المملوكية في الهند. اشتهر قطب الدين في حكمه بحسن معاملة الناس وإقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك، وعمل على إقرار الأمن في كل نواحي بلاده، وحرصه على قيام العدل بين الناس. وبنى قطب الدين أيبك بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدلهي، والآخر بأجمير. وفي (٦٠٧هـ) توفي قطب الدين أيبك فخلفه أحد قواده وهو شمس الدين التمش أو اللمش.

بنى قطب الدين أيبك في فترة حكمه بعض المساجد الشهيرة في الهند مثل المسجد الكبير الذي شيده في دلهي، واشتهرت منارته التي لا تزال معروفة للآن باسم "قطب مينار" أو منارة قطب، وفي ذكرى فتحه دلهي أسس قطب الدين مسجد (قوة الإسلام) وهو من أشهر المساجد في الهند، وبعد وفاة قطب الدين أيبك وتولية التمش الملك ثارت عليه بعض الفتن من الهنادكة والأمراء الذين لم يرضوا بحكمه، ولكنه تمكن من القضاء على جميع الفتن التي أثارها بعض الأمراء الهنادكة والخارجين على حكمه. وفي سنة (٦١٨هـ) تعرضت الهند لخطر داهم من قبل المغول يقودهم جنكيز خان، وفي (٦٢٦هـ) أعلن **الخليفة العباسى المستنصر بالله** تنبيته للتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين، وكان من أثر ذلك أن قوى مركز التمش بين مسلمى الهند قوة عظيمة.

واشتهر عن التمش أنه كان محباً للعدل حتى إنه جعل للمظلومين جرساً في قصره يطرقه المظلوم ثم جعل اللون الأحمر هو اللون المميز لملابس المظلومين. وفي (٦٣٣هـ) توفي التمش وكان قد أوصى لابنته رضية دون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم الهند لكن رجال البلد عهدوا بالحكم لابنه فيروز شاه وكان لأمه شاه تركان نفوذ كبير في الحكم، وكان حكمها استبدادياً أدى إلى غضب الأمراء الذين التفوا حول الأميرة رضية بنت التمش، فاستطاعت أن تجلس على عرش أبيها، وتمكنت من أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها، ولكن ثارت حولها شائعات فانقلب عليها الأمراء يحاربونها بزعامة أخيها بهرم شاه الذي جلس على كرسي الحكم بعد مقتل أخته رضية.

وفي عام (٦٣٩هـ) أقبل المغول على البنجاب واستطاعوا أن يخربوا لاهور دون مقاومة تذكر، وتولى الحكم مسعود شاه حفيد التمش سنة (٦٤٣هـ)، وفي عهده دخل المغول الهند من جديد بقيادة مانكو وتوغلوا في السند حتى تصدى لهم (بلبن) قائد جيش المسلمين فأنزل بهم خسائر فادحة.

وفي عام (٦٦٤هـ) رقى الوزير والقائد بلبن - الذي تلقب بغياث الدين- إلى العرش وعمل على استعادة الهيبة والنفوذ لمنصب السلطان بعد ضعف السلاطين من أبناء التمش. وعمل بلبن على إقرار الأمن الداخلي وتأمين الطرق والمسالك من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا كثرة، كما عمل على تنظيم وتدعيم قواته لمواجهة الخطر المغولي. ويقول عنه ابن بطوطة "إنه بنى داراً سماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه، ومن دخلها خائفاً أمن، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضي عنه أولياء المقتول، ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضى من يطلبه"، وتوفي غياث الدين بلبن سنة (٦٦٤ هـ) فتولى من بعده ابنه محمد الذي خرج لدفع خطر المغول عن لاهور فقاتله رماحهم، وكان قد أوصى بالملك من بعده لحفيده كيخسرو، ولكن رجال البلاط نصبوا الأمير كيقباذ مكانه، وكان كيقباذ ضعيف الشخصية إلى جانب صغر سنه مما أدى إلى سيطرة أصحاب الأهواء على الحكم وحدوث الفتن والقلاقل داخل القصر.

وفي سنة (٦٨٩هـ) اجتاح الخلجيون "دلهي" وسيطروا عليها ثم قتلوا كيقباذ، وبذلك انتهى سلطان المماليك في الهند وبدأ حكم سلاطين الخلجيين.

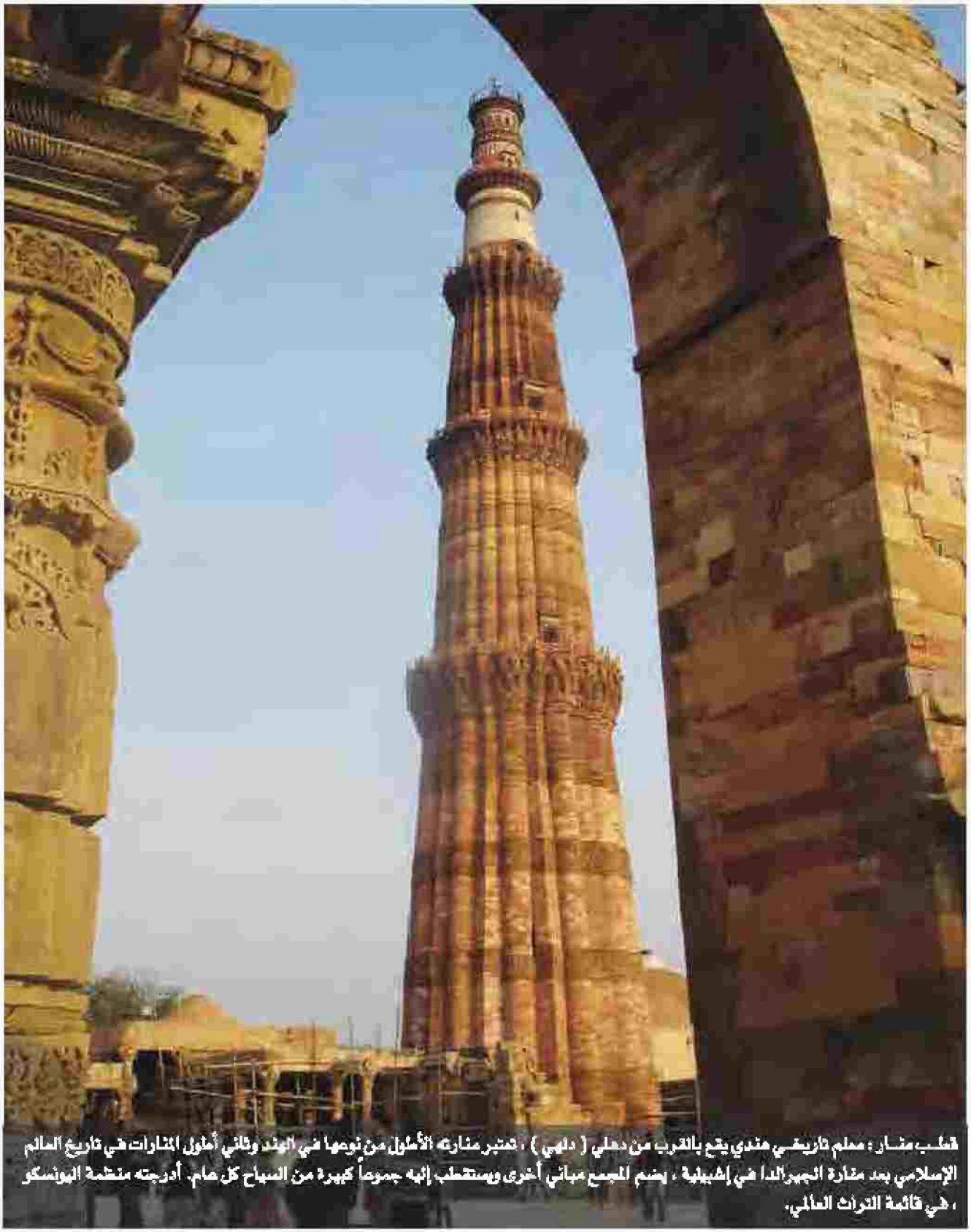

قطب منار : معلم تاريخي هندي يقع بالقرب من دهلي (دلهي) ، تعتبر منارته الأطول من نوعها في الهند وثاني أطول المنارات في تاريخ العالم الإسلامي بعد مئذنة الجيرالدا في إشبيلية ، يضم المجمع مباني أخرى ويستقطب إليه جموعاً كبيرة من السياح كل عام. أدرجته منظمة اليونسكو ، في قائمة التراث العالمي.

أراد قطب الدين أيبك، أول حاكم من سلسلة من المماليك تركي الأصل، ممن ساهموا في نشر الاسلام في شمالي الهند، الذين أسسوا سلطنة دلهي، أن يخلد عهده، فقام بيده أعمال بناء قطب منار عام ١١٩٢ م، لم تسعفه الظروف في إكمال العمل الذي انتهى عند المستوى الأول فقام خليفته (التمش) بإضافة ثلاثة مستويات أخرى، ثم قام فيروز شاه تغلق عام ١٣٦٨ م. بإضافة المستوى الخامس وهو آخرها.

معركة حصن العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)

تُعد **معركة حصن العقاب** فاتحة الانهيار الشامل لقواعد الأندلس الكبرى، فبعد الانتصار الباهر الذي حققه الموحدون حكام الأندلس والمغرب على صليبي الأندلس في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ، ركن الصليبيون للمهادنة انتظاراً للفرصة السانحة للوثوب مرة أخرى، وكان ألفونسو الثامن منذ هزيمة الأرك الساحقة يتوق إلى الانتقام لهزيمته وغسل عارها الذي جلل سيرته خلال فترة حكمه، فلما اشتعلت ثورة «بني غانية» وهم من أولياء دولة المرابطين التي كانت تحكم الأندلس والمغرب قبل الموحدين، في شرقي الأندلس وشمالي إفريقيا انشغل زعيم الموحدين «الناصر لدين الله» بقمع هذه الثورة، وذلك منذ سنة ٥٩٥هـ حتى سنة ٦٠٧هـ، وهي السنة التي قرر فيها ألفونسو الثامن الهجوم على الأندلس مرة أخرى.

بدأ ألفونسو الثامن حملته الصليبية على الأندلس بإزالة الخلافات العميقة بين ممالك إسبانيا النصرانية الثلاثة (قشتالة. ليون. أراجون) التي كانت سبباً مباشراً لهزيمة الصليبيين المدوية في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ، ثم قام ألفونسو الثامن بطلب المعونة والمباركة من بابا روما، وهو البابا «أنوسنت الثالث» وكان يضطرم بروح صليبية عميقة ويجيش بأحقاد عظيمة تجاه المسلمين الذين أفشلوا الحملات الصليبية على الشام وحرروا بيت المقدس، فوافق البابا على ذلك الطلب وأعلن شن حرب صليبية ضد مسلمي الأندلس، بعدها بدأت التحرشات الإسبانية.

كان لاستئناف نصارى إسبانيا لغزواتهم المخربة في أراضي الأندلس أثر بالغ في الدولة الموحدية قرر معه الخليفة الموحدي «الناصر لدين الله» العبور إلى بلاد الأندلس، فأرسل كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة كلها بالنفير للجهاد ضد الصليبيين وإعداد العدة اللازمة لذلك، في شعبان سنة ٦٠٧ هـ خرج الناصر بجحافل جرارة تقدر بمئات الآلاف وهذه الضخامة كانت في النهاية سبباً مباشراً للهزيمة.

وصلت الجيوش الموحدية **لإشبيلية** في آخر ذي الحجة سنة ٦٠٧هـ، وهناك انضم إليه أعداد كبيرة من جنود الأندلس وأصبحت الجيوش في حالة تعبئة كاملة، وحدد الناصر هدف الهجوم. وهو قلعة شلبطرة في جبال الشارات «سييرامورنيا الآن»، وكانت هذه القلعة بيد فرسان المعبد الصليبي، وكانت نقطة إغارة دائمة للصليبيين على المدن الإسلامية بالأندلس، فطوق الموحدون القلعة وضربوها بالمجانيق حتى فتحوها بعد ٥١ يوماً من الحصار[1].

كان لفتح هذه القلعة أثر شديد في قلوب الصليبيين خصوصاً ألفونسو الثامن للأهمية الكبيرة لهذه القلعة، فقرر الهجوم على **قلعة رباح** وكانت نظيرة قلعة شلبطرة في الأهمية والمكانة عند المسلمين، وقد

---

١ - موقع مفكرة الإسلام على الشبكة العنكبوتية.

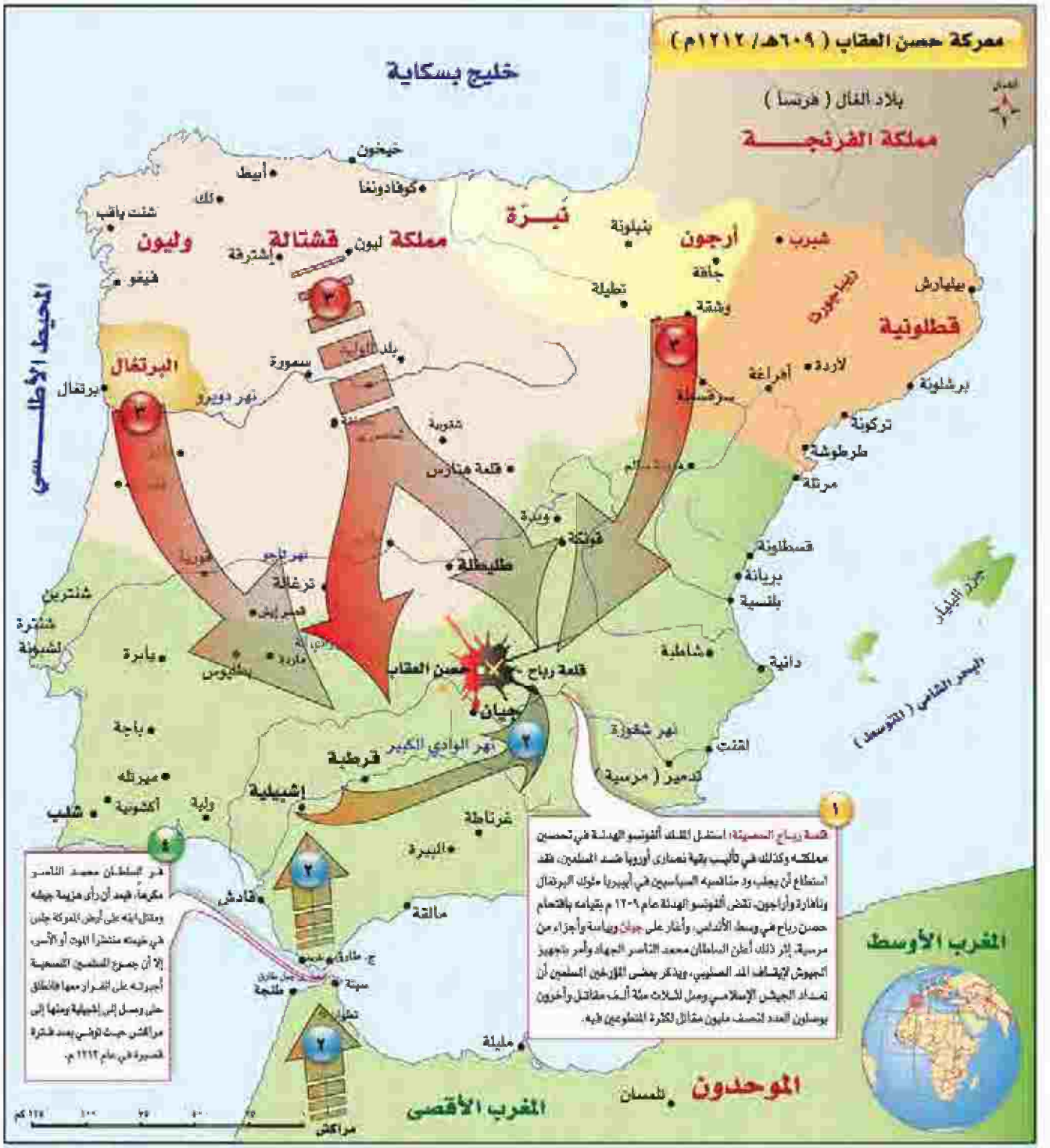

معركة حصن العُقاب : معركة وقعت في ١٦ يوليو ١٢١٢ م/ ٦٠٩ هـ شكلت نقطة تحول في تاريخ شبه جزيرة أيبيريا، حينما تجمعت قوات الملك ألفونسو الثامن من قشتالة ومنافسوه السياسيين سانتشو السابع من نافارة وألفونسو الثاني من البرتغال وبيدرو الثاني من أراجون ضد قوات الموحدين حكام الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبيرية ومناطق واسعة من شمال وغربي إفريقيا. بعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس على يد النصارى وسقوط معظم أجزائها في إفريقيا على يد القوى المحلية قامت **دولة المرينيين** على أراضي دولة الموحدين وقاموا بعدة معارك في بلاد الأندلس ولكن النصر لم يكن حليفهم فيها.

انضم لألفونسو آلاف المتطوعين من فرنسا وألمانيا وهولندا وإنجلترا ومجموعة كبيرة من الأساقفة والرهبان، إضافة للفرسان **الإسبتارية والداوية** الذين انتقلوا من الشام إلى الأندلس لحرب المسلمين، وأمر البابا أنوسنت الثالث في روما بالصوم ثلاثة أيام التماساً لانتصار الجيوش الصليبية على مسلمي الأندلس، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الرهبان والراهبات إلى **ارتداء السواد** والسير حفاة في مواكب دينية بخضوع وتمهل ومن كنيسة إلى أخرى، وجاشت نفوس الأوروبيين كافة بروح صليبية عارمة. هجم الصليبيون بشدة على قلعة رباح وشددوا عليها الحصار حتى أجبروا حاميتها الصغيرة على الاستسلام نظير الأمان، وقد أدى هذا الأمان لغضب الصليبيين الفرنجة الذين جاءوا من أوروبا الذين أرادوا ذبح الحامية الإسلامية ورفض أي تسوية سلمية تحقن دم المسلمين، وتنامى هذا الغضب حتى انشق كثير منهم وتركوا ألفونسو الثامن وعادوا إلى بلادهم.

وقعت حادثة كان لها أسوأ الأثر على معنويات الجيوش الإسلامية، ذلك أن الناصر لدين الله قام بإعدام «ابن قادس» قائد حامية قلعة رباح ومن معه من الفرسان، لاعتقاده أنهم قد فرطوا في الدفاع عنها، فتأثر الكثيرون بهذا الأمر وأصابهم الغضب وأضمر الأندلسيون الغدر عند اللقاء وبيتوا الفرار عند الحرب الذي أدى في النهاية لكارثة العقاب.

استعد الفريقان للصدام المرعب، وكان الناصر الموحدي مزهواً بنفسه واثقاً من النصر لحد الغرور المهلك نظراً لضخامة الجيوش الموحدية « قرابة النصف مليون »، وكانت ثنية العقاب عند سفح جبال الشارات بالقرب من « مدريد »، حالياً هي موضع القتال الذي اندلع في ١٥ صفر سنة ٦٠٩هـ، وهجم الموحدون بكل قوتهم على صفوف الصليبيين الذين صمدوا بروعة لهجوم الموحدين، ثم أخذوا في التراجع والانهزام أمام الموحدين، وبدا النصر قريباً، ولكن كان الهجوم الخاطف الذي قاده ألفونسو الثامن بنفسه على ميمنة الموحدين ثم تلاه هجوم مماثل على ميسرة الموحدين قام به ملك أراجون، فاضطرب جناحا الجيش الإسلامي واختلطت صفوفهم، وعندها قام الأندلسيون بتنفيذ خطتهم في الفرار من أرض المعركة، وحاول الناصر الموحدي عبثاً تنظيم صفوف جيشه ولكنه فشل وكاد أن يقتل هو نفسه، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للموحدين قتل فيها عشرات الآلاف، منهم معظم المتطوعين من المغاربة وقبائل العرب.

وكانت هذه الهزيمة الساحقة أول مسمار في عرش دولة الموحدين الكبيرة وإيذاناً بانهيار مملكتهم الواسعة وحول ميزان القوى بالأندلس لصالح الإسبان، وقد عم الابتهاج والفرح في أنحاء أوروبا، وأقيمت صلوات شكر في الكنائس تقدمها أنوسنت الثالث نفسه[1].

١ - موقع مفكرة الإسلام

قلعة رَبَاح بالأندلس (سميت نسبة إلى رباح، الأمير الذي حكمها في القرن الثامن الميلادي)

مرتسم تخيلي لموقعة العقاب بين جيش الموحدين والقوى الصليبية على الأرض الأندلسية

أنطلق فرديناند الثالث من قشتالة باتجاه قرطبة واستولى عليها عام ١٢٣٦م وجيان عام ١٢٤٦م وإشبيلية عام ١٢٤٨م ثم سقطت كل من آركوس وقادس وصيدا الأندلسية، وكان فرديناند الثالث بعد هذه الانتصارات يطمع إلى عبور مضيق جبل طارق وضرب دولة الموحدين في عقر دارها، إذ كانت تعاني الانقسامات والثورات، ولا يزال أثر الهزيمة فيها. لم يمنع فرديناند من التقدم سوى موته في إشبيلية عام ١٢٥٢م.

الحملة الصليبية الخامسة

سنة ٦١٤-٦١٨هـ - ١٢١٧-١٢٢١م

قادة الحملة :ليبو دوق النمسا، وأندريه الثالث ملك هنغاريا، بهمايو ملك قبرص

سبب الحملة ومسارها :

جدد البابا **هنريوس (أونوريوس) الثالث** دعوة البابا **أنوسنت الثالث** إلى حرب صليبية جديدة؛ بغرض استرجاع **بيت المقدس** من قبضة المسلمين الذين قاموا بتحريره، وتلبية لرغبة بعض الأمراء الصليبيين في بلاد الشام استجابت لندائه بعض الزعامات الأوروبية، حيث وصلت الحملة الصليبية إلى **قبرص** ثم إلى مملكة بيت المقدس (**عكّا**) وانهزموا فيها، ثم جاءت إمدادات أوروبية فتغير مسارها إلى **مصر** وبالتحديد في **دمياط** بقيادة بلاجيوس، والملك يوحنا دي برين ملك ما تبقى من بيت المقدس.

في سنة ٦١١ هـ، انعقد المجمع اللاتيني الرابع في روما، واتخذ سلسلة من القرارات المبدئية التي تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية بشكل عام ، وكان ذلك بداية تشكيل شكل من مؤسسة دائمة للحملات الصليبية، ووضع هذه المشاريع على أساس امتن ، وأمر الأساقفة والمدن، وفقاً لوضعهم الاقتصادي والمالي، بأن يقدموا للحملة مجموعة حربية ذللت عدداً معيناً من العناصر، ويؤمّنوا لها الأموال لمدة ثلاث سنوات. وقرر المجمع اللاتيني ضريبة استثنائية إلزامية لتأمين حاجات الحملات وذلك على شكل جزء من عشرين من الدخل السنوي، وكان على البابا وات والكرادلة أن يدفعوا ضريبة مزدوجة، أما الخارجون عن الطاعة فكانت الكنيسة تتخذ عقوبات كنسية صارمة ضدهم، وتم تنظيم حملات الوعظ ووضع الكتب التعليمية لأجل تهذيب الحملات الصليبية، وبذلك نظمت الحملات الصليبية تنظيماً مؤسسياً. تحددت سنة ٦١٢ هـ موعداً لبداية **الحملة الخامسة**، وخطط لها أن تنطلق من ميناء **برنديسي** الإيطالي، وكان من الملوك الذين أخذوا النذر الصليبي فريدريك الثاني الألماني، واندراش (أندره) الثاني المجري، ويوحنا بلا ارض الإنجليزي، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، ومات البابا **أنوسنت الثالث** والملك الإنجليزي يوحنا بلا ارض، على التوالي، الأول في ١٦ يوليو، والثاني في ١٦ أكتوبر من عام ١٢١٦م. فانتقلت البابوية وقيادة تنظيم الحملة إلى البابا **أونوريوس الثالث**، الذي عين القاصد الرسولي في قوات الصليبيين الكاردينال بيلاجيوس من البانو.

وكان الملك المجري إندرياش الثاني وأساقفة التحقوا به (معظمهم من جنوبي ألمانيا) وصلوا ما بين يوليو وأغسطس من سنة ٦١٧ هـ إلى سبليت، ولكنهم اضطروا للانتظار بسبب عدم كفاية السفن لنقل الفيالق الصليبية إلى جبهة القتال.

البابا أنوستت الثالث الداعي الأول للحملتين الصليبيتين الرابعة والخامسة

في عهد البابا أنوستت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) استطاع أن يلعب دوره ببراعة في السياسة العالمية لغربي أوروبا، وأن يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب، بل ونصارى الشرق أيضاً، ولعل ما أسهم به بشكل واضح في توجيه سياسة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ما يدل على ذلك، فقد ناصر الإمبراطور أوتو الأول ضد هوهنشتادفين وكان سلاحاً له الآخر، وفي فرنسا أخذ يمد أنوستت كذلك أنفه في شؤونها الداخلية في عهد ملكها فيليب أوغسطي، حتى إذا ما أراد الملك أن يقف موقفاً حازماً من البابوية إذا بالبابا أنوستت يوقع قراراً بحرمانه هو وبلاده وكان ذلك سنه ١٢٠٠م، مما أجبر الملك على الإذعان إلى البابا وإصلاح أموره معه حرصاً على مكانته في دولته، وفي إنجلترا لم تسر هي الأخرى من سلطة البابا أنوستت الثالث وعناده معها. وما كان من موقف الملك حنًا حول تعيين كانتربري سنه ١٢٠٧ وكيف أن البابا أصر على رفض مرشح الملك وأصدر ضده وضد بلاده قراراً بالحرمان سنه ١٢٠٨ – ١٢٠٩م، بل إن أنوستت استغث فيليب أوغسطي على غزو إنجلترا، ليوقع بين التجارتين فرنسا وإنجلترا، مما دفع الملك حنًا إلى أن يذعن أخيراً سنة ١٢١٣ لرغبة البابا أنوستت الثالث ويقبل شروطه وهو صاغر. د. يوافيم رزق مرقص، محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية

الزحف الصليبي على دمياط (مصر)

دعا البابا أنوسنت الثالث لحملة صليبية جديدة سنة ٦٠٩ هـ، التي أكمل دعوتها بعد موته البابا هنريوس (أونوريوس) الثالث، حيث أعلن أن هذه الحملة يجب أن تتجه نحو الشام مباشرة. ووصلت الحملة الصليبية إلى الشام في سنة ٦١٥ هـ، تحت زعامة ليبود السادس (دوق النمسا) وأندريه الثاني (ملك هنغاريا) ثم لحق بهما، بهمايهو (ملك قبرص). واجتمعوا في عكا، وقرروا البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التي شيدها العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل واتجه إليهم الملك العادل، ولكنه آثر الانسحاب من وجههم فاستولوا على بيسان، ثم عبروا الديار السورية وأوغلوا حتى وصلوا إلى نوى (وينسب إليها الإمام المحدث النووي، صاحب رياض الصالحين).

ووجه العادل اهتمامه إلى الدفاع عن دمشق وبيت المقدس، واتجه الصليبيون إلى قلعة الطور ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها ثم عاد ملك هنغاريا (المجر) إلى بلاده، حيث لم تحقق حملته مع ملك النمسا شيئاً سوى هدم حصن الطور الذي هدمه العادل بنفسه، لما رأى ما يجره عليه من عداء الصليبيين.

أما دعوة حنّا برين، لمهاجمة مصر لأنها عند الصليبيين هي مفتاح بيت المقدس، لذلك تدفقت جموع الصليبيين إلى الشام استجابة لدعوة البابا أنوسنت الثالث، والملك حنّا برين. وخرج حنّا برين لمهاجمة مصر ومعه تلك الجموع والإسبتارية والداوية والقبارصة قاصداً دمياط في ٦١٦ هـ ١٢١٨ م، وكان حنّا زعيم الحملة، ولم ينس الصليبيون أن يتصلوا بملك الحبشة النصراني، ليعاونهم في ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة. ووصلت سفنهم دمياط، وعلم الملك الكامل ابن الملك العادل بوصولهم، فأسرع بالتحرك نحو جنوبي دمياط.

بينما رسا الصليبيون على الضفة الغربية للنيل، وأخذ الصليبيون يهاجمون برج السلسلة ثلاثة أشهر ثم استولوا عليه في نهايتها، وقد حاول المسلمون إقامة العوائق في النيل حتى لا تدخله سفن الصليبيين ولكن الصليبيين أفسدوا هذه العوائق.

وانتظر حنّا برين في مواجهة الجيوش الإسلامية حتى جاءه مدد من أوروبا على رأسه الكاردينال (بلاجيوس) مندوب البابا والقائد الأعلى للصليبيين في حملتهم على مصر، وحاول الملك المعظم أن يشغل الصليبيين عن مصر فهاجم قيسارية واستولى عليها، لكنه لم يستطع المضي في الاستيلاء على ما يريد من القلاع والحصون، وتوفي الملك العادل في جمادى الثانية سنة ٦١٥ هـ- ١٢١٨ م، وخلفه ابنه الكامل في الحكم على مصر، وابنه الملك المعظم على دمشق . وفي شهر رجب من العام نفسه هاجم الملك الكامل الصليبيين في دمياط ولكن الصليبيين تغلبوا عليه، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى دبر الأكراد مؤامرة للإطاحة بالملك العادل ففر منهم، فلما رأى الجند فرار الملك تخاذلوا

وانصرفوا فعبر الصليبيون النيل إلى الضفة الشرقية وأصبح سقوط دمياط مسألة وقت، لكن وصول الملك المعظم لنجدة أخيه أخرت الأمر بعض الشيء.

وصادف ذلك جيوش جنكيز خان **للدولة الخوارزمية**، فاضطرب الكامل وأحس أن حماية الجبهة الإسلامية الشرقية من المغول عمل ضروري فعرض الصلح على الصليبيين، فرفض الصليبيون وبخاصة **بلاجيوس** مندوب البابا هذا الصلح، وإن قبله حنّا برين. فهاجم الصليبيون معسكر الكامل، وفشلوا في ذلك ومنوا بهزيمة ولكنهم ظلوا محاصرين لدمياط، وجاءتهم نجدة من الإنجليز والفرنسيين في حين ساءت الأحوال في مصر وغلت الأسعار (وأصبحت قيمة البيضة بدينار من الذهب) **فسقطت دمياط في أيدي الصليبيين سنة ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م**، وأعملوا القتل في أهلها والإفساد لكل ما فيها، ثم اتخذوا منها مركزاً وحصناً يهددون منه القاهرة ويتحكمون منه في شرقي البحر المتوسط. وفي ذلك الوقت كانت جيوش التتار قد وصلت إلى قرب بغداد، واستنجد **الخليفة العباسي** بالملك الأشرف أخو الملك الكامل، ولكن الأشرف اعتذر بأنه ذاهب لنجدة أخيه ضد الفرنج. وقد اغتر **الصليبيون** باستيلائهم على **دمياط** ورفضوا عروضاً من الملك الكامل كانت مغرية حقاً ليجلوا عن دمياط، فاتجهوا إلى مهاجمة **القاهرة** وتحركوا نحوها في أواخر يونيو ١٢٢١ م ، ٦١٩ هـ.

موقعة حصار دمياط سنة ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م

مرتسم تخيلي لهجوم الصليبيين على دمياط

مخطط معركة المنصورة في الحملة الصليبية الخامسة

في ٣٠ مايو ١٢١٨م، وصلت طلائع الحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنّا دي برين أمام دمياط واستطاعت الحملة الاستيلاء عليها، ونجحوا لمدة ١٦ شهراً، وبعد أن تم الاستيلاء على دمياط وتحصينها تقدموا لمنازلة جيش الملك الكامل الذي تجمع أمام المنصورة وكان يفصل بين الجيشين فرع دمياط وبحر أشمون، وقطع الملك الكامل الطريق بين الفرنجة ودمياط وشيد تحصينات قوية على النيل جنوب دمياط، وطلب الصليبيون الصلح على أن يخرجوا من دمياط والبلاد كلها .. ورحل الصليبيون إلى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط وأرسلت البشائر بتحرير دمياط إلى جميع الدول الإسلامية.

الجيش الصليبي

بحر أشمون

نهر النيل (فرع دمياط)

المنصورة

الفرسان

الجيش الإسلامي

المشاة

القوة الاحتياطية

٠ ٥ ١٠ كم

كان الملك الكامل الأيوبي قد؛ نقل معسكره إلى فارسكور حيث خيم بالمنزلة الجديدة التي شيدها على الشاطئ الشرقي للنيل (المنصورة) وجمع الملك الكامل وأخواه المعظم والأشرف كل قوة يمكنهم جمعها واستعدوا لمواجهة الصليبيين. **وعرض الملك الكامل على الصليبيين عرضه من جديد.** ولكنهم أبوا وشرعوا في التحرك نحو القاهرة وتقدموا وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات: هي بحيرة المنزلة من الشرق، وفرع دمياط من الغرب، والبحر الصغير من الجنوب. ووقفت السفن الإسلامية في النيل لتسد الطريق عليهم وتمنعهم من الاتصال بمركزهم في دمياط، وكان وقت الفيضان للنيل، فقطع المسلمون السدود فغرقت أكثر الأرض المحيطة بالصليبيين ولم يبق لهم للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق ملأه الملك الكامل بالقوات العسكرية التي أخذتهم وهم يحاولون العودة على دمياط.

وساء موقف الصليبيين وتجمدوا عند البرامون فلا يستطيعون المضي ولا العودة ولا يستطيعون القتال في الوحل؛ فطلبوا الصلح هذه المرة، خانعين طالبين النجاة بأنفسهم فقط؛ فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك بشرط أن يرسلوا له **برهائن من الملوك** حتى يسلموا دمياط للمسلمين، وجلوا عن دمياط في رجب سنة ٦١٨ هـ – سبتمبر ١٢٢١ م، ودخلها الملك الكامل والمسلمون. **وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة التي دعا إليها حنّا برين، والبابا أنوسنت الثالث وعادت من غزو مصر بالخزي والمذلة والانسحاب.**

قال الأدريسي في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»: ... وأهل خوارزم مياسير، وأهل مروة ظاهرة، وهم أكثر الناس أسفاراً، وأوسعهم أموالاً، وترتفع منها ثياب القطن والصوف وسائر الأمتعة الكثيرة تحمل إلى سائر الجهات، ولسان أهل خوارزم لسان منفرد بذاته، وهم أهل غلظة ونجدة، والأعزاز يهابون سطواتهم، ويحذرون من مصادرتهم، وتقع إليهم من بلاد الغزية والخزر المواشي والدواب والرقيق والأوبار مثل الفنك والسمور والثعالب والأرانب وغير ذلك من أصناف الوبر.

سيطر الخوارزميون على ممتلكات دولة الغور في طخارستان (أفغانستان)، ثم امتدت الدولة من حدود العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.

أقصى مدى للمملكة الخوارزمية التركية في القرن السادس الهجري

الخلافة العباسية في بغداد

تبعية الحجاز الاسمية للعباسيين في العصر العباسي الرابع

المملكة الخوارزمية
الإمبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى
الأيوبيون ثم المماليك

الدولة الغورية
بقايا الاحتلال الصليبي
الإسماعيليون (الحشاشون) في ألموت
الأيوبيون
العيوبيون

الاحتكاك بين الدولتين: تجاورت الدولتان القويتان، ولم يكن هناك مفر من الصدام بينهما، وكان كل منهما ينتظر الفرصة للانقضاض على الآخر، وحدث ما لم يكن منه بد، فالتقى السلطان محمد خوارزم وهو في طريقه إلى إحدى الغزوات بفرقة من الجيش المغولي كان يقودها "جوجي بن جنكيزخان"، وعلى الرغم من ضخامة جيش الخوارزميين، فإنه لم يفلح في تحقيق نصر حاسم على تلك الفرقة لمهارتها في القتال وأساليبها المبتكرة في الحرب التي اندهش لها الجيش الخوارزمي. وكان لهذا اللقاء أثر في نفس السلطان الخوارزمي، فاستشعر الخوف من هؤلاء الجيران الجدد، ولم يأمن غدرهم، فبدأ يتابع أخبارهم، ولما وصلت إليه أنباء استيلاء جنكيزخان على بكين لم يصدق هذه الأخبار، وأرسل وفداً إلى بكين للوقوف على جلية الأمر، ومقابلة جنكيزخان، فلما وصل إلى هناك استقبلهم وأحسن وفادتهم وبعث معهم برسالة ودية إلى السلطان الخوارزمي. وبدلاً من أن ينصرف السلطان إلى تقوية دولته والقضاء على المغول الذين يهددون دولته أو مسالمتهم، **انصرف إلى النزاع مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله**، وطمع في أن يكون له الهيمنة على بغداد والخلافة العباسية كما كانت لسلاطين السلاجقة، فحرك جيوشه الجرارة تجاه بغداد، لكن الأمطار الغزيرة والمواصف الشديدة تكفلت بالأمر وتصدت له، فمات عدد كبير من جند الخوارزميين وهلكت خيولهم، واضطر السلطان إلى العودة إلى بلاده سنة (٦١٤هـ = ١٢١٧م)، يجر أذيال الخيبة والفشل وكانت هذه أول صدمة قاتلة قابلته منذ أن ولي الحكم في سنة (٥٩٦هـ = ١١٩٩م).

حادثة قتل التجار: رجع السلطان بعد فشل أمله في السيطرة على بغداد إلى بلاد ما وراء النهر، واستقبل هناك وفداً من تجار المغول المسلمين يحملون رسالة من جنكيزخان إلى السلطان يعرض عليه إبرام معاهدة تجارية بين البلدين فوافق السلطان على مضض، بعد أن شعر أن الرسالة تحمل في طياتها التهديد والوعيد، وكان في السلطان أنفة وكبرياء، فأسّرها في نفسه وإن لم يبدها في الحال. ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد قدم جماعة من التجار من رعايا جنكيزخان إلى مدينة "أترار" التابعة للدولة الخوارزمية، فارتاب فيهم "ينال خان" حاكم المدينة دون تثبت، وبعث إلى السلطان الخوارزمي يخبره بالأمر، ويشكوكه فيهم، فبعث إليه يأمره بالقبض عليهم وقتلهم باعتبارهم جواسيس من قبل جنكيزخان. وكان من الطبيعي أن تسوء العلاقة بين الدولتين بعد الحادث الطائش الذي أقدم عليه السلطان، دون أن يدري أن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار كلفت المسلمين سيلاً من الدماء لم ينقطع لفترة طويلة، وأرسل جنكيزخان إلى السلطان يطلب منه تسليم حاكم "أترار" ليحاكمه ما دام قد تصرف من تلقاء نفسه دون أن يرجع إليه، لكن السلطان رفض احتجاج جنكيزخان، ولم يلجأ إلى اللين والتلطف، وتملكته العزة بالإثم فأقدم على قتل الوفد الذي يحمل الرسالة دون بصر بعواقب الأمور، قاطعاً كل خيط لإحلال السلام محل الحرب.

الاستعداد للحرب: كان قتل الرسل يعني إعلان الحرب بين الدولتين وقطع كل أمل لحسن الجوار وحدوث السلام، فأخذ كل فريق يستعد للآخر، وشرع السلطان الخوارزمي يستطلع أخبار المغول، ويجهز الجيوش، ويبني الأسوار حول المدن، ويفكر في رسم الخطط الحربية، حتى صار لا يتكلم إلا في موضوع الحرب الذي شغل قلبه، وفي الوقت نفسه كان **جنكيزخان** يستعد للصدام المرتقب بينهما، فجهز جيوشه، وأعد أسلحته، وحشد كل ما يمكن حشده. وبعد أن أكمل جنكيزخان استعداداته انطلق بجيشه نحو بلاد ما وراء النهر في خريف سنة (٦١٦ = ١٢١٩) وهو يعتقد أنه سيقابل خصماً قوياً، يحسب له ألف حساب، وبدلاً من أن يخرج الجيش الخوارزمي لملاقاة المغول استقر رأي قادته على ترك المغول يعبرون نهر سيحون، واصطيادهم بعد ذلك في بلاد ما وراء النهر التي لا يعرفون مسالكها، بحيث تنقطع الإمدادات عنهم.

الإعصار المغولي: بلغ جنكيزخان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار في رجب (٦١٦ = ١٢١٩) ولم يشأ أن يهاجم الخوارزميين من جهة واحدة، بل من جهات متعددة تربك استعداداتهم، وتشتت وحدتهم، فقسم جيشه الذي يبلغ ما بين مائة وخمسين ألفاً إلى مائتي ألف جندي إلى أربعة جيوش: **الأول** بقيادة ابنيه جغتاي وأوكتاي ومهمته فتح مدينة أترار. **والثاني** بقيادة ابنه جوجي وهو الابن الأكبر لجنكيز خان، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون. أما **الثالث** فمهمته الاستيلاء على مدينتي بنكات وخوقند على نهر سيحون. والجيش **الرابع** كان تحت قيادة جنكيزخان، ويتألف من معظم الجيش المغولي ويضم القوى الضاربة، وكانت وجهته مدينة بخارى الواقعة في قلب إقليم ما وراء النهر، وكانت مهمة هذا الجيش هي التصدي لقوات الخوارزميين، والحيلولة دون وصولهم إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق. وقد نجحت الجيوش الثلاثة فيما وكل إليها من مهام، فسقطت مدينة أترار، بعد أن صمدت للحصار شهراً كاملاً، وأبلى حاكمها بلاءً حسناً في الدفاع حتى فقد معظم رجاله، ونفدت المؤن والأقوات، ولم تكن المدن الأخرى بأسعد حالاً من أترار فسقطت هي الأخرى أمام الجيشين الثاني والثالث.

سقوط بخارى وسمرقند: أما الجيش الرابع الذي ضم معظم قوات المغول، فقد تحرك إلى بخارى تلك الحاضرة العظيمة، وهاجم المدينة بضراوة شديدة، ودارت معارك عنيفة بين الجيش الموكل بالدفاع عن المدينة وقوات المغول لمدة ثلاثة أيام، انهارت بعدها قوى الخوارزميين ولم يكونوا قليلي العدد، بل كانوا عشرين ألف مقاتل، وشعروا باليأس، فقرروا الانسحاب ليلاً، وتمكنوا من اختراق الجيش المغولي الذي يحاصر المدينة، وأجبروه على الارتداد، ولو أنهم صبروا وتابعوا عدوهم المتقهقر لكان خيراً لهم، ولكنهم آثروا السلامة تاركين المدينة المنكوبة لقدرها المحتوم أمام هجمة المغول المتوحشة، فاجتاحت المدينة الآمنة كالجراد المنتشر في (ذي الحجة ٦١٦ هـ فبراير ١٢١٩م)، وقاتلوا من اعتصم بقلعتها، وطردوا أهلها بعد

أن سلبوا ما في المدينة من أموال، ثم أعملوا السيف فيمن بقي بداخل المدينة، وأنهوا عملهم الوحشي بإحراق المدينة فأصبحت قاعاً صفصفاً بعد أن كانت درة متلألئة بين حواضر العالم الإسلامي. وبعد أن أجهز جنكيزخان على بخارى اتجه إلى سمرقند حاشرة إقليم ما وراء النهر، وضرب حولها حصاراً شديداً، ودار قتال عنيف هلك فيه أكثر الجند الخوارزمي ما أضعف مقاومة أهل سمرقند فطلبوا الأمان نظير تسليم المدينة، فأجابهم المغول، وما إن دخلوا المدينة المنكوبة حتى أعملوا فيها السيف بعد أن جردوهم من أسلحتهم، وأحرقوا المدينة ومسجدها على من فيه من الناس.

نهاية السلطان محمد خوارزم شاه، كانت الهزائم التي لقيها السلطان الخوارزمي قاسية، ولم تكن من قلة في العدد والعتاد، ولكن كانت من سوء قيادة، وفرقة في الصف، وحب للدنيا، وتقاعس عن الجهاد، وخور في العزيمة، ووهن في النفس، فانهار البناء الضخم، وسقطت الدولة المترامية في سنوات قليلة، ولم يعد أمام السلطان سوى التوجه إلى مكان آمن يعيد فيه تنظيم جيشه ويعاود الجهاد حتى يسترد ما فقده، لكنها كانت أحلام بددها إصرار جنكيزخان على تتبع السلطان الفار من بلد إلى آخر، وجند المغول تطارده، حتى انتهى به المطاف إلى همدان في نحو عشرين ألفاً من جنوده. وفي هذه الأثناء تمكن المغول من السيطرة على إقليم خوارزم، أهم ولايات الدولة، وأسروا تركان خان والدة السلطان ومن معها من أبنائه وبناته، فلما قُدّموا إلى جنكيزخان أمر بقتل أبناء السلطان محمد بن خوارزم وكانوا صغار السن، وزوّج أبناءه وبعض رجاله من بنات السلطان . حمادة شرقاوي، الدولة الخوارزمية، موقع الخط العربي.

موقع منغوليا في قارة آسيا

بلغ القائد المغولي جنكيزخان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار في رجب (٦١٦ = ١٢١٩) ولم يشأ أن يهاجم الخوارزميين من جهة واحدة، بل من جهات متعددة تربك استعداداتهم، وانقسم جيشه الذي يبلغ ما بين مائة وخمسين ألفاً إلى مائتي ألف جندي إلى أربعة جيوش:

١ بقيادة ابنيه جغتاي وأوكتاي ومهمته فتح مدينة أترار.

٢ بقيادة ابنه جوجي وهو الابن الأكبر لجنكيزخان، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون.

٣ الاستيلاء على مدينتي بخارى وخوقند على نهر سيحون.

٤ بقيادة جنكيزخان، ويتألف من معظم الجيش المغولي ويضم القوى الضاربة، وكانت وجهته مدينة بخارى الواقعة في قلب إقليم ما وراء النهر، وكانت مهمة هذا الجيش هي التصدي لقوات الخوارزميين، والحيلولة دون وصولهم إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق.

سقوط المملكة الخوارزمية على أيدي القوات المغولية سنة ٦١٦ هـ

الخلافة العباسية في بغداد

تبعية الحجاز الاسمية للعباسيين في العصر العباسي الرابع

المملكة الخوارزمية
الإمبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى
الأيوبيون ثم المماليك

الدولة النورية
بقايا الاحتلال الصليبي
الإسماعيليون (الحشاشون) في ألموت
الأيوبيون
العيونيون

ميدان ريجستان من معالم سمرقند

في سنة (٨٧هـ- ٧٠٥ م) تم الفتح الإسلامي لمدينة "سمرقند" على يد القائد المسلم "قتيبة بن مسلم الباهلي" ثم أعاد فتحها مرة أخرى سنة (٩٢هـ- ٧١٠م).. وبعد الفتح الإسلامي قام المسلمون بتحويل عدد من المعابد إلى مساجد لتأدية الصلاة، وتعليم الدين الإسلامي لأهل البلاد.. وفي بداية الغزو المغولي للمدينة؛ قام "المغول" بتدمير معظم العمائر الإسلامية، وبعد ذلك اتجه "المغول" أنفسهم بعد اعتناق الإسلام إلى تشييد العديد من العمائر الإسلامية، خاصة في العهد التيموري، وذلك على مدى (١٥٠) عاماً هي فترة حكمهم لبلاد ما وراء النهر من (٦١٧هـ- ١٢٢٠م) إلى عام (٧٧٢هـ- ١٣٧٠ م).. وقد اتخذ "تيمورلنك" "سمرقند" عاصمة لملكه، ونقل إليها الصُنّاع وأرباب الحرف لينهضوا بها فنياً وعمرانياً، فكان عصر "تيمور لنك" بحق عصر التشييد والعمران.

استخدام الخط العربي وإبراز فن المقرنصات

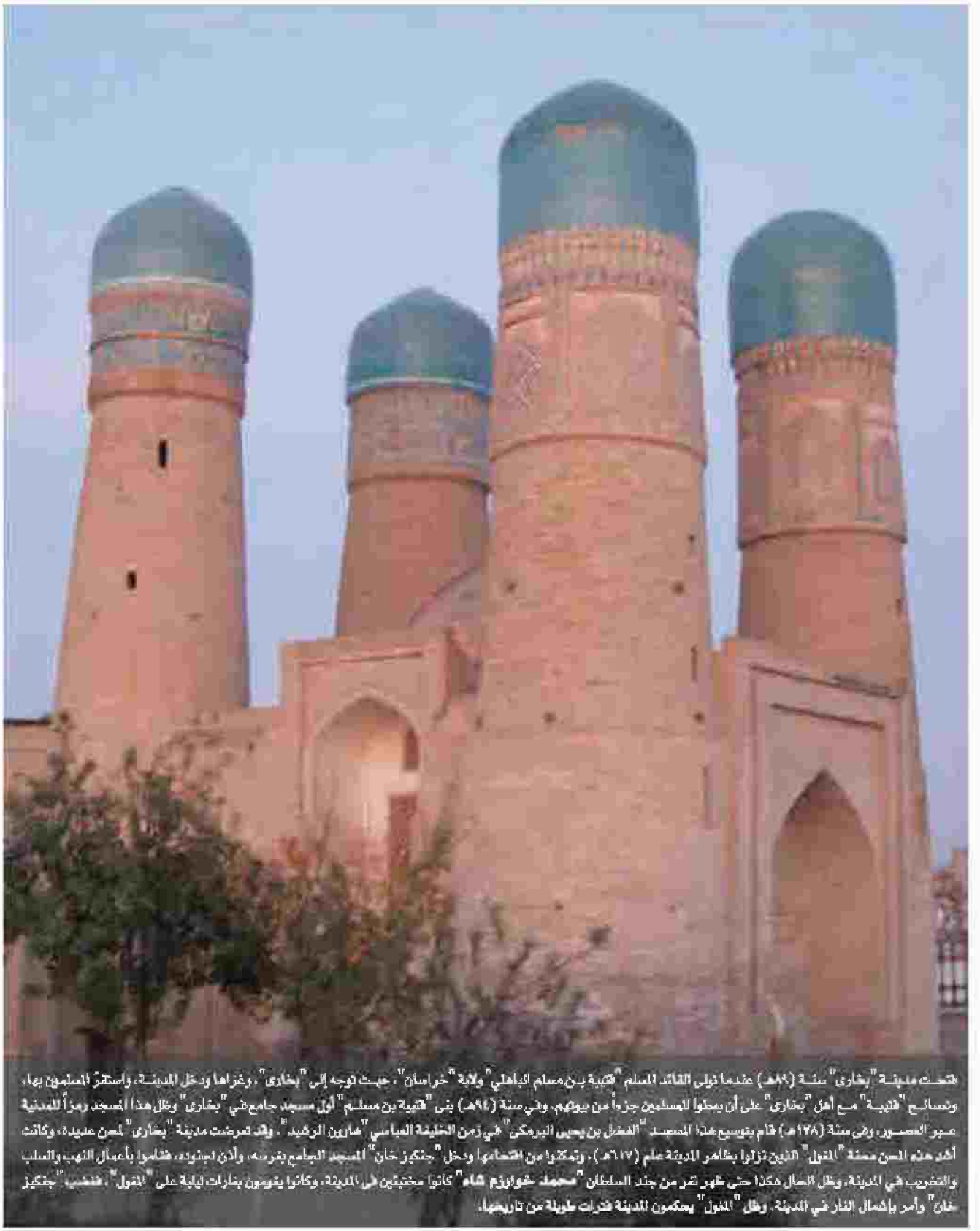

فتحت مدينة "بخارى" سنة (٩٠هـ) عندما تولى القائد المسلم "قتيبة بن مسلم الباهلي" ولاية "خراسان"، حيث توجه إلى "بخارى"، وغزاها ودخل المدينة، واستقرّ المسلمون بها، ونسائج "قتيبة" مع أهل "بخارى" على أن يعطوا المسلمين جزءاً من بيوتهم، وفي سنة (٩٤هـ) بنى "قتيبة بن مسلم" أول مسجد جامع في "بخارى". وظل هذا المسجد رمزاً للمدينة عبر العصور، وفي سنة (١٢٨هـ) قام بتوسيع هذا المسجد "الفضل بن يحيى البرمكي" في زمن الخليفة العباسي "هارون الرشيد". ولقد تعرضت مدينة "بخارى" لحصن عديدة، وكانت أشد هذه المحن محنة "المغول" الذين نزلوا بظاهر المدينة عام (٦١٧هـ)، وتمكنوا من اقتحامها ودخل "جنكيز خان" المسجد الجامع بفرسه، وأذن لجنوده، فقاموا بأعمال النهب والسلب والتخريب في المدينة، وظل الحال هكذا حتى ظهر نصر من جند السلطان "محمد خوارزم شاه" كانوا مختبئين في المدينة، وكانوا يقومون بغارات ليلية على "المغول"، فغضب "جنكيز خان" وأمر بإشعال النار في المدينة. وظل "المغول" يحكمون المدينة فترات طويلة من تاريخها.

الحملة الصليبية السادسة

سنة ٦٢٥ - ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩م

قادة الحملة: فريدريك الثاني

سبب الحملة ومسارها:

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة؛ تدهورت أحوال الصليبيين في المشرق فأخذ **البابا** يلح على الإمبراطور **فريدريك الثاني** لإعداد حملة صليبية جديدة تستعيد هيبة الصليبيين والكنيسة الغربية فتقاعس الإمبراطور لذلك مما أدى إلى إصدار قرار كنسي بحرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة، فخشي الإمبراطور من غضب البابا فخرج ملبياً طلبه مستغلاً الانشقاق داخل البيت الأيوبي والفرصة الذهبية التي أتته من العادل !؟

لقد كان لتضامن أبناء السلطان الأيوبي (العادل) الثلاثة: الكامل محمد، والمعظم عيسى، والأشراف موسى؛ أثره الواضح في تحقيق النصر في دمياط، وإفشال الحملة الصليبية الخامسة بقيادة "حنّادي برين"، وكان المأمول أن يظل هذا التحالف قوياً، لكن ذلك لم يحدث، فانفرط العقد، وانكفأ كل واحد منهم حول ذاته، يعظّم من شأن مصالحه ومكاسبه دون النظر إلى مصلحة أمته؛ فشبّ صراع بين الكامل وأخيه السلطان المعظّم عيسى صاحب دمشق.

واستعان كل واحد منهما بقوة خارجية لمؤازرته في مواجهة الآخر، فاستنجد الملك المعظّم؛ بالسلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية، في حين استعان السلطان الكامل بالإمبراطور فريدريك الثاني صاحب صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غربي أوروبا. وكان الثمن الذي أعلنه السلطان الكامل للإمبراطور فريدريك هو تسليمه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل

الكامل والتفريط في بيت المقدس

أرسل السلطان الكامل مبعوثه الأمير "فخر الدين يوسف" بهذا العرض إلى الإمبراطور فريد ريك الثاني، فأحسن فريدريك استقباله في صقلية. ورد على السلطان بسفارة مماثلة، وقد دعم هذا العرض السخي ما كان يعتمل في نفس الإمبراطور من القيام بحملة صليبية إلى الشام، وقطع تردده في النهوض بهذه المهمة التي كان يستحثه البابا جريجوري التاسع على النهوض بها: فغادر صقلية في (رجب ٦٢٥هـ = حزيران ١٢٢٨م) قاصداً بلاد الشام، معلياً نفسه بيت المقدس، ويمجد يحققه يظل التاريخ الأوروبي يلهج بذكره.

وكانت تلك الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية بالحملة الصليبية السادسة من أعجب الحملات : فلم يتجاوز أفرادها ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، وكأن الإمبراطور فريدريك جاء إلى الشام ليفاوض لا ليحارب، أو أتى إلى الشرق في نزهة جميلة، وتحققت أمنيته.

الـذي أعلنه السلطان الكامل للإمبراطور فريدريك هو تسليمـه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحـل الشامـي، وذلك مقابل مساعدته في حربه ضد أخيه المعظّـم، ويا له من ثمن غالٍ في مقابل هدف غير نبيل.

وإذا كان السلطـان الكامـل قد عرض تسليم القدس للصليبيين مقابل الجـلاء عن دمياط، فإنه قد يلتمس له البعض العذر فيما أقدم عليه؛ فإن هول المصيبة قد أطاش بلبّه، وأعجزه عن التفكير السليم، ولكن ليس له عذر في عرضه الثاني، فضلاً عن كونه لا يملك الحق في هذا التنازل أصلاً ، وهذا من أعجب مـا يقابلـه الإنسان في تصفحه للتاريخ الإسلامي : تفريـط دون حاجة، وتنازل مقابل أهداف غير نبيلة. وعندما وصل إلى "عكّا" وجد الأمور على غير ما يتمنى، فالسبب الذي من أجله استدعاه السلطان الكامل قـد زال وانتهـى، فالملـك المعظّم عيسى الذي كان يعمل علـى التوسع على حساب إخوته وأهـل بيته قد توفي، فلـم تعـد هنالك حاجـة تدعو السلطـان الكامـل إلى الوفاء بوعـده للإمبراطـور فريدريك، بعـد أن اقتسم الأخـوان الكـامل محمـد والأشـراف موسى ممتلكات أخيهما المعظّم عيسـى مثير القلاقل، وعادت الأمور في البيت الأيوبي إلى الهدوء والاستقرار إلى حد ما[1].

---

١ - أ. أحمد شلبي، الكامل، والتفريط في بيت المقدس، في ذكرى عقد معاهدة تسليمه ٢٢ ربيع الأول ٦٢٦ هـ.

سلاح المفاوضات الاستعطافي وتسليم بيت المقدس

الإمبراطور فريدريك الثاني

ساء موقف الإمبراطور فريدريك الثاني من تغير الأوضاع، ولم يبق له سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف، لتحقيق الهدف الغالي والأمل المنشود؛ فأرسل سفارة إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة، وتطلب منه الوفاء بما تعهّد به للإمبراطور، وتسليم بيت المقدس له، وكان طبيعيا أن يرفض السلطان الكامل هذا الطلب بعدما تبدلت الأحوال التي ألجأته إلى القيام بهذا العرض، غير أن رفض السلطان زاد من إصرار الإمبراطور على تكرار الطلب، والمبالغة في استمالة السلطان واستعطافه إلى حد التذلل والبكاء، وبلغ به الأمر إلى أنه كتب للسلطان الكامل في أثناء المفاوضات: **"أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم !... فإن رأى السلطان أن ينعم عليّ بقبضة البلد والزيارة، فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"**.

أفلحت هذه السياسة وأثمرت استعطافات فريدريك في استمالة قلب السلطان الكامل، وكان رجلاً متسامحاً، ففرّط فيما لا يملكه، وتسامح فيما لا يجوز التسامح فيه، ووافق على تسليم بيت المقدس دون أن يبذل الإمبراطور في الاستيلاء عليه قطرة دم، أو ضربة سيف، أو طعنة رمح، وإنما فاز ببيت المقدس بدمعة عين، وخداع نفس، وحقق ما عجز عن تحقيقه ريتشارد قلب الأسد بجيوشه الضخمة وإمكانياته الكبيرة.

اتفاقية يافا المخزية

١ - الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وصيدا، وقسم من دائرة صيدا وطورون (تبنين حالياً).

٢ - أن تبقى مدينة القدس على ما هي عليه، فلا يُجدّد سورها، وأن يظل السور بما يضمه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة بأيدي المسلمين، وتُقام فيه الشعائر، ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط.

مستند اتفاقية يافا بين الملك الكامل وفريدريك الثاني
أحفظ المسلمون هذه الوثيقة على الدرع الإسلامي في المتحف البريطاني

في ١٨ مارس ١٢٢٨ م، توّج فريدريك الثاني نفسه بنفسه في كنيسة القيامة، فقد رفض رجال الدين تتويج الإمبراطور المحروم من الكنيسة، وفرضت البابوية منعاً لممارسة الطقوس الدينية في القدس، ودفع البابا مواليه إلى ممتلكات فريدريك في إيطاليا، فأسرع فريدريك إلى المغادرة ونشب صراع مسلح ضد الحبر الأعظم، وألحق الهزيمة بالبابا؛ وفي سنة ١٢٣٠ م، ألغى البابا الحظر عن فريدريك وصادق في السنة التالية على معاهداته مع المسلمين.

لقد تمكن الصليبيون من اغتصاب المدينة المقدسة نحو تسع وتسعين سنة، منذ اغتصابهم الأول لها حتى استردادها منهم من قبل الخوارزمية، وذلك في فترات متقطعة على النحو التالي:

... - من عام ١٠٩٩ - عام ١١٨٧ أي ٨٨ سنة وهي الفترة التي قامت فيها المملكة اللاتينية التي انتهت بتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي.

... - من عام ١٢٢٩ - عام ١٢٣٩ أي ١٠ سنوات وهي مدة المعاهدة الفردريكية الكاملية (اتفاقية يافا).

موقف المسلمين من اتفاقية يافا:

استنكر المسلمون المعاهدة الكاملية - الفردريكية (اتفاقية يافا) التي قضت بتسليم القدس الشريف إلى الصليبيين، ومن مظاهر ذلك الاستنكار ما حدث بدمشق، فقد بكى الناس فيها على ما جرى في بيت المقدس وزاد سخطهم على الملك؛ بسبب تحريض ابن أخيه الملك الناصر صاحبها، وبسبب دروس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي مؤلف كتاب (مرآة الزمان عن فضائل بيت المقدس) فاجتمع في الجامع الأموي بدمشق عدد من الناس وعلت أصواتهم. واشتد بكاؤهم وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة بلغت أبياتها ثلاثمائة بيت منها :

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

هكذا استقبل المسلمون نبأ تسليم المدينة المقدسة بالأسى والحزن، وعم السخط أرجاء العالم الإسلامي، ويصور المقريزي ما حل بالمسلمين من ألم بقوله: "فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان.. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار".

ولما أحس السلطان الكامل أنه تورط مع الإمبراطور الصليبي؛ أخذ يهوّن من أمر تسليم بيت المقدس، ويعلن أنه لم يعط الصليبيين إلا الكنائس والبيوت الخربة، على حين بقي المسجد الأقصى على حاله.. غير أن هذه المبررات لم تنطل على أحد من الناس.

وظل بيت المقدس أسيراً في أيدي الصليبيين يشكو إلى الله ظلم الحكام وسوء تصرفهم، حتى نجح الخوارزميون في تحريره في (٣ من صفر ٦٤٢هـ = ١١ من يوليو ١٢٤٤م).

الدولة الرسولية في اليمن، ٦٢٦ - ٨٥٨ هـ/١٢٢٩ - ١٤٥٤م

تنسب هذه الدولة إلى **محمد بن هارون** صاحب المنزلة المميزة في **البلاط العباسي** إبّان سيطرة القائد **يوسف صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله** - على مصر وبلاد الشام.

كان الخليفة العباسي **المستضيء بالله** قد أرسله من بغداد إلى مصر عدة مرات بمهام خاصة، فعرف بلقب الرسول، ثم عمل وزيراً للأيوبيين بمصر، وكان أبناؤه وأحفاده محل ثقة الأيوبيين. وعلى إثر مغادرة الملك المسعود الأيوبي بلاد اليمن عائداً إلى القاهرة أوكل إلى نور الدين بن عمر مهمة الإشراف على إدارتها، فأعلن هذا استقلاله بها، واتخذ من **مدينة تعز** عاصمة له مستمداً شرعيته من الخليفة الظاهر بن الناصر العباسي.

وبعد وفاة نور الدين قام بالأمر من بعده ولده يوسف الذي مد نفوذه إلى مكة، وجرت بينه وبين أئمة الزيدية حروب طال أمدها، استمر عليها أبناؤه وأحفاده من بعده. وإلى بني رسول ينسب كثير من بناء المدارس والمساجد في كل من تعز وزبيد، وشهدت البلاد في عهدهم حركة علمية نشطة، ومن أبرز الأسماء التي لمعت في عهدهم علي بن الحسن الخزرجي صاحب المؤلفات التاريخية النفيسة ومجد الدين الفيروزأبادي صاحب قاموس «تاج العروس». بلغ عدد ملوك هذه الأسرة اثني عشر سلطاناً، آخرهم المسعود أبو القاسم بن الأشرف الذي تمرد عليه بعض أبناء عمه، فاضطربت أحوال اليمن، فانقض ولاتهم من بني طاهر، وأقاموا دولتهم على أنقاض الدولة الرسولية عند منتصف القرن التاسع

يرفع النسابون نسب الرسوليين إلى جبلة بن الأيهم الغساني، والغساسنة فرع من قبيلة الأزد اليمنية التي نزحت إلى شمالي الجزيرة بعد تهدم السد وسادوا في بلاد الشام، وفي أزمنة لاحقة سكن أحفاد ابن الأيهم بلاد التركمان وتكلموا لغتهم ومن هنا جاء الوهم عند بعض النسابة فجعلوهم تركماناً. أما الجد القريب للرسوليين فهو محمد بن هارون الذي استوطن العراق ودخل في خدمة أحد خلفاء بني العباس الذي وثق بحكمته وفصاحته فجعله رسوله إلى الشام ومصر حتى غلب عليه لقب رسول فصار علما عليه وعلى أسرته من بعده.

استقلال الرسوليين

أعلن الرسوليون استقلالهم عن الدولة الأيوبية في مصر في العام ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م وخطبوا للخليفة العباسي المعاصر لهم بعد أن طلبوا منه أمر نيابة مباشر عنهم في اليمن دون وساطة الأيوبيين، وكانت الخلافة العباسية في نزعها الأخير ولا تملك إلا الموافقة على طلبات من لا يزال يرى في غطائها الروحي أهمية لتوطيد ملكه، وهو بالضبط ما احتاج إليه الرسوليون الذين ظلوا على ولاء للخلافة العباسية ويخطبون في مساجدهم لآخر خلفائها المستعصم دهراً طويلاً بعد وفاة دولتهم في بغداد عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م على يد المغول، إذ يذكر الخزرجي مؤرخ بني رسول المعاصر والمتوفى عام ٨١٢ هـ/١٤٠٩م أن المستعصم: " هو الذي يدعى له على سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمئة " أي بعد مائة وستة وخمسين عاماً من انتهاء الخلافة العباسية ، وربما استمر بعد ذلك وإلى بدايات تصدع الدولة .

سيرد تفصيل هذه الدولة - إن شاء الله تعالى - في أطلس تاريخ العصر المملوكي

من آثار الدولة الرسولية بمدينة تعز اليمنية م . س (متصيات الأميرين الخاصة)

الدولة الحفصية ٦٢٦-٩٨١هـ /١٢٢٨-١٥٧٤م

ينتمي **الحفصيون** إلى قبيلة مصمودة البربرية، ومساكنها في جبال الأطلس. استمدت التسمية من أبي حفص عمر (١١٧٤-١١٩٥ م) أحد أجداد الأسرة ومن رجالات ابن تومرت الأوفياء. أصبح ابنه من بعده من عمال الموحدين على تونس. قام ابنه من بعده الأمير أبو زكريا الحفصي (١٢٢٨-١٢٤٩ م) بالاستيلاء على السلطة وأعلن استقلاله واستطاع أن يؤسس دولة خلفت الدولة الموحدية في المنطقة. قضى ابنه المستنصر (١٢٤٩-١٢٧٧ م) على الحملة الصليبية الثامنة (سنة ١٢٧٠)، - انظر الحملة الصليبية الثامنة من هذا الأطلس - ثم اتخذ لقب أمير المؤمنين. بعد وفاته تنازع أولاده الحكم. وجرت حروب طاحنة بينهم.

حقق قيام دولة الحفصيين لإفريقية سنوات من الازدهار والاستقرار وأصبحت مدينة **تونس** عاصمة للدولة ومركزاً ثقافياً وسياسياً. وأشاد أبو زكريا والمستنصر الكثير من القصور والمساجد والزوايا والقناطر والمكتبات، واجتذبا إلى البلاد الشعراء والعلماء من بقاع العالم الإسلامي. وكان للمهاجرين المسلمين من الأندلس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، مشاركة قيمة في النهوض بدراسات الأدب وفقه المالكية، منهم قاضي القضاة ابن الغماز وابن الأبّار وقد وفدا من بلنسية الأندلسية، وبنو عصفور من إشبيلية، وبنو خلدون أجداد ابن خلدون المؤرخ المشهور الذي ولد ونشأ في تونس .

بوفاة المستنصر تبدأ مرحلة من الاضطرابات والحركات الانفصالية استمرت من سنة ٦٧٥ إلى ٧١٨هـ/١٢٧٧-١٣١٨م، حين تولى السلطة أبو يحيى أبو بكر فأعاد للدولة الحفصية وحدتها. وسيرد تفصيل هذه الدولة أن شاء الله تعالى في كتابنا القادم (أطلس تاريخ العصر المملوكي).

دينار حفصي ضرب بين عامي ٦٢٥ هـ و٦٤٧ هـ / ١٢٢٨ و١٢٤٩ م في عهد السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى بن حفص

انظر خارطة الدولة ص ٣٧٣ من هذا الأطلس

الدولة الزيانية (٦٣٧-٩٦٢هـ/١٢٣٩-١٥٥٤م)

ينتمي **الزيانيون** بنو زيان أو زَيّان (ويعرفون كذلك ببني عبد الواد) وهي أسرة أمازيغية من نسل طاع الله بن علي من بني عبد الواد، أحد أحياء زناتة، حكمت المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) من القرن السابع إلى القرن العاشر للهجرة متخذة من مدينة تلمسان حاضرة لها.

مؤسس الأسرة يغمراسن بن زيان بن ثابت، تولى رئاسة مشيخة بني عبد الواد بعد وفاة أخيه زكراز بن زيان (ت٦٣٣هـ) الذي كان والياً على تلمسان للموحدين من بني عبد المؤمن. وقد تمكن يغمراسن بحنكته وقوة عزيمته وحسن سيرته في الرعية من إخضاع أكثر أحياء زناتة وحلفائها من بني هلال وقبائل العرب التي تقطن المغرب الأوسط، وأقام المسالح واستكثر من العسكر من الروم والغز، فقويت شوكته واستقل بالأمر في **تلمسان**، واتخذ الوزراء والكتاب، ولبس شارة الملك وتسلطن، مكتفياً بالدعاء على المنابر لخليفة الموحدين في مراكش.

اضطر يغمراسن بسبب سياسته هذه وطوال مدة حكمه إلى مواجهة خصوم أشداء من بعض أحياء زناتة المزاحمين له، خاصة بنو عبد المؤمن وبنو مرين في المغرب الأقصى وبنو حفص في إفريقيا (تونس)، وبنو توجين ومغراوة في المغرب الأوسط وغيرهم، وكانت له معهم أيام ووقائع كثيرة؛ إلا أنه تمكن من التغلب على جلّ خصومه، وقل جموعهم، وتوطيد أركان ملكه حتى وفاته على فراشه في إحدى غزواته على مغراوة سنة ٦٨١هـ. وتوالى على الحكم من بعده أربعة ملوك أقوياء من نسله، ابتداء من ابنه أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (٦٨١-٧٠٣هـ)، وخَلَفه على العرش حفيده أبو زيان محمد بن عثمان (٧٠٣-٧٠٧هـ)، ثم موسى ابن عثمان (٧٠٧-٧١٨هـ)، ومن بعده أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان (٧١٨-٧٣٧هـ) الذي قتل دفاعاً عن حاضـــرته تلمسان حين غزاها بنو مرين بقيادة السلطان «أبو الحسن» سلطان مراكش، واستولوا عليها بعد قتال ضارٍ، وكان سقوط المدينة إيذاناً بانتهاء الحقبة الأولى من حكم بني زيان أو بني عبد الواد. وسيرد تفصيل هذه الدولة إن شاء الله في كتابنا القادم (أطلس تاريخ العصر المملوكي).

انظر خارطة الدولة ص ٣٧٣ من هذا الأطلس

علم دولة الزيانيين في المغرب الأوسط (الجزائر)

دولة بني الأحمر ٦٣٠ – ٨٩٧ هـ، ١٢٣٣ – ١٤٩٢م

بنو الأحمر، دولة (٦٣٠ – ٨٩٧هـ ، ١٢٣٣ – ١٤٩٢م). دولة بني الأحمر آخر دول ملوك الطوائف الإسلامية الحاكمة في الأندلس. وتسمى أيضاً: مملكة غرناطة .كان سقوط الدولة الأموية بالأندلس عام ٤٢٢هـ، ١٠٣١م بداية دخول الأندلس في عصر الطوائف، الذي امتد إلى عام ٤٨٤هـ، ١٠٩١م، وتجاوز عدد ملوكه العشرين ملكاً أو أميراً. استقل كل أمير مقاطعة بما تحت يده وكان من أشهرهم: بنو عباد بإشبيليا، وبنو حمود الأدارسة بمالقا والجزيرة، وبنو زيري بغرناطة، وبنو هود بسرقسطة، وأقواهم بنو ذو النون بطليطلة ومرسية وألمرية.

قضى المرابطون على ملوك الطوائف بنهاية عام ٤٨٣هـ،١٠٩٠م. ولم تأت سنة ٤٩٥هـ، ١١٠٢م حتى كانت الأندلس تابعة لدولة المرابطين بإفريقيا. انظرص « » من هذا الأطلس. وما لبثت دولة المرابطين الأندلسية أن سقطت، فعادت الأندلس إلى أسوأ من حالتها أيام ملوك الطوائف. فقد صار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن، ثم اختفوا جميعاً بدخول الموحدين الأندلس وانتصارهم في موقعة الأرك سنة ٥٩١هـ، ١١٩٥م.

لم يمكث الموحدون طويلاً في الأندلس فقد أخرجوا منها عام ٦٢٣هـ، ١٢٢٥م، إثر موقعة العقاب. وأعلن ابن هود نفسه حاكمًا لأكثر بلاد الجنوب. وعندما مات انتقل حكم الأندلس إلى بني نصر (بني الأحمر)، أمراء غرناطة، سنة ٦٣٦هـ، ١٢٣٨م. « انظر الخارطة ص ٣٧٣ من هذا الأطلس »

وفي الفترة ما بين عام ٦٣٦ و٦٦٨هـ، ١٢٣٨ و١٢٦٠م استولى فرديناند الثالث، ملك قشتالة، وجايم الأول ملك أراغون على مدن بلنسية وقرطبة ومرسية وأشبيليا، وحصروا ملك المسلمين في غرناطة. وصمدت **دولة غرناطة (بني الأحمر)** أمام الأسبان قرنين ونصف القرن. ويرجع ذلك لعدة أسباب من أهمها:١- انحاز إليها معظم الجنود المسلمين الأشداء الذين فروا من المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي النصارى، وهبوا للدفاع عنها. ٢- كان منشأ دولة بني الأحمر عربياً من بني نصر يدعى محمد بن يوسف بن نصر، ولقب بابن الأحمر لشقرة فيه، وكان حازماً مقتدراً عادلاً سخياً وذا خلق كريم، وهي صفات حببته إلى الناس، وجعلتهم يلتفون حوله. ٣- موقع غرناطة الحصين بين جبال سييراتيفادا وساحل البحر من ألمرية إلى جبل طارق. ٤- استطاع ابن الأحمر، بمعاونة العلماء الذين وفدوا إليه من شتى المدن الإسلامية التي سقطت في أيدي النصارى، أن يستخرج المعادن لزيادة موارد الدولة المالية . الزراعية والتجارية .وتنفيذ مشروعات حضارية طموحة مثل تشييد المدارس وبناء قصر الحمراء الذي جاء آية في الجمال والإبداع. ٥- المساعدات العسكرية التي كانت تتلقاها غرناطة من أصدقائها أمراء بني مرين بالمغرب. وسيرد تفصيل هذه الدولة إن شاء الله في كتابنا القادم (أطلس تاريخ العصر المملوكي).

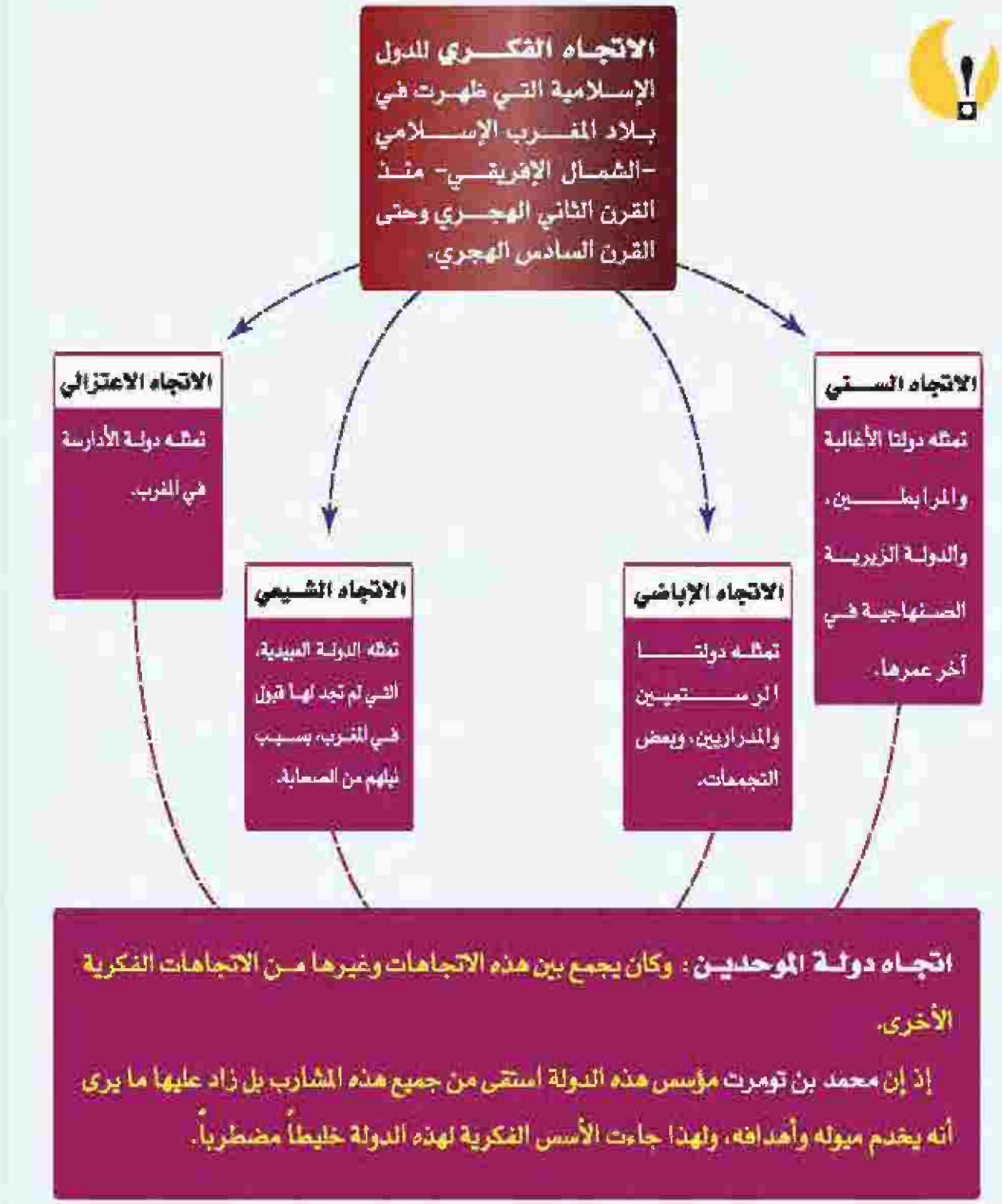
الاتجاه الفكري للدول الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي -الشمال الإفريقي- منذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن السادس الهجري.
الاتجاه الاعتزالي
تمثله دولة الأدارسة في المغرب.
الاتجاه السني
تمثله دولتا الأغالبة والمرابطين، والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها.
الاتجاه الشيعي
تمثله الدولة العبيدية، التي لم تجد لها قبول في المغرب، بسبب تيلهم من الصحابة.
الاتجاه الإباضي
تمثله دولتا الرستميين والمدراريين، وبعض التجمعات.
اتجاه دولة الموحدين: وكان يجمع بين هذه الاتجاهات وغيرها من الاتجاهات الفكرية الأخرى.
إذ إن محمد بن تومرت مؤسس هذه الدولة استقى من جميع هذه المشارب بل زاد عليها ما يرى أنه يخدم ميوله وأهدافه، ولهذا جاءت الأسس الفكرية لهذه الدولة خليطاً مضطرباً.

استرداد بيت المقدس على يد الملك الصالح أيوب

بعد وفاة السلطان الكامل محمد سنة (٦٣٥هـ= ١٢٣٨م) تعرضت الدولة الأيوبية في مصر والشام لخطر الانقسام والفوضى، فاستولى الصالح نجم الدين أيوب على دمشق سنة (٦٣٦هـ = ١٢٣٩م)، وكان هذا إيذاناً بدخوله في صراع مع أخيه السلطان العادل الصغير بن الكامل؛ الذي خلف أباه على حكم مصر والشام، واستعان كل منهما بأنصار من البيت الأيوبي للوقوف في وجه الآخر، وفي غمرة الصراع فقز عمهما الصالح إسماعيل على "دمشق" واستولى عليها، وطرد الصالح أيوب منها، الذي شاء له القدر أن يقع في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك، ثم لم يلبث أن أفرج عنه، واتفقا معاً على القيام بحملة عسكرية على مصر والاستيلاء عليها من قبضة العادل الصغير.

ولاية الصالح أيوب:

كانت الظروف مهيأة تماماً لنجاح حملة الصالح أيوب؛ فكبار أمراء العادل الصغير مستاءون منه لاحتجابه عنهم، وانشغاله باللهو واللعب عن تدبر شؤون الدولة؛ فقبضوا على سلطانهم اللاهي، واستدعوا أخاه الصالح أيوب لتولي مقاليد البلاد الذي دخل القاهرة في (٢٥ ذي الحجة ٦٣٧هـ= ١٧ يوليو ١٢٣٨م) وجلس على عرشها، واستأثر بها دون الناصر داود.

ولم يرض هذا الموقف الصالح إسماعيل صاحب دمشق، واستشعر الخطر بعد أن نمى إليه أن الصالح أيوب أراد أن يرضي حليفه الناصر داود صاحب الكرك، فاتفق معه على أن يساعده في الحصول على دمشق من الصالح إسماعيل الذي لم يجد قوة تقف إلى جانبه، **فسارع إلى التحالف مع الصليبيين ضد الصالح أيوب** في مصر والناصر داود في الأردن، وكان ثمن هذا التحالف غالياً، تعهد فيه بأن يعيد بيت المقدس إلى الصليبيين، ورجوع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قديماً قبل صلاح الدين.

ولم يضع الصالح إسماعيل وقتاً وقرن عرض الخيانة بالعمل، **فبادر إلى تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ومعها طبرية وعسقلان وعدد من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين**، وأثار هذا التصرف الأحمق غضب المسلمين ونقمتهم في مصر والشام وسائر أنحاء العالم الإسلامي ورفضت حاميات بعض القلاع تسليم الحصون والقلاع، وهو ما دفع الصالح إسماعيل إلى القيام بحملات لتأديب تلك الحاميات لرفضها تنفيذ أوامره، وكانت فرحة الصليبيين طاغية من هذا العمل الذي جاءهم دون أن يضربوا فيه سيفاً أو يخسروا نفساً، وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان، ورابطوا ما بين يافا وعسقلان.

ضرب تحالف الخيانة :

ولكي يغري الصالح إسماعيل جموع الصليبيين على الاستمرار في التحالف وعدهم أن يعطيهم جزءاً من مصر إن ملكها؛ فانطلقوا إلى غزة عازمين غزو مصر، وحضر لمعاونتهم في غزو مصر جيش الصالح

إسماعيل، جيش الملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص، غير أن القوات الإسلامية كان لها رأي آخر غير رأي قادتها السفهاء، فانضمت إلى الجيش المصري وأبت أن تقاتل إخوانها المسلمين، وكان لهذه الخطوة أثرها؛ فحلت الهزيمة بالصليبيين حين تقابل الفريقان، وقتل منهم أعداد كبيرة وسيق الأسرى إلى القاهرة. واضطر الصليبيون إلى عقد الصلح مع سلطان مصر، وإن ظل بأيديهم بيت المقدس وبعض القلاع التي تنازل عنها الصالح إسماعيل.

استرداد بيت المقدس:

ثم لم يلبث أن نشب النزاع مرة أخرى بين الصالحين إسماعيل ونجم الدين أيوب، ووقف الناصر داود هذه المرة مع الصالح إسماعيل، واتفقا على الاستعانة بالصليبيين ضد إخوانهم المسلمين، ولم يجد الصالح أيوب قوة تقف إلى جواره غير "الخوارزمية" الذين تمزقت بهم السبل بعد انهيار دولتهم ومقتل سلطانهم جلال الدين خوارزم شاه، فاستجابوا لدعوته، وقدموا بأعداد كبيرة إلى الشام، واتجهوا إلى دمشق فوجدوها قوية التحصين فتركوها، واستولوا على طبرية ونابلس، وواصلوا سيرهم حتى دخلوا مدينة بيت المقدس في (٣ صفر ٦٤٢هـ= ١١ يوليو ١٢٤٤م) واستولوا عليها دون مقاومة. وكانت هذه آخر مرة يسترد فيها المسلمون بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية. وظلت بأيدي المسلمين حتى سقطت في قبضة اليهود في عصرنا الحديث، وهي تنتظر الآن من يفك أسرها ويعيدها إلى حظيرة المسلمين، وندعو الله ألا يطول الانتظار ويعين من يعمل على عودتها.

حطّين الثانية:

وبعد أن استرد الخوارزميون بيت المقدس واصلوا سيرهم إلى "غزة" واجتمعوا مع الجيش المصري الذي أرسله الصالح أيوب لمحاربة قوات الشام ومن ناصرها من القوات الصليبية، وتقابل الفريقان في معركة غزة في (جمادى الأولى ٦٤٢هـ = أكتوبر ١٢٤٤م)، وكان اللقاء رهيباً، حلت الهزيمة بالصليبيين، وقدرت خسائرهم بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير، وكانت هذه الهزيمة أضخم كارثة حلت بالصليبيين بعد معركة حطّين سنة (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)، وبلغ من أثرها أن أطلق عليها "حطّين الثانية".

ولم يلبث أن انفصل الجيش المصري عن الخوارزميين الذين سمح لهم "الصالح أيوب" بالاستقرار في الشام على حساب الصليبيين، وواصل سيره، فأخذ القدس والخليل ودمشق وغيرها، ثم نازل الصليبيين، ونجح في استرداد قلعة طبرية (٦٤٥هـ= ١٢٤٧م)، ثم استولى على عسقلان في العام نفسه، وبذلك نجح الصالح أيوب في توحيد مصر والشام تحت سلطانه بعد أن أصبحت القاهرة ودمشق وبيت المقدس في قبضة يده، ووفد عليه في دمشق ملوك البيت الأيوبي بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة[1].

---

١ - أحمد تمام، موقع إسلام ويب.

الحملة الصليبية السابعة

سنة ٦٤٦ - ٦٤٨ هـ - ١٢٤٨ م - ١٢٥٠ م

قادة الحملة: لويس التاسع (ملك فرنسا)

سبب الحملة ومسارها:

كان لاسترجاع **بيت المقدس** من أيدي **الصليبيين** ردُّ فعل في أوروبا النصرانية تجلّى في الحملة الصليبية التي قام بها ملك فرنسا (لويس التاسع) فقد تجهز لحرب صليبية تجهيزاً عظيماً، واصطحب معه الكثير من الأمراء والأشراف بفرنسا. وكان معه إخوته الثلاثة:

١ - روبرت دارتوا . ٢ - ألفونس دو بواتييه . ٣ - شارل دانجو . كما كان معه المؤرخ الفرنسي لهذ الحملة (جوفرا دو سرجين) وزوجته .

وكانت الفكرة السائدة في أوروبا منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي: أن **مصر** ما دامت على قوتها وبأسها فلا سبيل إلى نجاح الحملات الصليبية واسترداد بيت المقدس من المسلمين؛ الذين نجحوا في استعادته من الصليبيين مرة ثانية سنة (٦٤٢هـ= ١٢٤٤م) على يد الملك الصالح أيوب. إلا بشن حملة عليها، وتم التنسيق لذلك مع البابا **أنوسنت** الرابع والملك الفرنسي **لويس التاسع**، وشهد **مجمع ليون الديني** الدعوة لها سنة (٦٤٦هـ= ١٢٤٨م).

أبحر لويس من مارسيليا قاصداً الشرق ومعه زوجته وإخوته الثلاثة، واتجهت الحملة إلى مصر مروراً بقبرص بجيش قوامه ٥٠ ألف مقاتل، ومنها تأخذ مسارها نحو بيت المقدس لاستردادها وهي هدف الحملة. ولم يكن هدف تلك الحلمة إعادة الاستيلاء على بيت المقدس، أو ضرب مصر باعتبارها قاعدة حربية مهمة فحسب، وإنما استهدفت أيضاً هدفاً بعيد المنال، يتمثل في تكوين حلف نصراني وثني بين الصليبيين والمغول، يهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام من ناحية، ويطوق العالم الإسلامي ويحيط به من الشرق والغرب من ناحية أخرى، أرسل البابا أنوسنت الرابع سفارتين إلى المغول لتحقيق هذا الغرض، غير أنهما لم يكللا بالنجاح.

ملك فرنسا (لويس التاسع)

قام لويس التاسع بقيادة الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٩ م، حتى يحرر بيت المقدس من أيدي سلاطين مصر ، فكانت وجهته الأولى دمياط في مصر ، إلا أنه هزم ثم أسر في أولى مواجهاته في المنصورة عام ١٢٥٠م، بعد أن افتدى نفسه من الأسر، استقر في الشام لمدة أربع سنوات ١٢٥٠-١٢٥٤ م، ليعود بعدها إلى فرنسا حيث قام بإعادة تنظيم أجهزة الدولة وبعث معالم السلطة الملكية، كما أرسى قواعد أولى المؤسسات البرلمانية.

كانت له العديد من الأعمال الأخرى، تشييد الكنيسة الملحقة بقصره في باريس الكنيسة المقدسة، التي تعد من الشواهد البارزة على فن العمارة القوطي وتشتهر بزجاجياتها المتنوعة ، وجامعة السوربون والتي خصصت لأبناء العائلات الفقيرة ممن يريدون دراسة علم اللاهوت.

وقام عام ١٢٧٠م وبالرغم من نصيحة أتباعه بقيادة الحملة الصليبية الثامنة وأبحر نحو تونس آملاً في حمل سلطانها (الحفصي) على اعتناق النصرانية ، ومن ثمة الانطلاق نحو مصر التي كانت مفتاحه في استرجاع بيت المقدس، توفي الملك بمجرد أن وطئت قدماه البلاد. عام ١٢٩٧ م فقامت الكنسية بتطويبه (إدراجه في قائمة القديسين).

وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى جزيرة قبرص ثم قامت بوقفة تعبوية فيها؛ لتجميع كل السفن والمقاتلين قبل التوجه إلى الديار المصرية بناء على نصيحة مستشاري لويس التاسع، حيث انضم إليه عدد كبير من بارونات سوريا وقوات من فرسان المعبد (الداوية) والإسبتارية التي قدمت من عكا.

وفي قبرص استقبل لويس التاسع وفداً من المغول يحمل رسالة ودية من خانهم يعرض فيها مساعدته على لويس.

ونظراً لتوقف الحملة الصليبية في قبرص أدى إلى تسرب أنبائها إلى مصر قبل وصول سفنها إلى المياه المصرية كما تذكر ذلك المصادر الأوروبية.

استدراك مسبق
الحملة الصليبية الثامنة:

بعد الضربات الموجعة التي وجهها القائد المملوكي **الظاهر بيبرس** وجيشه المسلم ضد الغزاة الصليبيين في الشام، نكث **لويس التاسع** بعهده فجهز حملة صليبية أخرى لقتال المسلمين إلا أنه لم يستطيع أن يتصدى للمماليك في بلاد الشام، فما كان منه إلا أن وجه قواته نحو تونس. وتم خروجه من فرنسا يوم ١٥ مارس ١٢٧٠م.

قضى المستنصر الحفصي على الحملة الصليبية الثامنة (سنة ١٢٧٠).

مسار الحملة الصليبية الثامنة

سيرد التفصيل الكامل لهذه الحملة في أطلس تاريخ العصر المملوكي إن شاء الله تعالى

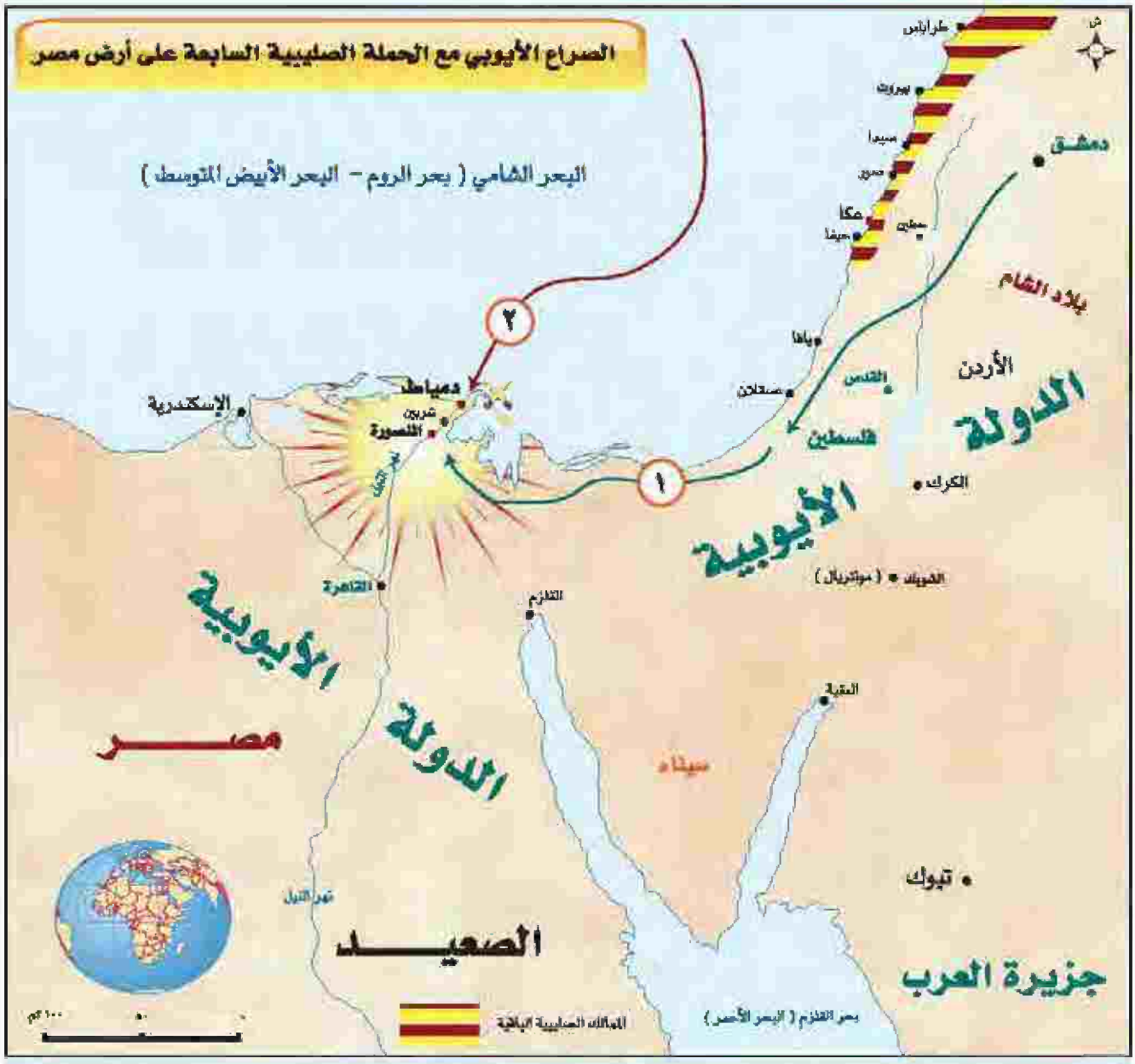

(١) عَلِم الصالح أيوب بأنباء الحملة الصليبية السابعة وهو في بلاد الشام، وترامى إليه تجمع الحشود الصليبية في قبرص، واستعدادها لغزو مصر والاستيلاء عليها؛ فرجع إلى مصر على الرغم من مرضه، وبدأ في ترتيب أوضاعه العسكرية.

(٢) وصول الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (٢٠ من صفر ٦٤٧هـ = من يونيو ١٢٤٩م) وفي اليوم التالي؛ نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل، ووقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات انسحب بعدها الأمير فخر الدين وقواته المكلفة بحماية المدينة إلى المعسكر السلطاني.

استغل الملك الصالح أيوب أنباء سقوط دمياط بمزيج من الحزن والأسى، فأمر بنقل عدد من الفرسان الهاربين، وأنّب الأمير فخر الدين على تهاونه وضعفه، واضطر إلى نقل معسكره إلى مدينة المنصورة، ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة، وتوافد على المدينة أفواج من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والمغرب الإسلامي.

سفينتان حديثتان تمخران نهر النيل (فرع دمياط)

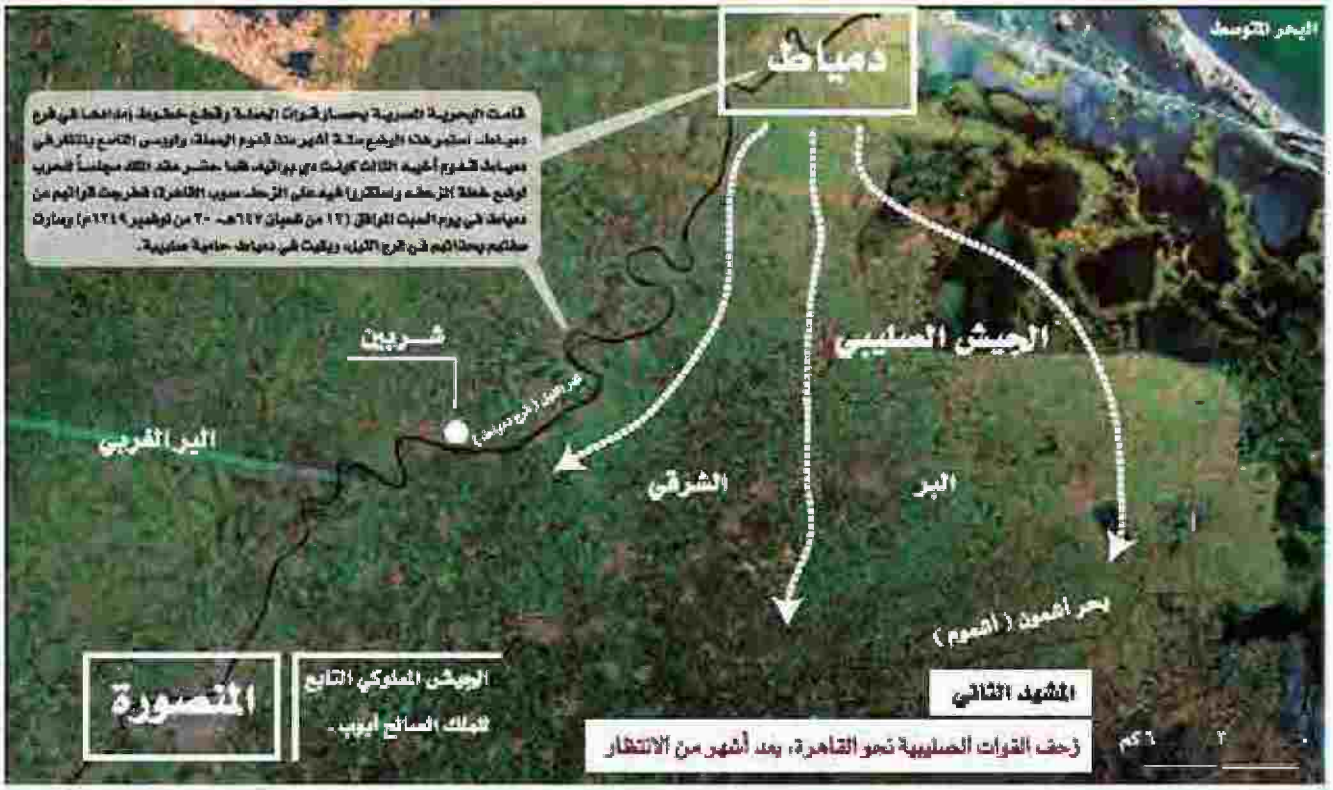

في الوقت الذي زحفت فيه الحملة الصليبية نحو القاهرة؛ توفي الملك الصالح أيوب في ليلة (النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ = ٢٢ من نوفمبر ١٢٤٩م) فقامت زوجته شجرة الدر بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته؛ خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين. وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ابن زوجها وولي عهده تحثه على مغادرة حصن كيفا، بالقرب من حدود العراق، وعلى سرعة القدوم إلى مصر ليعتلي عرش البلاد خلفاً لأبيه.

تسربت أنباء وفاة الملك الصالح أيوب إلى الصليبيين فبدءوا في التحرك، وتركوا دمياط، وزحفوا جنوباً على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل، حتى وصلوا إلى بحر أو قناة أشموم المعروف اليوم باسم "البحر الصغير"، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة. وتعين على الصليبيين لمواصلة الزحف أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم فاختار لويس التاسع القناة، فعبرها بمساعدة بعض الخونة، ولم يشعر المسلمون إلا والصليبيون يقتحمون معسكرهم، فانتشر الذعر بين الجند المصريين، واقتحم الصليبيون بقيادة "روبرت أرتوا" أحد أبواب المنصورة، ونجحوا في دخول المدينة وأخذوا يقتلون المصريين بكل قسوة، حتى وصلت طلائعهم إلى أبواب قصر السلطان نفسه، وانتشروا في أزقة المدينة، حيث أخذ الناس يرمونهم بالحجارة والطوب والسهام، وبينما هم على هذا الحال ظانين أن القصر صار بين أيديهم حقيقة لا خيالاً واطمأنت نفوسهم إلى هذا النجاح والظفر، انقض المماليك البحرية بقيادة "بيبرس البندقداري" على الصليبيين وهم في نشوتهم وغرورهم وذلك في (٤ من ذي القعدة ٦٤٧هـ = ٨ من فبراير ١٢٥٠م)، فانقلب نصرهم إلى هزيمة، وأوسعهم المماليك قتلاً حتى أهلكوهم عن آخرهم تقريباً بما في ذلك الكونت أرتوا نفسه.

مخطط معركة المنصورة في الحملة الصليبية السابعة

في اليوم التالي لمعركة المنصورة، عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش الإسلامي مجلس الحرب، عرض فيه على مباطله مخطط الكونت أرتوا خلفاً منه أنها ستترة الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور، مبرراً ذلك بقوله: "إن شعباً بدون ملك جسم بلا رأس، لا يُخشى منه خطر، وعلى ذلك أعلن أنه سيهاجم الجيش الصليبي بلا تردد". وفي فجر يوم الجمعة (٨ من ذي القعدة ٦٤٧هـ = ١١ من فبراير ١٢٥٠م) بدأ الجيش المصري هجومه على معسكر الصليبيين، لكن الملك لويس، تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة، وبذلك انتهت معركة المنصورة الثانية، وهي المعركة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لن يستطيعوا البقاء في مراكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الأوان.

موقف الصليبيين بعد معركة المنصورة الثانية

استطاع المسلمون بقيادة الملك طوران (توران شاه) آخر ملوك الأيوبيين حصر الصليبيين الغزاة في مدينة المنصورة، فلقي كثير من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسن لهم اللجوء إلى القلعة حتفهم، وبعد فترة اغرق المسلمون الأسطول الصليبي الراسي قرب المنصورة، وقطعوا اتصال الفرسان مع دمياط التي كانت قاعدة تموينهم، وتحت طائلة الموت جوعاً فر الصليبيون من المنصورة وفتكت بهم قوات المسلمين فزال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة، ووقع منهم الآلاف في الأسر، وكان ملك فرنسا (لويس التاسع) بين الأسرى، حيث أُسر في قرية منية أبي عبدالله (حالياً ميت الخولي عبدالله) بمحافظة دمياط وسرعان ما انتشرت الأمراض بين الأسرى كالملاريا والدزنطاريا والإسقربوط ، حتى إن الملك أخذت أسنانه تسقط وتعين حمله لقضاء حاجته، وفي مايو ١٢٥٠م، أخلي سبيل لويس مقابل فدية ضخمة ٨٠٠ ألف بيزنطي أو ٢٠٠ ألف ليرة شريطة أن يغادر الصليبيون دمياط، فوصلت بقاياهم إلى عكّا كيفما اتفق.

نهاية الدولة الأيوبية، لقد كان توران شاه شخصية عابثة!.. فلقد اتصف هذا السلطان الشاب بسوء الخلق، والجهل بشئون السياسة والحكم، وأعماه الغرور الذي ركبه بعد النصر على لويس التاسع ملك فرنسا عن رؤية أفضال ومزايا من حوله، فقد بدأ من ناحية يتنكر لزوجة أبيه شجر الدر، واتهمها بإخفاء أموال أبيه، وطالبها بهذا المال، بل وهددها بشدة حتى دخلها منه خوف شديد، ولم يحفظ لها جميل حفظ الملك له بعد موت أبيه، وحفاظها على سير الأمور لحين قدومه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بدأ يتنكر لكبار أمراء المماليك، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، ولم يحفظ للمماليك جميل الانتصار الرائع الذي حققوه في موقعة المنصورة، فبدأ يقلل من شأنهم، ويقلص من مسئولياتهم، وبدأ على الجانب الآخر يعظم من شأن الرجال الذين جاءوا معه من حصن كيفا، وبدا واضحاً للجميع أنه سيقوم بعمليات تغيير واسعة النطاق في السلطة في مصر، فاتفقت شجرة الدرّ مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل "توران شاه"، وبالفعل تمت الجريمة في يوم ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ، أي بعد سبعين يوماً فقط من قدومه من حصن كيفا واعتلائه عرش مصر!.. وكأنه لم يقطع كل هذه المسافات لكي يحكم بل لكي يُدفن!! وهكذا بمقتل "توران شاه" انتهى حكم الأيوبيين تماماً في مصر.. وبذلك أغلقت صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي فيها.

المماليك

ينقسم المماليك إلى قسمين:

١- **المماليك البحرية** وهم الذين أسكنهم الملك الصالح الأيوبي قلعة في جزيرة الروضة، وتسموا إلى بحر النيل، أو سُمّوا بذلك لأنهم قدموا من وراء البحار، وهؤلاء حكموا مصر من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م) وتداول عرش مصر في عهدهم أربعة وعشرون سلطاناً .

٢- **المماليك البُرجية** أو الجراكسة، وسُمّوا بذلك لأن السلطان قلاوون أسكنهم أبراج قلعة الجبل، ولأن الجراكسة كانوا أكثر عدداً وهؤلاء حكموا مصر من سنة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) وهم ثلاثة وعشرون سلطاناً.

وبيدأ تاريخ المماليك، مع انتصار المماليك البحرية الذين أبلوا بلاء حسناً في مقاومة الحملة الصليبية السابعة وأن يقيموا دولتهم **على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر**، فلم يكد يمضي شهر من تحقيق هذا النصر حتى تخلص المماليك من توران شاه ، وأقاموا **شجرة الدر** سلطانة على مصر، وكان ذلك إيذاناً ببزوغ عصر دولة سلاطين المماليك في مصر والشام.

ولم يأخذ المماليك بمبدأ وراثة العرش، وإنما كان الطريق مفتوحاً أمام من أبدى شجاعة وإقداماً ومقدرة، هذه هي المؤهلات في دولة المماليك التي قامت على أنقاض دولة الأيوبيين، وبعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين بمصر.

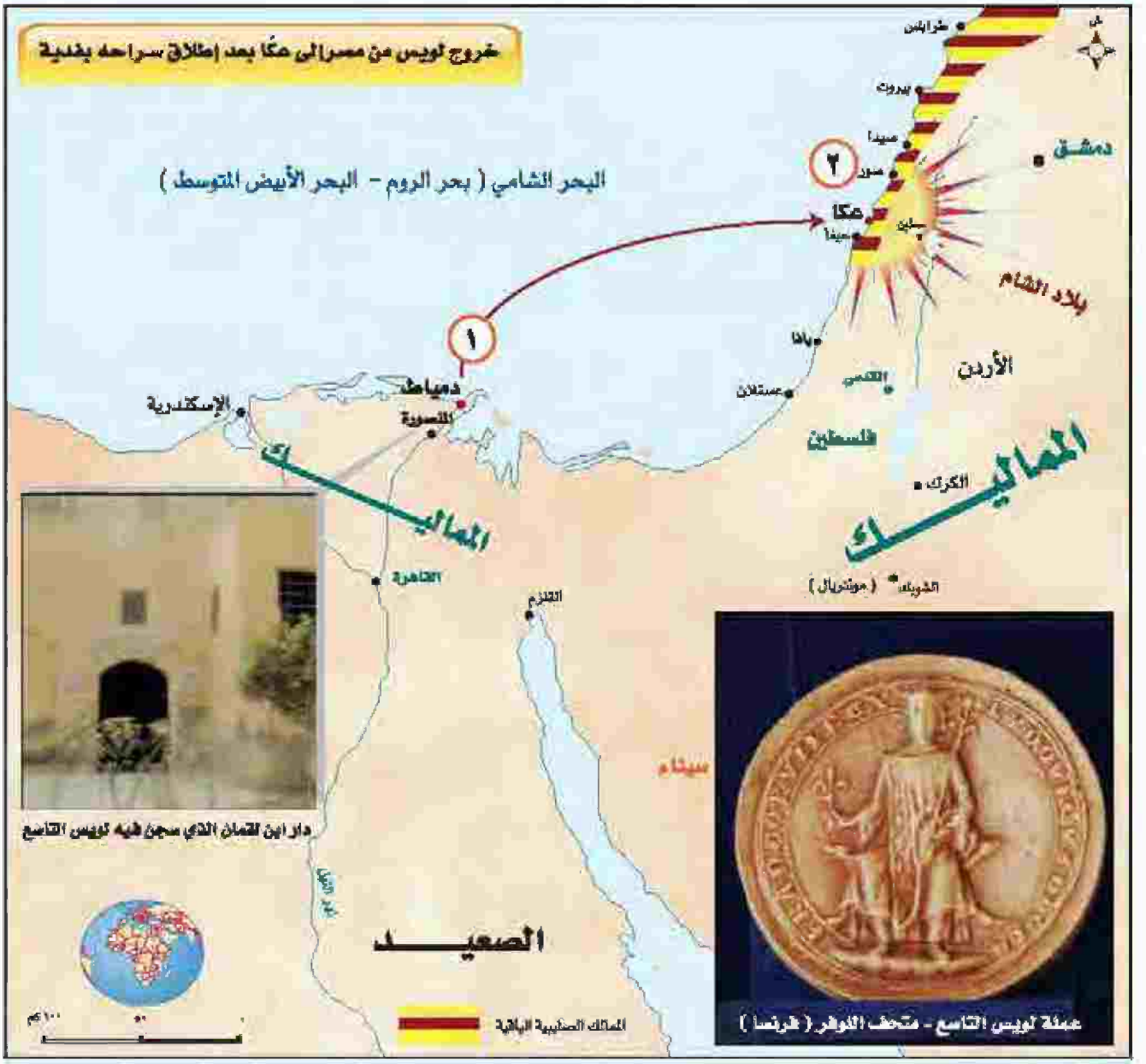

١ بعد انتصار الجيش الإسلامي المصري، على جيش الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، أسر لويس واقتيد إلى شجرة الدر، فأمرت بسجنه في سجن المنصورة، فجعل لويس يفاوض على إطلاق سراحه، ويعرض لقاء ذلك مبالغ خيالية **تقدر بالملايين**، فوافقت أخيراً شجرة الدر بشرط أن يتم تسليم نصف المبلغ قبل إطلاق سراحه فأطلقته، وأقسم لشجرة الدر بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، ولكنه ما إن وصل عكّا، حتى نكث عهده وقسمه، وبدأ يجهز جيشاً صليبياً لاستعادة بيت المقدس.

٢ بقي لويس في عكّا أربع سنوات، دعا فيها البارونات إلى حملة صليبية، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوة، فغادر لويس التاسع عكّا في إبريل ١٢٥٤م إلى فرنسا.

فرسان المعبد (الداوية)

هي هيئة عسكرية دينية تابعة لفرسان المسيح الفقراء، الذين كانوا يعرفون في العصور الوسطى أيضاً بفرسان هيكل سليمان، نسبة إلى مقرهم ببيت المقدس. وقد عرفوا في الكتب الدينية التي ترجع لعصر الحروب الصليبية باسم الداوية، وهي كالهيئات العسكرية الأخرى، مثل فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) والتيوتون. تألفت خلال الحروب الصليبية، وكانت النواة الأولى للهيئة فرقة تألفت من تسعة فرسان اجتمعوا برئاسة هيو دي باين، لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة المسيحية. وازداد عددهم تدريجياً، واتخذوا لأنفسهم قانون طائفة الرهبان البندكيين، ومنحوا مقراً في بيت المقدس يجاور البناء الذي كان يدعى هيكل سليمان. وانضم كثير من النبلاء الشبان إلى هذه الهيئة التي بدأت فقيرة جداً، ثم سرعان ما أخذت تتلقى منحاً من إقطاعات ومال من جميع أنحاء أوروبا. فأصبحت في مدة قصيرة من أقوى المنظمات العسكرية الأوروبية. واكتسب الداوية شهرة عظيمة بفضل إعلانهم أن هدفهم الأمثل هو حماية المسيحية، وبفضل انتصاراتهم العسكرية، إذ أثبتوا شجاعتهم في جميع الحروب التي قامت بها المملكة اللاتينية، ولعبوا دوراً مهماً في الصراع بين الصليبيين والمسلمين. وقد قامت منذ وقت مبكر منافسة مستمرة بينهم وبين الإسبتارية. وكان فرسان الداوية مسؤولين عن قلعة غزة التي سقطت في يد نور الدين زنكي، ثم استعادوها منه. غير أن فتوح صلاح الدين الأيوبي أكرهت الداوية، كما أكرهت الإسبتارية، على الجلاء عن بيت المقدس. وبعد غزو عكّا، استقر الفرسان فيها، ولعبوا دوراً مهماً في الحرب الصليبية الثالثة. وأخذ نصيب فرسان الداوية و الإسبتارية والتيوتون من محاربة العرب يطرد ازدياداً، حتى كادوا ينفردون به دون الصليبيين المتأخرين. لكن هذه الهيئات وقعت فريسة التنافس المدمر فيما بينها، كما أدى صراعها الداخلي المميت هذا إلى إضعاف قضية المسيحية في الشرق الأدنى. وأخذ المسلمون يستعيدون جميع الأراضي المقدسة، وفتحت عكا ١٢٩١م، وانسحب الإسبتاريون والداوية إلى جزيرة قبرص، ثم تخلت هيئة الداوية عن صفتها الحربية الرئيسة، وكان أفرادها قد أصبحوا حتى في القرن ١٢م صيارفة أوروبا بفضل الأموال الطائلة التي أغدقت عليهم. وكانت مؤسساتهم في إنجلترا وفرنسا بوجه خاص عديدة ومزدهرة، وأصبحت مقارهم بيوتات العالم المالية، وقد زادت هذه السيطرة المالية من قوتهم، وأثارت عليهم غضب الأمراء والملوك. ومما زاد الطين بلة، ابتعاد الداوية عن المبادئ القويمة، فساقوا أنفسهم إلى التهلكة، وحقد عليهم فيليب الرابع ملك فرنسا لسيطرتهم المالية، وارتكابهم لجرائم عديدة، فاضطهدهم (١٣٠٨م)، وبإعدام الرئيس الأعلى لفرسان الهيكل، جاك دي مولاي ١٣١٤م، انصرمت حياة هذه الطائفة[١].

---

١ - الموسوعة العربية، ص ١٩٦٥.

مقاتل من فرسان المعبد (الداورية)

عملية إرهابية من ضمن الأعمال التي يقوم بها فرسان المعبد وهو إضرام النار في معاقليهم

جاك دي مولاي آخر زعماء فرسان المعبد أعدمه فيليب الرابع سنة ١٣١٤م

الزحف المغولي نحو الخلافة العباسية

استأنف المغول زَحْفهمْ باتجاه مناطق غربي آسيا، بعد وفاة جنكيزخان في عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م ، ضمن سياسة توسعية. فقد عهد **منكوخان**، الذي تسلم الزعامة في عام ٦٤٦هـ/١٢٢٨م إلَى أخيه **هولاكو** بقيادة حملة على فارس وَأَوْصَاهُ بأن يبسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر. وحدد له إطَار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذَا قدَّم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له. أمَّا إذَا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل عقبة في طريق الزحف المغولي[١].

ومن جهته، وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الإسماعيلية، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

ووفقاً للخطة التي وضعها منكو، كان على هولاكو أن يهاجم الحشيشية (الإسماعيلية النزارية) في معاقلهم البالغة نحو خمسين قلعة منتشرة في قومس وقهستان، أشهرها كردكوه وميمون دز وألموت التي اتخذوها عاصمة لهم وقاعدة لملكهم بفعل مناعتها، وكان القائد المغولي كتبغا قد استولى على بعضها، وعندما تقدمت القوات المغولية نحو القلاع انتاب **ركن الدين خور شاه زعيم الحشاشين** الفزع، وأبدى استعداده للخضوع للمغول، وطلب منه هولاكو أن يدمر قلاعه كافة، فرفض ذلك، عندئذ قرر هذا الأخير مهاجمته، وعندما استولى المغول على معظم القلاع ولم يتبق إلا ميمون دز وألموت وكردكوه؛ عندها استجاب ركن الدين خور شاه لمطالب المغول وسلَّم قلعة ميمون بنفسه لهولاكو[٢].

توجه هولاكو بعد ذلك إلى قلعة ألموت وحاصرها، وطلب من ركن الدين خور شاه إقناع المحاصَرين بالاستسلام، لكن قائدها رفض ذلك ثم استسلم بعد ثلاثة أيام من حصارها. ودخل المغول إلى القلعة ، وحملوا ما فيها من الأسلحة والعتاد واستولوا على الكنوز والأموال، **وكان لانـدحار الحشاشين صدى إيجابي في العالم الإسلامي** على الرغم مما كان يعانيه المسلمون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل. ولعل مرد ذلك يعود إلى أن هذه الطائفة:

- قاومت في القرن السادس الهجري جهود السلاجقة في القضاء عليها[٣].
- أرهبت الخلافة العباسية وأفزعت رجالها.
- كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفرق في العالم الإسلامي.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران، فإنه يكون بذلك قد أدى خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة وصفه المؤرخ الجويني بأن هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين وتداركاً للدين من الخلل.

---

١ – د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥١.

٢ – د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ١٣٧.

٣ – د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ١٣٨ – ١٣٩.

الزحف المغولي نحو القلاع الإسماعيلية في إيران سنة ٦٥٠ - ٦٥٤ هـ

خرج هولاكو على رأس جيش هائل قُدّر بنحو ٢٥٠ ألف جندي من خيرة جنود المغول، بالإضافة إلى كبار القادة والفرسان، وحرص الخان الأكبر "منكوقا آن" أن يوصي أخاه قبل التحرك بأن يلتزم بالعادات والتقاليد ويطبّق قوانين جده جنكيز خان، وأن يكون هدفه هو إدخال البلاد من شغاف نهر "جيحون" حتى مصر في دولة المغول، وأن يعامل من يخضع لسلطانه معاملة طيبة، ويضيق الذل من يبدي المقاومة حتى لو كان الخليفة العباسي نفسه، فعليه أن يزيحه ويقضي عليه إذا ما اعترض طريقه.

وحقق هولاكو هدفه الأول بالاستيلاء على قلاع طائفة الإسماعيلية سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) بعد معارك عديدة واستماتة بذلها أفراد الطائفة الإسماعيلية النزارية في الدفاع عن حصونهم وقلاعهم، لكنها لم تجدِ نفعاً إزاء قوة الجيش المغولي.

الخلافة العباسية في بغداد

دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة

السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية

الإمبراطورية البيزنطية

مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى

سلطنة المماليك

الدولة الغورية

بقايا الاحتلال الصليبي

الإسماعيليون (الحشاشون) في إيران

الأيوبيون

الزيديون

تألفت **الدولة الإسماعيلية الباطنية** منذ عام ٤٨٢ هـ حتى انهيارها الأخير في ٦٧٠ هـ في سورية (٦٥٥ هـ في إيران)، من **أربع مناطق** رئيسة شبه مستقلة إضافة إلى بعض القلاع المتناثرة في أصفهان و الأحواز.

المنطقة الأولى: هي رودربار، الموطن الأساسي للمجتمع الإسماعيلي في إيران منذ عام ٤٨٢ هـ عندما تسلم حسن الصباح زعام الأمور في قلعة آلموت (آلموت). وكانت أهم القلاع في تلك المنطقة هي آلموت ،لاماسار، وسامران « دز شميران».

المنطقة الثانية: هي قومس، وهي المنطقة حول دامغان وسمنان كما تضم أيضاً الحصن حول سورو.

المنطقة الثالثة: هي قوهستان جنوبي خراسان حيث وجد عدد كبير من المكتشفات الحديثة. كما توجد أيضاً مواقع إضافية في الأهواز «خوزستان» ، وبشكل خاص أرجان، حيث حكم الإسماعيليون بضع سنين آثر غزوهم المشهديين، متطلعين إلى أصفهان،عاصمة السلاجقة، وإلى الحصن المجاور في خان لانجان .

وأما المنطقة الرابعة: فتقع في سورية، حيث بقي الإسماعيليون مستقلين حتى عام ٦٥٦ هـ عندما استسلمت آخر قلعة لبيبرس. ومع أن قلعة الكهف كانت مكان الإقامة الرئيس للقائد الإسماعيلي سنان راشد الدين، إلا أن «مصياف» كانت أهم حصن في سورية، وبقيت هذه القلعة مركزاً حربياً حتى العهد العثماني، وقد دمرت حديثاً" مع بداية القرن التاسع عشر. وكانت مجموعة القلاع حول القدموس متضمنة الخوابي، الرصافة، القلعة، المينقة، والعليقة مركزاً إسماعيلياً آخر في سورية.

حصار المغول لقلاع الإسماعيلة في إيران وإسقاطها

عندما استولى المغول على قلعة ألموت (آلموت) قام بتدمير موقعها العسكري، ويصف المؤرخ الفارسي الجويني بمهارة غرف التخزين الضخمة الموجودة في باطن الأرض التي بناها الإسماعيليون، كما يصف الصعوبات التي واجهها المغوليون في تدمير تحصينات القلعة. وكما بنيت بعض القلاع الإسماعيلية مثل آلموت في مواقع كانت مدعمة سابقاً فإن بعضها الآخر مثل غردكوز كانت أبنية جديدة كلياً.

بنيت القلاع والحصون الإسماعيلية في المناطق الجبلية التي يصعب الوصول إليها في إيران وسورية لتكون ملجأ للطائفة الذين كانوا يغزون الدول السنية وغيرهم خلال العصر العباسي. وصمدت هذه القلاع بفضل بنائها القوي المضاهي للبناء الصليبي أمام اعتداءات عديدة لأكثر من قرنين حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عندما حاصرها المغول وهدموا ما استعصى عليهم.

سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

كانت الأوضاع في العراق سيئة جداً. كما تعددت مراكز القوى آنذاك واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. واشتدت الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعياً. مما كان لها أثرها السيئ في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة[١].

وتعددت خلافات أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي، مما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول وأطمعهم في ملك بغداد.

في هذه الظروف الحرجة، طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على الطائفة الإسماعيلية. شاور المستعصم معاونيه، فنصحوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها. فوافقهم على رأيهم، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو.

لما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الإسماعيلية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووعيداً لامتناعه عن تنفيذ مطالبه، وطلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه، وأن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه الدواتدار. والواقع أن هذا الاحتجاج لم يكن إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلاطين السلاجقة. وطلب منه[٢]:

- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.
- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدواتدار.

ردّ الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه، أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر مليّاً قبل أن يقدم على خطوته. ويبدو أن الخليفة العباسي أمّل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين إلا أنه أخطأ في تقديره. إذ أن الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشاكل ما منعهم من النهوض لمساعدته. ولم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول. أما سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء.

وهكذا بدا العالم الإسلامي مفككاً، فلا يعقل أن يهب أمراؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشدد. فكان لهذا الموقف العباسي الرافض أسوأ الأثر في نفس هولاكو مما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد. لما اشتدّ حصار المغول على العراق، انقسم الرأي بين المداهنة

١-٢ : د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

مضى هولاكو في تحقيق هدفه الرئيس بالاستيلاء على **بغداد عاصمة الخلافة العباسية** والقضاء عليها؛ فأرسل إلى الخليفة المستعصم بالله يتهدده ويتوعده، ويطلب منه الدخول في طاعته وتسليم العاصمة، ونصحه بأن يسرع في الاستجابة لمطالبه؛ حتى يحتفظ لنفسه كرامتها ولدولته أمنها واستقرارها، لكن الخليفة باستشارة الخاصين رفض هذا الوعيد بشدة وقرر أن يقاوم، على الرغم من ضعف قواته وما كان عليه قادته من خلاف وعداء، فضرب هولاكو حصاره على المدينة المنكوبة التي لم تكن تملك شيئاً يدفع عنها قدَرَها المحتوم، فدخل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م).

الزحف المغولي نحو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م

الخلافة العباسية في بغداد

دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة

السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية

الإمبراطورية البيزنطية

مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى

سلطنة المماليك

الدولة الغورية

بقايا الاحتلال الصليبي

سقوط بغداد

الرسوليون

الصليبيون

والتصدي للعدوان. فقد نصح **وزير الخليفة ابن العلقمي** أن يبذل الأموال والتحف والهدايا، ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه، على النحو الذي كان مُتَّبعاً أيام اليويهيين والسلاجقة. أمَّا مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير الذي كان يستند على قوة الجيش، ومساندة العناصر السُّنِّية في بغداد، رفض رأي الوزير، وَأَصَرَّ على المقاومة. فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنى خيار المقاومة [١].

ولما أيقن **هولاكو** (انظر الصفحة المقابلة) أن في استطاعته السير إلى **العراق** دون أن يتعرض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته في **همذان**، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولما وصلت إليها في الثالث عشر من شهر محرم عام ٦٥٦هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٥٨م، ضربت حِصَاراً مُرَكَّزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره في ظاهر المدينة من ناحية الشرق.

ولما رأى **الخليفة** حرج موقفه أراد أن يُهَدِّئ المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فَأَرْسَلَ إلى هولاكو الرسل والهدايا، لكن هولاكو رفض الاستجابة لهذا النداء. ونفذ خطة عسكرية، تقضي بإفراغ بغداد من مدافعيها قبل أن يقتحمها جنوده. فَأَرْسَلَ **نصير الدين الطوسي** إلى الخليفة يَأْمُرُهُ بِإِرْسَال سليمان شاه والدواتدار. فَاضْطَرَّ الخليفة إلى الاستجابة. ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر. فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان. فلما خرج هذا الجمع، أمر هولاكو بقتلهم جَمِيعاً فانكشف عندئذ موقف الخليفة. ولما رأى ألا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم.

ولم يمض على ذلك يومان حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد اشترك **ابن العلقمي**، في هذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين [٢].

وقد ذكر المؤرخ ابن كثير: أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة.

وفي يوم الأحد **(الرابع من شهر صفر عام ٦٥٦ هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨م)** خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو الأمن والأمان.

١- ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

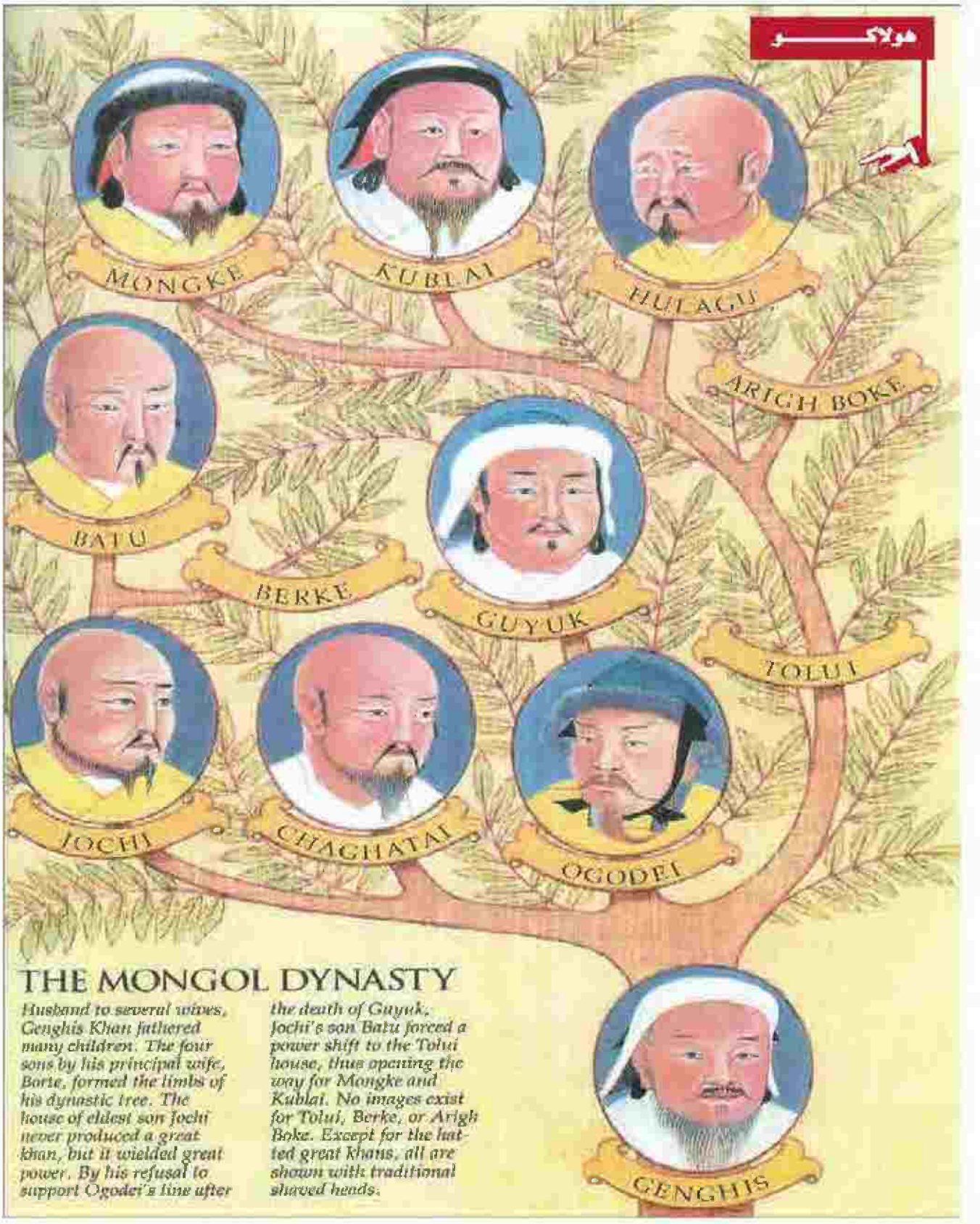

THE MONGOL DYNASTY

Husband to several wives, Genghis Khan fathered many children. The four sons by his principal wife, Borte, formed the limbs of his dynastic tree. The house of eldest son Jochi never produced a great khan, but it wielded great power. By his refusal to support Ogodei's line after the death of Guyuk, Jochi's son Batu forced a power shift to the Tolui house, thus opening the way for Mongke and Kublai. No images exist for Tolui, Berke, or Arigh Boke. Except for the hatted great khans, all are shown with traditional shaved heads.

مقتنة تبين كيفية القتل والتنكيل بالمسلمين من قبل الجيش المغولي الذي استباح بغداد عاصمة الخلافة

دخل **الجنود المغول** بكل وحشية وقسوة إلى عاصمة الخلافة العباسية « **بغداد** » وعاثوا فيها فساداً مدة أَرْبَعِينَ يَوْماً، هدموا المساجد التي يرفع فيها ذكر الله تعالى، وجردوا القصور الجميلة مما فيها من التحف النادرة، وَأَتْلَفُوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكتباتها التي أفرزتها العقول المفكرة، حتى إنهم ملأوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسوراً لخيولهم فتحولت مياه النهر الأزرق الصافي إِلَى اللون الْأَسْوَد من اختلاطها بالمداد، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن وطلبة العلم. وتعطلت المدارس ومناحي الحياة. وأضحت المدينة خاوية على عروشها. فتكدست الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كَثِيراً ممن كتبت لهم النجاة من هذا البطش الهمجي.

وقد انتهت هذه الأحداث المؤسفة بفاجعة مؤلمة وحادثة أليمة وهي **قتل الخليفة المستعصم وابنيه** أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم. وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي المستعصم **انتهت دولة الخلافة العباسية** التي عمرت أكثر من خمسة قرون.

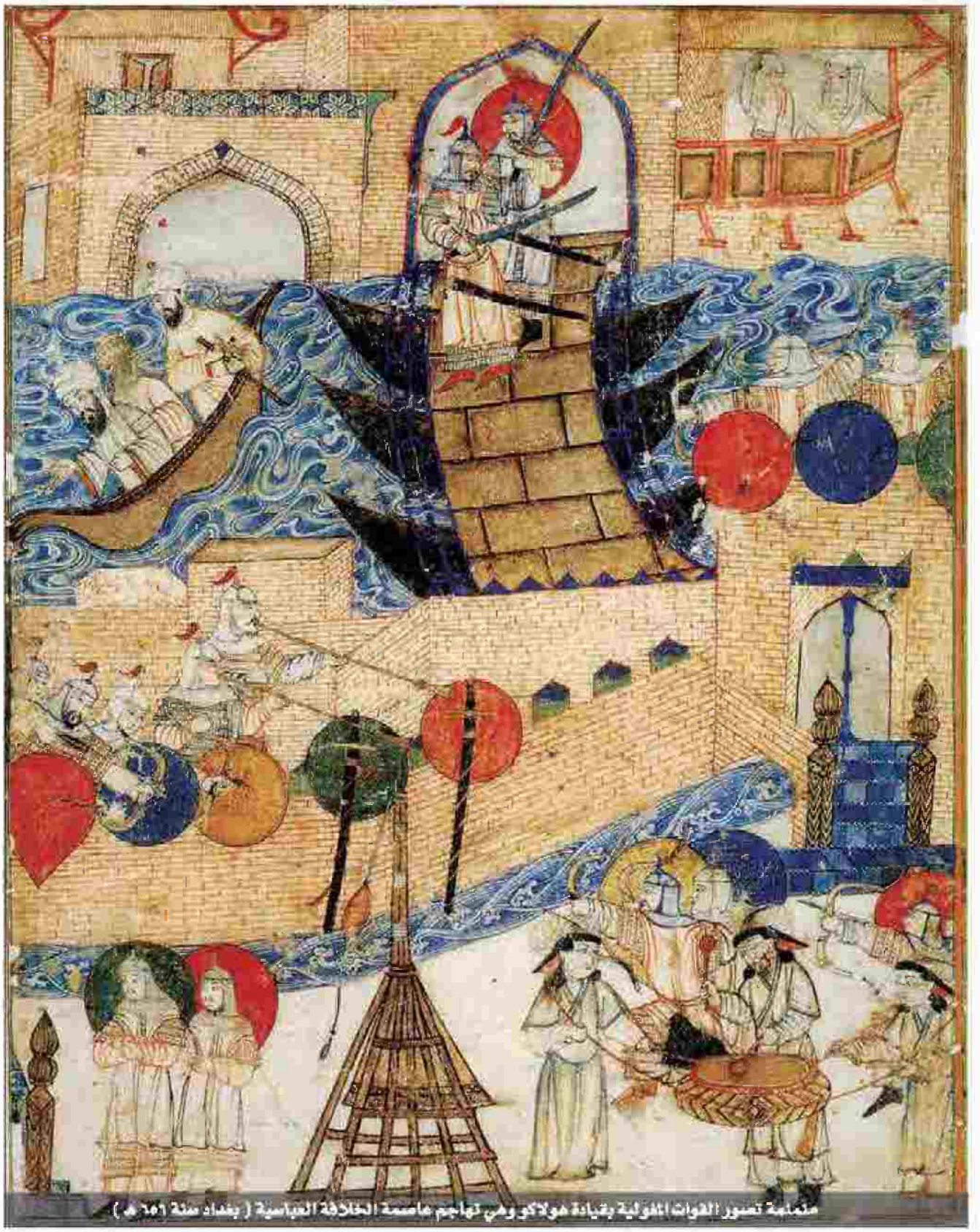

منمنمة تصور القوات المغولية بقيادة هولاكو وهي تهاجم عاصمة الخلافة العباسية (بغداد سنة ٦٥٦ هـ)

تدمير مكتبة بغداد على أيدي المغول

ذكر د. راغب السرجاني[1]: أن مكتبة بغداد في العصر العباسي من أعظم دور العلم في الأرض قرابة خمسة قرون متتالية - بلا أدنى مبالغة -؛ أسسها الخليفة العباسي **هارون الرشيد** -رحمه الله- الذي حكم الدولة الإسلامية من سنة ١٧٠هـ إلى سنة ١٩٣ هـ، ثم ازدهرت المكتبة كثيراً في عهد **المأمون** خليفة المسلمين من سنة ١٩٨ - ٢١٨ هـ، وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم لا يُتخيل كمّ تزخر من العلوم داخلها!! فهي دار للعلم حوت ملايين المجلدات في هذا الزمن السحيق !!.. ملايين من الكتب في مكتبة واحدة في زمان ليس فيه طباعة!! وكان هذا هو الأمر المتكرر والطبيعي في معظم حواضر الإسلام، ولا ندري بالتحديد كم عدد الكتب في هذه المكتبة الهائلة، وإن كانت تقدر حقاً بالملايين، ويكفي أن مكتبة طرابلس بلبنان - التي لم تكن تقارن أبداً بمكتبة بغداد - قد أحرق الصليبيون الأوروبيون فيها "ثلاثة ملايين" مجلد عندما وقعت في أيديهم!! فتخيل كم كان عدد المجلدات في مكتبة بغداد؟!! كانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات معينة لكتب الفقه، وحجرات أخرى لكتب الطب، وهناك حجرات ثالثة لكتب الكيمياء ورابعة للبحوث السياسية وهكذا.

وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها، ويواظبون على استمرار تجديدها، وكان هناك "النساخون" الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وكان هناك "المناولون" الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك "المترجمون" الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك "الباحثون" الذين يبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة!!

وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وغرف خاصة للمدارسة وحلقات النقاش والندوات العلمية، وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، بل كانت هناك غرف للإقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة!!

نحن إذن نتحدث عن جامعة هائلة، وليست مجرد مكتبة من المكتبات، لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني في الدنيا بأسرها، لقد كان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية، وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل.

١- موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية

لقد ترجمت في مكتبة بغداد الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والسريانية والهندية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية وغيرها.. هذه هي مكتبة بغداد!! المكتبة التي جمعت كل علوم الأرض في زمانها.

إحراق مكتبة بغداد[1]

ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟

لقد حمل المغول الكتب الثمينة.. ملايين الكتب الثمينة... وفي بساطة شديدة - لا تخلو من حماقة وغباء - ألقوا بها جميعاً في نهر دجلة؟!!!!..

لقد كان الظن أن يحمل المغول هذه الكتب القيمة إلى "قراقورم" عاصمة المغول ليستفيدوا- وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية - من هذا العلم النفيس.. لكن المغول آنذاك كانوا أمة همجية.. لا تقرأ ولا تريد أن تتعلم.. يعيشون للشهوات والملذات فقط..لقد كان هدفهم في الدنيا هو تخريب الدنيا!!..ألقى المغول بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة.. حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب.. حتى قيل إن الفارس المغولي كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى!!..هذه جريمة ليست في حق المسلمين فقط.. بل في حق الإنسانية كلها!!..وهي جريمة متكررة في التاريخ.

لقد فعل مثل هذا العمل المشين الصليبيون النصارى في الأندلس في مكتبة قرطبة الهائلة..وفعلها الصليبيون النصارى في الأندلس مرة أخرى في مكتبة غرناطة عند سقوطها، فأحرقوا مليون كتاب في أحد الميادين العامة!!..وفعلها الصليبيون النصارى في الأندلس مرة ثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة في مكتبات طليطلة وإشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها..وفعلها الصليبيون النصارى في الشام في مكتبة طرابلس اللبنانية فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب..وفعلها الصليبيون النصارى في فلسطين في مكتبات غزة والقدس وعسقلان.

ومع مطلع العصر الحديث فعلها المستعمرون الأوروبيون الجدد الذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاء؛ فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها، ولكن أخذوها إلى أوروبا ليستفيدوا منها، وما زالت المكتبات الكبرى في أوروبا تحوي مجموعة من أعظم كتب العلم في الأرض.. ألفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية.. ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية في مكتبات أوروبا تفوق كثيراً أعداد هذه المراجع المهمة في بلاد المسلمين أنفسهم!!..

١- د. راغب السرجاني - موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية

تدمير حضارة بغداد

ذكر د. راغب السرجاني[1]: أنه بعد أن فرغ المغول من تدمير وإحراق مكتبة بغداد (ذات الكنوز المعرفية العظيمة) انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق.. وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه!!.. وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان..

واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يوماً كاملة.. وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة، واكتست الشوارع باللون الأحمر، وعم السكون البلدة، فلا يسمع أحد إلا أصوات ضحكات المغول الماجنة.. أو أصوات بكاء النساء والأطفال بعد أن فقدوا كل شيء.. وهنا -وبعد الأربعين يوماً- خاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة نتيجة الجثث المتعفنة (مليون جثة لم تدفن بعد)، فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

١- يخرج الجيش المغولي بكامله من بغداد، وينتقل إلى بلد آخر في شمالي العراق، لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة، وتترك حامية تترية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة.

٢- يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين يوماً.. وقد سمح المغول بهذا الأمان حتى يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم.. وهذا عمل شاق جداً يحتاج إلى فترات طويلة (مليون قتيل)، وإذا لم يتم هذا العمل فقد يتغير الجو- ليس في بغداد فقط - ولكن في كل بلاد العراق والشام، وستنتشر الأمراض القاتلة في كل مكان، ولن تفرق بين مسلم ومغولي، ولذلك أراد هولاكو أن يتخلص من هذه الجثث بواسطة المسلمين.

وفعلاً خرج المسلمون الذين كانوا يختفون في الخنادق أو في المقابر أو في الآبار المهجورة.. خرجوا وقد تغيرت هيئتهم، ونحلت أجسادهم، وتبدلت ألوانهم، حتى أنكر بعضهم بعضاً!!..

لقد خرج كل واحد منهم ليفتش في الجثث، وليستخرج من بين التلال المتعفنة ابناً له أو أخاً أو أباً أو أماً!!.. مصيبة كبيرة فعلاً..

بدأ المسلمون في دفن موتاهم.. ولكن كما توقع هولاكو انتشرت الأوبئة في بغداد بشكل مريع، حتى مات من المسلمين عدد هائل من الأمراض القاتلة!!.. وكما يقول ابن كثير رحمه الله: "ومن نجا من الطعن، لم ينج من الطاعون!!"..

فكانت كارثة جديدة في بغداد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

٣- كما أصدر هولاكو قراراً بأن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل المغول على بغداد مكافأة له على الدور المخابراتي الذي لعبه .أ . هـ .

١- موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية

من قصيدة الشاعر المصري الكبير الأستاذ/ علي بن صالح الجارم ١٢٩٩ - ١٣٦٨ هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٩ م

هو أديب مصري، من رجال التعليم له شعر ونظم كثير، ولد في رشيد، وتعلم في القاهرة وإنجلترا، واختير ليكون كبير مفتشي اللغة العربية بمصر، ثم وكيلاً لدار العلوم حتى عام (١٩٤٢م)، مثل مصر في بعض المؤتمرات العلمية والثقافية، وكان من أعضاء المجمع اللغوي. وتوفي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ. له (ديوان الجارم-ط) أربعة أجزاء، (قصة العرب في إسبانيا -ط) ترجمة عن الإنكليزية، و(فارس بن حمدان-ط)، (شاعر ملك-ط)، وقد شارك في تأليف كتب أدبية منها: (المجمل-ط)، و(المتصل-ط) وكتب مدرسية في النحو والتربية.

طُفْ ببغداد وسَلْ آثارها ... أيَّ سرٍ كتمتْهُ شفتاها

كُلُّ رسْمٍ قد وعى نادرةً ... لو جرى النطقُ عليه لحكاها

مشتِ الدنيا إليها تتقي ... سُخطَ بغداد وتستجدي رضاها

وأبو المأمون في مملكةٍ ... يتحدَّى المُزْنَ أنْ تغدو قُراها

بلغتْ بنتُ قريشٍ ذروةً ... ببني العبّاسِ صعباً مُرتقاها

بينَ شعرٍ كأزاهيرِ الرُّبا ... عكفَ الغيثُ عليها فسقاها

هو دلٌّ ردَدتْهُ قَينةٌ ... وهو وجدٌ قاضَ من نفسٍ قتاها

وعلومٌ تُرجِمتْ واستُنبطتْ ... وفصولٌ بهرَ الدُّنيا حجاها

أبدأتِ القولَ ولُتْ بعدهم ... طيِّبَ اللهِ ثراهم وثراها

يا بني العبّاسِ في مصرِعكمْ ... عظةُ الكونِ وعاها مَنْ وعاها

أطفأَ النورُ ودالتْ دولةٌ ... وطوى الدهرُ المُنى حينَ طواها

شدَّ هولاكو على أرباضها ... شدَّةَ الذؤبانِ أبصرْنَ شياها

وجرى من حولِه عقبانُه ... كُلَّما أطعمَها هاجَ ضراها

لهفَ نفسي بنتُ عدنانَ هوتْ ... وأسودُ الغيلِ قد ديسَ شراها

سائلُوا دجلةَ عمّا راعَها ... أو دعُوها فكفاها ما دهاها

قذفَ الكُتْبَ بها طاغيةٌ ... هلْ درى ما كنزَتْه دفّتاها

فتأمَّلْ إذ جرى أذيُلها ... أترى فيه عُقولاً أمْ مياها

ذهبَ العسفُ بآثارِ النُّهى ... كيفَ تحيا أمّةٌ ضاعتْ نهاها

طارتِ الفُصحى لمصرٍ تبتغي ... ناعمَ العيشِ خصيباً في ذراها